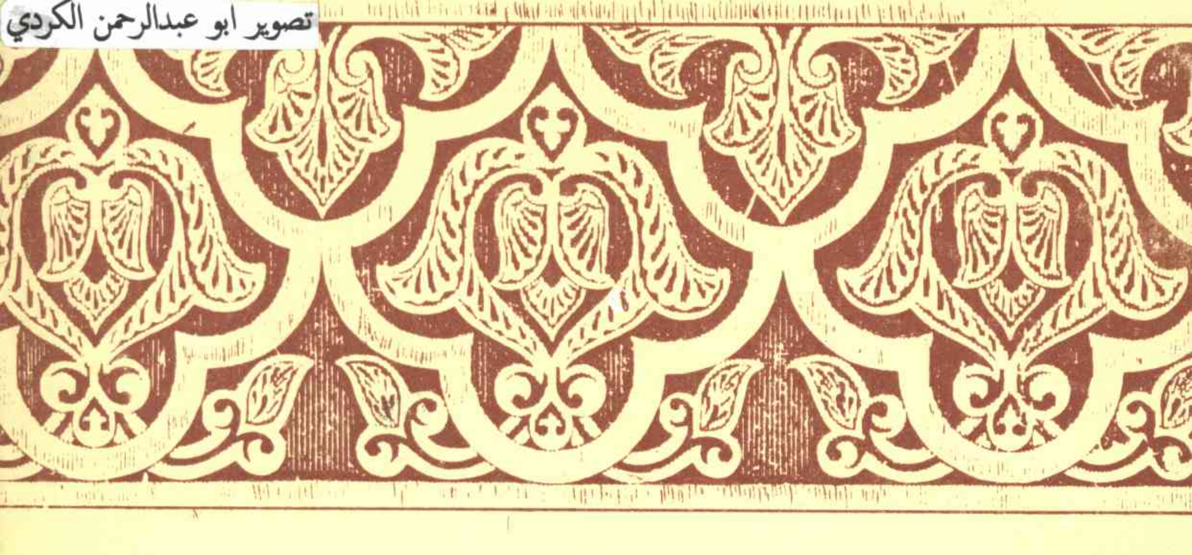


الإسلام يتحدّى

(مدخل علمي إلى الإيمان)

وحيد الدين خان

تعريب
ظفر الإسلام خان

مراجعة وتحقيق
دكتور عبد الصبور شاهين

الإسلام يتحدى

(مدخل علمي إلى الإيمان)

بسم الله الرحمن الرحيم

مشخصات کتاب

نام کتاب : الاسلام يتحدى

مؤلف : وحيدالدين خان

ناشر : دارالجيل المسلم

تیراژ : ۳۰۰۰ نسخه

چاپ : نمونه

ایران / قم

« إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »
(فاطر : ٢٨)

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . »
(فصلت : ٥٣)

وحيد الدين خان

الإسلام يتحدّى

(مدخل علمي إلى الإيمان)

تعريب
ظفر الإسلام خان

مراجعة وتحقيق
دكتور عبد الصبور شاهين

دار البحوث العلمية

This is an Arabic translation of «Ilmé Jadeed Ka Challenge» by the Indian muslim thinker and reformer: **Waheeduddin Khan** (Editor, Weekly Aljamiat, Delhi-6, India), published in Urdu (1966) by Academy of Islamic Research & Publications, Nadwatul Ulema, Lucknow, India. It has been rendered to Arabic by Mr Zafarul Islam Khan, revised by Prof Dr Abdussabur Shaheen of Cairo University and published by « Scientific Research House, P.O.Box 2857, Kuwait.

هذه ترجمة كتاب

« علم جديد كاچيلنج »

كتبه بالأردية الأستاذ وحيد الدين خان ونشره عام ١٩٦٦ « المجمع العلمي الإسلامي » التابع لندوة العلماء ، لكنو ، بالهند .

وتمت الترجمة بإذن من المؤلف

الطبعة الاولى ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م

الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣

تقديم الطبعة الأولى

بقلم الدكتور عبد الصبور شاهين

ما أكثر ما يكتب عن الإسلام والمسلمين فى مطبوعات هذا العصر فى العربية ، وغير العربية ، وما أقل غناء أكثره .

قليل جداً من الكتابات الإسلامية هو الذى يعد إسهاماً فى معالجة مشكلات عالمنا الإسلامى ، إسهاماً جاداً مخلصاً من أجل عودته ، وتقدمه .

وكثير جداً ما نقرؤه من تلك الكتابات التقريرية ، أو الرثائية الوعظية ، التى تخطها أقلام ، إن كانت تتاجر بالدين ، فلا غرابة ، فى عالم يقوم على المتاجرة حتى بالقيم ، فأما إذا كانت معروفة بالعلم وبالذكاء ، فذلك هو داعى الحسرة والإشفاق فى أنفسنا على علمائنا الأذكياء .

أيمكن أن نتصور عالم الفكر الإسلامى مجرد أقاصيص تحكى للبهر ، أو مقالات يجتهد أصحابها فى تدبيج مقدماتها وسياقاتها ، لننتهى بعد قراءتها إلى هز الرءوس ، ولوك عبارات الثناء والإعجاب ؟

هذا على حين يتشاغل كتاب الفلسفات المادية برسم تطلعات العصر ، وعلاج مشكلات التطبيق على مستوى عالمى ، حتى ليحس المرء بعد مطالعة بحث من هذه البحوث بحاجته إلى أن ينزوى نفسياً فى ركن من أركان اليأس والقنوط ، لأنه غائب تماماً عن المعركة الحاضرة !!.

تلك محنة الوجدان والعقل المسلم ، الذى ينشد لدى كتابه ومفكريه مستوى من المبادرة والجد والإخلاص ، ولوناً من الكتابة المباشرة التى تعيش عصرها وأفكاره وتطلعاته ، فإذا هم لا يزيدون على مضغ حكايات الأولياء ، واجترار بضعة خيالات محلقة فى سماوات التيه ، ومجابهة الواقع الصارخ الملح بما يميعه فى وعى الجماهير ، ثم يسرح بها بعيداً بعيداً ، فى أحلام الماضى وتصوراته .

ومن البله أن نظن أن أخبار السلف هدف ثقافى ، يقصد لذاته كتمة عقلية ، دون أن يكون من وراء ذلك مشروع إنهاض، وخطة توعية من أجل صنع الحاضر، والتأثير فى الأجيال القادمة ، حسب هؤلاء السلف أنهم كانوا أمثلة مسهمة فى صنع عصرهم ، وتوجيه معاصريهم ، ثم مضوا ، عليهم من الله رضوان ، ومن الناس سلام .

وجاء من بعدهم خلف ، أصبح بعد حين سلفاً ، بعد أن مضى إلى الرفيق الأعلى ، مخلفاً كذلك تركة من السلوك ، ومن الكفاح ، هى جزء من تاريخ أمتنا .

وجاء جيلنا ليتوهم، أو ليراد له أن يتوهم، أنه مجرد وارث لأجيال سابقة، عليه أن يستغل تركتها فى خلق ملذاته ، فإذا ما جوبه بتحديات عصره لجأ إلى المباهاة بتراثه ، المباهاة وحدها، المتمثلة فى أكثر الكتابات المنشورة ، التى لا تمل أن تحكى وتحكى ، حكايات فى حكايات ، وتقف أحياناً مستعلية من فوق منبر ، لتمطر على الحضـــور وعظاً فى وعظ ، دون أن تبلغ فى ظن الجماهير أن تهز وجداناً ، أو حتى تحرك قشة .

إن أخص صفات عصرنا هى أنه ينتج من الأفكار بقدر ما ينتج من الأشـــياء ، وليس من الضرورى أن نتطلب من الأفكار المنتجة أن تكون نافعة دائماً كالأشياء ، فإن المجتمعات التى تصدر إلينا أشياء الحضارة ترى فى الأفكار سلعة ينبغى أن تتغير كل يوم ، كما تتغير طرز الأشياء، ولذلك يقف مثقفونا مبهورين أمام موجات الفكر الواردة من الخارج، ماذا يأخذون ، وماذا يدعون ؟ بل قل: ماذا يقرءون، وماذا يترجمون ؟ .. ولاشئ أكثر من هذا ... يكفيهم أن يستطيعوا ملاحقة الأفكار ، دون أن يكون عليهم أن يواجهوها ، أو ينقدوها، فهم إلى أن يصوغوا نقداً معيناً لأحد الاتجاهات الجديدة نسبياً يكون الوقت قد فات ، وتقادم بمرور الزمن ما ينقدون ، وغطت عليه أفكار أخرى أشد لمعاناً ، وأكثر جاذبية وإشعاعاً .

ومما لا شك فيه أن العـــالم الإسلامى هدف ثمين من أهداف – تصدير – الأفكار ، نظراً إلى موقعه، وخطورة موقفه بين الكتل المتصارعة، أو بعبارة أخرى : مراكز الإنتاج، والهدف من وراء التصدير واحد لدى كل هذه المراكز : أن يبقى هذا العالم مفتقراً إليها، على اختلافها ، وأن يحال بينه وبين أفكاره الأصيلة ، التى يمكن أن تغنيه عن الاستيراد ، وتحقق له الاكتفاء الذاتى .

ومن المعروف فى دوائر الاقتصاد أن الاحتكار إذا تحقق لمركز إنتاجى فى سوق معينة فإن من المتوقع أن يبدأ المنتج فى إفساد السلعة ، بتقليل جودتها ، اعتماداً على الاحتكار المتاح له ، وطمعاً فى ربح أوفـــر .

وسوق الأفكار أخطر أسواق المنتجات، وأكثرها تقبلا للتزييف والإفساد، ومن ثم حفلت أسواقنا بما هو أشد فتكاً من السموم، وأعظم انتشاراً من الهواء ، يتخلل كل خلية ، وينخر فى

كل بناء .. أفكار ترتدى أثواباً ، أو تحمل شعارات ، أو ترفع مشاعل ، ليس الثوب فيها ، أو الشعار ، أو المشعل ، إلا قناعاً يستر الزيف والخطر .

وليس من الممكن أن نفهم موجات السيطرة الخارجية على مجتمعاتنا إلا إذا لاحظنا مثلا تبعية الفتاة المسلمة فى كثير من بلاد الشرق العربى لكل ما يظهر فى أوربا أو أمريكا من أزياء ، فما إن ترتدى الزى إحدى (المانيكان) قصيراً بمقدار سنتيمتر واحد ، حتى تبادر فتياتنا إلى تقصير أثوابهن بمقدار شبر واحـــد !!

ليس المهم ملاحظة أن تقصر الفتاة أو تطول ثوبها بحكم (الموضة) الشائعة ، فإذا لم تفعل عدت متخلفة ،وإنما المهم ملاحظة هذه السيطرة التى توفرت لملوك الأزياء،وأكثرهم صهيونيون، على فتياتنا المثقفات بخاصة ، حتى كأنهن جميعاً أعضاء فى جوقة موسيقية واحدة ، وأمامهن (مايسترو) كلما أشار بإصبعه أو بعصاه تحرك العازفون والعازفات فى اتجاه العصا ، كالقطيع .

ودلالة هذه التبعية أخطر مما قد يبدو فى ظاهر الأمر ، لأن تأثيرها يشمل كل القيم التى يقدسها المجتمع فى شخص المرأة ، قيم الحياء ، والأنوثة الواعية ، والجسد غير المتعرض لذباب الأعين ، وقيم التماسك ، والالتزام فى تربيتها ، وقيم الجيل الناشئ على يديها،وهو الذى ننشده لغد هذه الأرض،ومستقبل هذا الدين،وبكلمة واحدة ، وبلا مغالاة : نحن هكذا محكومون من عق مجتمعنا لملوك الأزياء ، ودولة المانيكان .

ومع ذلك ، قد يقال : إن مسألة الزى أقل خطراً من غيرها ، فهى على أية حال مسألة خلاف ... أما غيرها ، كقضية المعتقدات التى تزيف للأجيال الناشئة ، وجوهرها تحطيم لدينها ...

وقضية الروح المنهزمة أمام انتصارات العلم فى غير بلاد الإسلام ، الروح التى تقف متضعضعة مبهورة أمام منجزات الإنسان الأوروبى أو الأمريكى .

وقضية الحرية الفكرية المعدومة فى فلسفة التربية ، حتى أصبح كل هم المدارس إنتاج نماذج مصبوبة فى بوتقة التبعية والتقليد . . وقضايا أخرى كثيرة ، كلها أهم من قضية الميني جيب ، أو الميكروجيب .

وبرغم ذلك لا نكاد نلمح أدنى فاصل بين هذه القضايا جميعاً ، فالمصنع المنتج واحد، وهدف التصدير واحد ، والمستهلك المستهلك واحد أيضاً ، هو الإنسان المسلم .

والمشكلة بالإضافة إلى هذا كله أن أكثر كتابنا أصبحوا يرون فى قيام هذه الحالات شيئاً مألوفاً غير جدير بالمناقشة ، إما زهداً فى الدنيا ، وإما يأساً من الإصلاح ، وإما تعودا على المشاهدة اليومية ، كما يتعود المدمن تأثير الخدر . وكأنهم المعنيون بقول الشاعر :

من يهن يسهل الهــوان عليه   ما لجرح بميت إيــــلام

وأقول : (أكثر كتابنا) ، لأن هنالك (قلة) نصبت أقلامها للذود عن المستقبل، والدفاع ضد التيار المخرب، متحملة فى ذلك عنت الفساد وسلطانه، ومتحدية فى المجتمع مراكز استيراد الأفكار، وعناصر اللامبالاة ، وهؤلاء القلة لا تكاد — والحمد لله — تخلو منهم أرض الإسلام ، يكتبون بكل لغة، ويحاربون فى كل معركة ، إيماناً منهم بوحدة المقاتلين أمام الخطر الزاحف .

ومن هؤلاء القلة مؤلفنا هذا، الذى يدخل اسمه لأول مرة حقل اللغة العربية ، بنشر ذلك الكتاب : (الإسلام يتحدى) ، وإن كان لاسمه رنين مدو فى شبه القارة الهندية ، باعتباره ثالث اثنين، يتولون قضية الإسلام المعاصر فى وجه الزحف الفكرى : أبو الأعلى المودودى ، وأبو الحسن الندوى ، ووحيد الدين خـان .

والحق أن علماء باكستان والهند المسلمين قد أتيح لهم أن يتصلوا اتصالا مباشراً بمصادر المعرفة الحديثة، حتى أصبحوا من أعلامها، وهم فى هذا يضارعون أكثر علمائنا العرب اتصالا بثقافة الغرب، مع فارق جوهرى، فى رأينا، هو أن الأولين الذين نشير إليهم لم يغرقوا أنفسهم فى المعرفة الأكاديمية ، لتستولى من بعد على عقولهم وأقلامهم ، وليصبحوا مجرد ناشرين ، أو مفسرين ، أو حتى معلقين ، على ما يقدمون من فكر الغرب وعلومه .

لقد وقف هؤلاء عمالقة فى وجه التيار، وانغمسوا فى مشكلات الجماهير، وحاولوا أن يقدموا لهم تصوراتهم من أجل المستقبل، ومن أجل تحريك الثورة الفكرية فى كيان الإنسان المسلم ، فهم فى الحقيقة كتاب ثوريون ، ذوو أصالة ووعى وإيمان .

وليس من السهل أن نقول : إنهم جميعاً يمثلون طريقة واحدة فى الأداء، برغم أن هدفهم واحد ، فإن لكل منهم أداءه الخاص ، وطريقته الفذة التى عرفته بها الجماهير المسلمة .

وحسبنا أن نقرأ هذا الكتاب الجديد ، لندرك أنه يمثل عقلا، وثقافة، ومنهجاً ، يختلف بها مؤلفه عن جميع من عرفنا من الكتاب المعاصرين .

ولعل من المناسب أن أورد هنا ما كتبه المؤلف فى صحيفته (الجمعيت الأسبوعية) فى عدد ٧ من فبراير ١٩٦٩ ، موضحاً الدور الذى يحاول أن يقوم به ، قال :

« إن المشكلات التى يواجهها الإسلام فى هذا العصر ، منها ما هو علمى ، يوجه إليه بلغة العلم ومصطلحاته، ولذلك كان لزاماً أن نضع إجاباتنا فى مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التى يستخدمها المعارضون للدين . ولا زال هذا الميدان ، منذ أمد طويل مجالا لنشاطى واهتمامى ، حتى كان آخر ما كتبت : (الإسلام يتحدى) .

« والميدان الثانى لنشاطى هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الإسلامية وتعميرها، والعمل على نهضتها ، وعلينا فى هذا المجال أن نكشف العلل ، ونمحص الأسباب السياسية والاجتماعية التى

أدت إلى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل، بعد الوقوف على أسباب النكسة التى أصابتنا، وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين (فى شبه القارة الهندية) ، ليربط بين مختلف أنشطتهم ، فيجعلها مجموعة معنوية متكاملة، وحثهم على مواصلة الجهد لتكون منهم أمة قوية جامعة فى العـــالم .

« وبكلمة أخرى ، نحن نصبو إلى بعث الأحلام التى رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لإعلاء شأن الأمة المسلمة ، وهى الأحلام التى لم تتحقق ، لسبب أو لآخر .

« وهذه هى المهمة الفكرية التى تضطلع بها صحيفتنا (الجمعيت الأسبوعية)، ويمكننا أن نقول بحق : إن هذه المهمة قد أصبحت أكبر ميزة خاصة لجريدتنا فى المجال الصحفى ، فى هذا العصر ، على حين أصبحت الصحافة الإسلامية علماً على الرثاء ، بل إن آخر ما تستطيعه هذه الصحافة هو مجرد التعليقات السياسية على الأحداث العامه ، وتقديم بعض المعلومات الطريفة التى يتشوق إليها العامة من القراء . فى هذا المناخ الصحفى تعتبر (الجمعيت الأسبوعية) الصحيفة الوحيدة التى تعمل على إحياء وتقوية الشعور القومى لدى المسلمين ، باحثة عن مواطن الخطأ فى كفاحهم الحضارى ، ونحن لا نجد كلمات نشكر الله بها ، على أنه — سبحانه — اختارنا بمشيئته لسد هذا الفراغ » .

فالرجل كما نرى صاحب دعوة ، يريد إبلاغها إلى ضمير الأمة المسلمة بلاغاً يحركها نحو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار ، وهى دعوة ذات شقين ، أحدهما يستنفد العمر كله ، ولكنه يعمل لتحقيق كليهما بوسائله المتاحة : أن يكتب كتباً ، وأن يسخر مجلة أسبوعية .

والواقع أن كتابه هذا يعتبر تحقيقاً لحلم طالما راود كتاب العقيدة والمدافعين عنها ، فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة على وجود الله ، وإثبات الرسالة ، وما يتصل بهما من حقائق ميتافيزيقية — قد وقفت عند جهود علماء الكلام ، باستخدام الأقيسة المنطقية ، التى بليت لطول مالاكتها الألسن ، وأصبح مجرد التحدث بها داعية إلى الملل منها ، بل إن لغتها لم تعد مفهومة لشباب الإسلام ، الذى يعيش فى هذا العصر ظروفا تتغير من يوم لآخر ، وتطالعه ثقافات ذات جدلية ماهرة ، ومناهج علمية تجريبية ، لم يعد العقل يقنع بدونها .

لقد أصبح كل شئ موضع شك . وبذلك سقطت القضايا القائمة على المسلمات المنطقية ، لأنه لا شئ فى العقل الحديث يسلم منطقياً ، إلا وله نقيض منطقى يمكن أن يحتمله العقل . أما التجربة فهى الدليل الذى لا يدفع على قضيتها ، وما ينتج عن التجربة ليس مسلماً منطقياً ، ولكنه حقيقة نسبية موضوعية ، وهذا شأن العلم . ومن هنا كان لابد من تغيير المناهج الكلامية ، لإشباع رغبات متجددة فى اليقين ، تريد أن تؤسس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة التى اخترقت الآفاق ، وقاست أبعاد النجوم ، وتغلغلت فى أسرار المادة ، حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها .

وإذا قيل : إن قضايا علم الكلام هى قضايا الغيب المطلق المحجوب الأسرار ، ولا يعقل أن يكون للتجربة دور فى معالجتها . تذكرنا فى رد هذا الرأى ما قاله عربى يعيش على فطرته ، وينطق على سجيته ، دون أن يكون قد ألم بشىء من منطق أرسطو : « البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على الله اللطيف الخبير » ؟؟ .

وكلمات هذا الأعرابى ألصق بالمنهج التجريبى ، القائم على الملاحظة ، وأقرب إلى التأثير فى النفس ، وأقدر على إقناع العقل ، من أية صيغة قياسية – ما فى ذلك شك .

لقد أصبح سيئا للغاية أن ينطق رجل الدين أمام الناس ، أو أمام الطلاب بقضايا متقادمة ، قال بها الأولون ، دون أن يحاول مزج المعرفة التقليدية بالجديد،وأكثر ما تتجلى هذه المعرفة التقليدية فى علم التوحيد أو الكلام ، أو مباحث العقيدة ، على اختلاف المصطلحات ، حيث يصر بعض الأساتذة على حكاية النزاع بين المعتزلة وأهل السنة ، والفرق بين الأشاعرة والماتريدية ، ووجهة نظر الخوارج والشيعة،والخلاف بين الجبرية وغيرهم،وتناقض ما بين العقل والنقل أو تساندهما ، وكل ذلك دائر فى حلقة مفرغة ، بعيدة عن مجال تفكير الشباب المتحول ، لأن هذا الكلام كله قد أدى وظيفته على خير وجه ، حين كان جزءاً من صراع عصره حول المفاهيم والقيم ، فلما مضى عصره أصبح جزءاً من تاريخ الفكر ، لا أساساً من أسس النقاش الحى النابع من التجربة المعاشة .

ولذلك يعجز هذا الكلام عن إقناع ملحد حديث بخطئه ، لأن أسباب إلحاده ليست من موضوعات الكلام ، فالجدل الحديث لا يتناقش حول الجوهر والعرض ، ولا حول القدم والحدوث ، وإنما هو يتناقش حول حتمية المادة ، ووجود المادة الواقعية والمادة العقلية ، والعلاقة بين المادة والحركة ، حين يتهى كل موجود مادى فى حقيقته إلى حركة ، والاحتمالات الرياضية لتأثير الصدفة فى نشأة الكون ، وامتداده ، وحتمية التطور . وحقيقة الوجود فى ضوء الإدراك الجديد لنسبية الظواهر الكونية ، وأهمها الزمان ، ذلك البعد الرابع الذى كشفه إينشتاين ، والتوقعات العلمية لوجود عوالم أخرى غير عالمنا ، فى سمائنا ، وفى السماوات الأخرى ، التى يدركها العلم ، أو يحدس بوجودها ، ويحاول معرفة شىء عنها ...إلخ.

فإذا لم تكن هذه القضايا الجديدة هى محور النقاش فى قاعات الدرس الجامعى . الذى يصوغ عقول الشباب فمعنى ذلك أن جامعاتنا تعمل فى فراغ إيديولوجى، وتخرج للمجتمع نماذج خربة ، واهنة ، أو مشوشة ، أو يائسة من جدوى العقيدة فى بناء المجتمع الجديد ، نماذج تحس فى أعماقها بالجفاف الروحى ، فهى لم تظفر بأرضية من الفكر الدينى تقف عليها مطمئنة فى مواجهة رياح التغيير العاصفة ، إما لأنها محرومة من هذا اللون من الدراسة ،

وإما – وهو الأخطر – لأنها غير مقتنعة بما عرض عليها من موضوعاته . وينتهى الأمر بهذه النماذج إلى أن تتبعثر فى الفراغ ، وتحس باللامبالاة تجاه مسائل العقيدة ، لأن أسلم الطرق ألا تبالى ، فالهرب أسلم المسالك .

والغريب أن هذه الحال قد طفحت على سطح المجتمع منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حين بدأ اللقاء والاصطدام بين ثقافتى الشرق والغرب يواجه مبعوثينا إلى أوربا ، على عهد محمد على – فى مصر ، وتعرضت أعمال روائية ، منذ ذلك العهد ، وحتى يومنا هذا ، لتصوير التمزق الفكرى ، الذى يعانيه هؤلاء المبعوثون،من أمثال : تخليص الإبريز – لرفاعة الطهطاوى، وعلم الدين – لعلى مبارك ، وحديث عيسى بن هشام – لمحمد المويلحى ، وقنديل أم هاشم – ليحى حقى ، وعصفور من الشرق – لتوفيق الحكيم ، ومليم الأكبر – لعادل كامل فانوس، أى أن المشكلة ثائرة وملحة من قديم ، دارت حولها روايات قيمة . ومع ذلك لم يبحث لها المفكرون الدينيون عن حل ، ولم يعرضوا لها بمناقشة لاستكناه أسبابها ، على حين اكتفت الأعمال الروائية بالتقاطها وتصويرها . والخطر بهذه السلبية إلى تفاقم ، والخراب إلى استفحال ، والضحية دائماً هو الإنسان المسلم .

أليس غريبا أن يكون بعض عتاة الملاحدة فى مجتمعاتنا ممن يمتون إلى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية ؟ ! ! وأن تنشر مجلة أسبوعية أن إحدى المانيكان تمثل جامعة الأزهر الشريف ، ثم تأتى بصورتها فإذاهى ترتدى ما ترتديه بنات باريس[1] ! ! ودعك من أن تكون إحداهن فتاة غلاف ، تنشر لها صورة عارية ، أشبه بصور السابحات الفاتنات ، وهى من بنات العلماء ؟ [2] إنهم جميعا ، وأضرابهم ، نتاج هذا الانفصام بين الفكر الدينى وقضايا العصر ، بحيث لم يأخذ هذا الفكر شكل ثقافة حية تجمع بين المعرفة والسلوك ، أى أن هناك عجزا شائناً فى الثقافة المستخدمة للإقناع ، على حين استطاعت الثقافات الأخرى أن تحتازهم لمعسكرها ، لأنها صادفت فراغا فتمكنت ، بصرف النظر عن جدية الأشخاص أو هزليتهم وتفاهتهم ، وأحد أسباب هذا الانفصام أيضا أن من يتولون سدانة الفكر الدينى لم ينهضوا لمواجهة تحدى العصر ، ربما لأنهم فعلا غير فاهمين لرسالاتهم ، إلا على أنها استحضار لماض أثرى لا علاقة له بحاضر ، وربما لتوهمهم أنه لا تحدى أصلا ، بل كل شىء هادىء على الجبهة ! ! والدنيا بخير والحمد لله ! ! .. فالمشكلة من هذه الوجهة أزمة فى الشعور الذى يؤدى حين يكون سويا إلى الأرق المنتج ، والقلق الخلاق ، فأما حين لا يكون هناك شعور فإن الدين يتحول عند بعض رجاله إلى باب خفى للوجاهة والارتزاق ، وعند بعضهم إلى سلبية قاتلة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) أنظر العدد الصادر من جريدة أخبار اليوم فى ٢٩ من نوفبر ١٩٦٩ .

(٢) أخبار اليوم ٢٥ / من أكتوبر ١٩٦٩ .

ولست أنكر أن محاولات جادة قام بها بعض العلماء القلقين على مصير الإنسان ، فى الشرق والغرب ، من أجل البرهنة على وجود الله على أساس علمى ، ولكن قضية الدين ليست هى قضية (وجود الله) فحسب . لا مراء فى أن الإيمان بوجود الله سبحانه أساس ومنبع ، ولكنه يستتبع الإيمان بقيم أخرى ومبادئ ، دعا إليها الرسل . وحثت عليها الأديان ، وأهمها ضرورة الإيمان بوجود كائنات غير الإنسان ، دل عليها الدين وسماها (الملائكة) الملهمين الخير ، وكائنات أخرى غير الإنسان والملائكة دل عليها الدين ، وسماها الجن ، ومنهم (الشياطين) ــ النازغون بالشر ، وضرورة الإيمان بالغيب ، وباليوم الآخر . وما يتصل به من جنة ونار ، وحساب ، وثواب وعقاب ، بل ما يسبق ذلك من قيامة ، هى فى حقيقتها دمار للدنيا ، وتحطم للكواكب والنجوم ، وضرورة التزام شريعة الله ، التى جاء بها الرسل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، متى صح الإيمان بوجود الله ، مالك الملك ، ومنزل التشريع بالحلال والحرام ، وفى كلمة واحدة : ضرورة إقرار ما علم من الدين بالضرورة .

وهكذا نجدنا أمام كل مترابط ، لا يمكن انفصام أجزائه ، إلا على طريقة بنى إسرائيل ، الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

ولقد وجد فى المجتمع الإسلامى فعلا هذا الصنف من الناس ، الذين يحدثونك بأنهم مؤمنون بالله ، وكفى ، ولا داعى لمطالبتهم بأكثر من هذا ! ! وهم يواجهون من يدعوهم إلى الالتزام بأوامر الله ونواهيه : بأن الهدف من هذه هو تزكية النفس ، وعدم إيذاء العباد ، فإذا تحقق هذا الهدف بوسيلة أخرى كالثقافة مثلا كان فى ذلك غنى عن الالتزام بالتكاليف ، لأن هذه هى روح الدين ! ! .. وغاب عنهم ، أو تجاهلوا ، أن العبادة فى حقيقتها ثمرة الإيمان بالله ، وتأكيد لعبودية الإنسان له ، وأن الله سبحانه قد اختار لعباده أن يخاطبوه ويقدسوه بكيفية معينة ، لا خيار لهم فيها ، بصرف النظر عن تحقيق مصلحة معينة لهم من العبادة أو عدم تحققها : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[1] فمصلحة الإنسان العليا فى أن يرضى خالقه بإنفاذ أمره ، والتزام طاعته .

فهذا صنف من الناس يجتزئ من الدين بما لا يقتضيه تكلفة : أن يقول : آمنت بالله ــ فحسب ، وهو يستعمل مسألة تسليمه بوجود الله ــ جل وعلا ــ ذريعة إلى التحلل والانعتاق من سائر قضايا الدين ، والصدود عنها ، وهو أمر ينبغى أن يلحظ على أنه من صميم أزمة الدين فى أنفس المثقفين المعاصرين ، لأن الثقافات الإلحادية قد اتخذت لنفسها خطة لئيمة ، فحواها أن دعوة المسلم إلى الكفر تلقى نفوراً فى المجتمع الإسلامى ، ويكاد يكون من المحال إحراز تقدم فيه باعتناق هذه الدعوة ، ولذا ينبغى أن تكون الخطة ــ أولا ــ تجريد شخص المسلم من الالتزام بالتكاليف ، وتحطيم قيم الدين الأساسية فى نفسه ، بدعوى العلمية والتقدم ،

---

(١) الذاريات / ٥٦ .

دون مساس بقضية الإلهية مؤقتـاً ، لأنها ذات حساسية خاصة ، وبمرور الزمن ، ومع إلف المسلم لهـذا التجريد يسهل فى نهاية الأمر تحطيم فكرة الإلهية أساسا فى عقله ووجدانه — وإذا بقيت افتراضا ، فلا ضرر منها ، ولا خطر ، لأنها حينئذ لن تكون سوى بقايا دين ، كان موجودا ذات يوم بعيد .

وهكذا يحكم أعداء الإسلام مخططاتهم ، ويدبرون لتدمير الدين ومبادئه ، ابتداء من أبسط السنن والواجبات ، وانتهاء إلى قضية القضايا : وجود الله ذاته .

فإذا أفرد بعض العلماء مسألة وجود الخالق بالعلاج العلمى فقليل منهم — فيما أعلم — من تصدى لعلاج هذه القضايا جميعا ، وبخاصة هذا الكتاب : (الإسلام يتحدى) . وأحسب أنه من هذه الناحية سوف يصبح — متى بلغ عمق المجتمع — دستور الإقناع الدينى ، أو كما يعبر العنوان الفرعى الذى تخيرناه له : (مدخلا علميا إلى الإيمان) .

وقد كان المؤلف منطقياً مع عصره إلى أبعد الحدود ، فإذا كان أقطاب الإلحاد فى الفلسفة الحديثة قد وضعوا لضحاياهم مدخلا علميا إلى الكفر ، فلا مناص من أن يحاول هو بحسه الصادق ، ووعيه بحاجة المسلمين — وضع مدخل علمى إلى الإيمان ، يعتبر أساساً لعلم كلام ، أو علم توحيد جديد . وهذا هو الاعتبار الذى كان من وراء الحماس المخلص ، بذله مترجم الكتاب الأستاذ ظفر الإسلام خان ، نجل المؤلف ، واقتضانى أن أعكف شهوراً تبلغ سنوات على مراجعته ، وتحقيق نصوصه الدينية .

ولذلك سوف نجده يعرض (قضية معارضى الدين) بكل حيدة وأمانة ، حتى لا يتهم من أول لحظة بمخالفة المنهج العلمى ، ثم يبدأ فى مناقشتها معتمدا فى الأساس على الإنتاج الفكرى الغربى ، من باب (وشهد شاهد من أهلها)[1] ، مرجئاً مسألة استخدام الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية فى آراء الأعداء قبل الأصدقاء .

ولا يتبادرن إلى ذهن القارئ أن المؤلف رجل دين متحمس ، يبشر بدعوة الإسلام بأسلوب جديد ، إنه مفكر مصلح يعمل بالصحافة ، رئيسا لتحرير مجلة (الجمعيت الأسبوعية) وما عرضته هنا هو نتيجة تأمل واهتمام مؤرق بمشكلات الشباب المسلم ، حتى أصدر كتابه هذا عام ١٩٦٦ ، وما زال وفياً لقضيته ، مجاهداً فى سبيلها .

ولئن كنا قد ألمحنا قبل بضعة أسطر إلى بعض ملامح منهجه ، فإن تنظيم هذا المنهج قد اقتضاه أن يضع قضاياه فى ترتيب منطقى :

فهو قد وضع كتابه علاجا للمشكلات العقيدية التى تواجه البشر ، ولما كان المتوارد

---

(١) يوسف / ٢٦ .

على مسرح الأحداث ، مبدأ الدين ، ومبدأ الإلحاد ، وكان هو من معسكر الدين — وجب عليه أن يدلف إلى هدفه من خلال دعاوى الخصوم ، حتى لا يتهم بتجاهلها ، فعرض فكرة معارضى الدين وبين أسسها البيولوجية والنفسية والتاريخية . ومعنى ذلك أنه يعرض جوهر فلسفات ثلاثة : الداروينية ، والفرويدية ، والماركسية ، وهى المبادئ التى قادت فى مجموعها قطعانا من البشر فى وادى الإلحاد ، وإنكار وجود الله ، وتأليه المادة .

فإذا بدأ بمناقشة هذه المبادئ سلك نفس السبيل التى سلكتها . فاستقى أدلته من الطبيعة ، ومن البحوث النفسية ، والتاريخية .

وإذا كان أعظم قضايا الدين . بعد الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، حقيقة غيبية ، لا مراء فيها ، وكانت أهم دعاوى الإلحاد قائمة على إنكار هذا اللقاء مع الخالق — فإن إثبات إمكان الآخرة ، بالأدلة الطبيعية ، والبيولوجية والتاريخية — هو أيضا من الأدلة القاطعة بصحة الدين ، وبوجود الله ، ومن ثم نجده متألقاً فى تبيان الحاجة إلى الآخرة نفسيا ، وأخلاقيا ، وسلوكيا ، حتى إذا استقر فى وعى القارئ ضرورة الآخرة كان ذلك طريقا إلى إقرار ضرورة الإيمان بالله من جانب آخر . فالآخرة إذن قضية وبرهان فى آن .

والمؤلف لا يكتفى فى هذا الباب بدليل واحد ، بل هو يقدم بحوثاً قيمة فى ضرورة الآخرة من الناحية الكونية ، ويسوق شهادات تجريبية ، وبحوثاً نفسية وروحية ، تؤكد هذه الضرورة ، كما يزيد القارىء ثروة فى المفاهيم ، ويفسح له آفاق الاقتناع .

ويأتى بعد ذلك دور الرسالة ، وهى الدليل التاريخى على الحقيقتين السالفتين ، لأن الرسل هم الذين دلوا عليهما ، قبل أن يخطو الإنسان هذه الخطوات الجبارة فى ميدان العلم والتجربة .

ومن الضرورى أن نلفت النظر هنا إلى أن المؤلف لا يعنى بكلمة (الدين) إلا ما عناه الحق سبحانه بها فى قوله : (إن الدين عند الله الإسلام)[1] ، فإذا تناول قضية الرسالة فقصده قطعاً رسالة الإسلام ، وكتابها المعجز : القرآن .

ويعقد فى هذا الباب عدة فصول يتحدث فيها عن إعجاز القرآن التاريخى ، والعلمى ، ويورد لمحات كثيرة عن تنبوءات القرآن ، وما تضمنته آياته من حقائق لم يكشف عنها إلا فى العصر الحديث ، فى الفلك ، وطبقات الأرض وغيرهما .

فإذا انتهى من إثبات هذه الصفة العلوية للقرآن ، وأكد به الحقيقة الأولى ، وهى وجود الله ، عقد باباً خاصاً بعلاقة الدين بمشكلات الحضارة ، فتناول فى جانب منه مشكلات

---

(١) آل عمران ١٩ .

التشريع ، وعناصره الأساسية ، وتحديد الدين لمفهوم الجريمة ، وعلاقة القانون بالأخلاق ، وبالفرد ، وبالعدل .

ولا يفوته أن يتحدث عن بعض مشكلات الحضارة الحديثة ، كمشكلة المرأة ، والتمدن ، والملكية ، مقارناً فى كل ذلك نظام الإسلام بنظامى الحكم المعاصرين : الرأسمالية والشيوعية .

ويأتى أخيراً حديثه عن مستقبل هذا العالم الإسلامى ، وما ينشده أبناؤه من أهداف سامية ، وما ينبغى أن يكون لهم من رسالة فى هذا العالم الحائر ، بين مذاهب الإلحاد الواهية المتهاوية ، ودين الفطرة الذى جعله الله ختام الأديان ، وجعل نبيه خاتم المرسلين ، مبيناً كيف أدى الإلحاد فى المجتمعات الأوربية إلى التحلل ، والتمزق الأسرى ، وتكون طبقات من المجرمين والشواذ ، وانتشار أعصى الأمراض النفسية والعصبية ، جرّاء الحرمان من الإيمان بالله ، خالقنا ومالكنا ، ويختار لختام كتابه كلمة قبسها عن الأستاذ أ. كريسى موريسون ، إذ قال :

إن الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره نفحات إلهية — لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد ، فالإلحاد نوع من الأنانية حيث يجلس (الإنسان) على كرسى (الله) .

« لسوف تقضى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين » . .

« سوف يتحول النظام إلى فوضى » . .

« سوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتمسك » . .

« سوف يتفشى الشر فى كل مكان » .

« إنها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله » .

فهذا هو منهج الكتاب فى إيجاز شديد ، وهو منهج يشدنى إلى ملاحظة هامة أحب أن أضعها بين يدى القارئ : ذلك أن خطوات هذا المنهج ، بنفس الترتيب تكاد تكون طبق الأصل من كتاب أخرجته من قبل مترجماً عن الفرنسية ، هو كتاب « الظاهرة القرآنية » ، للمفكر الجزائرى مالك بن نبى ، وهى ملاحظة غريبة فى المنهج ، لا تنصرف إلى مادة الكتابين ، لأن المؤلفين مختلفان فى عقليتهما ، وثقافتهما ، وطريقة معالجتهما لهذه القضايا الدقيقة ، حتى إننى أكاد أقطع بأن المحاولتين من حيث المصادر والمادة والأسلوب متباعدتان تماماً ، إحداهما عن الأخرى ، بعد ما بين الجزائر والهند ، ولم يحدث أن التقى الرجلان فى صعيد واحد ، فيما أعلم . وتفسير هذا التوافق ينحصر فى توارد الأفكار على مشكلة واحدة .

بيد أن ذلك لا يمنعنى من أن أقرر أن كلا الكتابين صادر من نفس الإحساس بضرورة

وضع منهج جديد للإقناع الديني ، وكلاهما توفرت فيه المنهجية الحديثة ، وموضوعهما مشترك كذلك ، والروح الكامنة فى مضمونهما روح ثائرة ، مؤمنة .

وحسب الشباب المسلم من هذه الملاحظة دليلا على ان روح الإسلام طاقة لا يمكن أن تخمد ، وستظل تصنع المعجزات ، برغم التفوق المادى الذى حققته مجتمعات الملاحدة المعاصرين .

نعم . . إن هذا التوافق العجيب بين مفكرين من أكابر مفكرينا يكاد أن يكون من بدائع الروح الخالدة ، روح الإسلام ، وأقول : الخالدة ، لأن الروح طاقة ، والطاقة لا تفنى ، وذلك وعد الله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على محمد خاتم النبيين .

عبد الصبور شاهين

الكويت — ديسمبر ١٩٦٩

---

(١) الحجر ٩ .

تمهيد

الموضوع الذى سندرسه فى الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة إلى اللغة الأردية . ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصاً ، رغم الجهود الطيبة التى بذلها بعض الكتاب .

والعصر الحديث يسمى : « عصر الإلحاد » ، لإنكاره الدين . وهذا الإلحاد ليس محض ادعاء . بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة ، اهتدى إليها الإنسان ، بعد التطور الحديث فى ميادين العلم المختلفة ، وهذه « الدراسة التطورية » لا تهدف إلى إثبات نظرية ما أو إنكارها ، وإنما هى منهج خالص فى البحث ، أثبت لأصحابه أن الدين باطل ؛ ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة فى ما قاله ت. ر..مايلز :

« إن الدراسة الجديدة هى تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة ، وهى لا تستهدف وضع إجابات قطعية . وهو — من هذا الوجه — تغير هام طرأ على الفلسفة فى النصف الأخير من هذا القرن ، ولسوف يبقى هذا التغير مستمراً ، دون أمل فى توقفه على المدى[1] البعيد » .

ولا بد لباحثينا إذا ما أرادوا البحث فى العلوم الحديثة ، دفاعاً عن الدين ، ألا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير ، سواء اعتبرناه تفسيراً علمياً محضاً توصل إليه المفكرون المحدثون ، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل ، ركنوا إليه ، حين أخفقوا فى البحث عن التفسير المادى للكون ، بعد إنكار الدين .

وعلى سبيل المثال : إن الأعمال التى قام بهـا علماؤنا لإثبات النبوة ، تفترض مقدماً أن العصر الحديث يدعى : أن محمداً صلى الله عليه وسلم « كان نبياً كاذباً » ، فيبدأون فى جمع كميات كبيرة من المواد التى تثبت أن محمداً كان « نبياً صادقاً » . ومغزى القول : « كان محمد نبياً كاذباً » ، هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين ؛ على حين يشك الإنسان الجديد فى المبدأ نفسه ، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلا. فأما « النبى الكاذب » False Prophet فهو اعتراض قديم جاء به اليهود والنصارى ، الذين يؤمنون بأنبيائهم ، وينكرون نبى الإسلام . وأما العقل الحديث ، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبياً « صادقاً أو كاذباً » ، وإنما يبحث عن

---

(١) Religion & the Scientific Outlook, 1954, p. 13.

منبع كلامه النبوى ، وينتهى ، اعتماداً على المناهج المعروفة ، إلى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو : « اللاشعور » . . . وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحى والإلهام يصلح أن يكون استعارة جميلة ؛ ولكنه يستحيل اعتباره واقعاً حقيقياً .

ولذا ، فإن مهمتنا لا تنتهى عند إثبات صدق نبوة رسول الإسلام ، بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحى والإلهام ، وتثبت أن الوحى ينزل على أناس معينين ، من بينهم نبي الإسلام .

• • •

كان هذا موقف من يتصدى اتهد الفكر الحديث ، دون فهم موقفه من القضية . وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين . ولكنهم ، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث ، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعد من (المسلمات العلمية) ، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات ، التى سلم بها علماء الغرب ، هى نفس ما ورد فى القرآن الكريم ، وكتب الأحاديث الأخرى . وهذه الطريقة فى التطبيق والتوفيق بين الإسلام وغيره ، هى نفس الطريقة التى تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة . وأية نظرية تقدم على هذا النحو ، يمكنها أن تكون تابعة ، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة ! ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر فى العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ، ليشرق على البشرية نور الحق ، فهو هائم ولا شك فى عالم خيالى ، لا يمت إلى الحقائق بسبب . فإن تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتى من طريق التلفيق ، بل عن طريق الثورة الفكرية .

وهذه الحالة تورطنا بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسى وهام من أفكار الدين ، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة « الشهاب الثاقب » التى وردت فى القرآن ، حين يجد كشفاً جديداً فى علم الفلك الحديث ، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة ، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التى تثار حول الدين ؛ فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلى فى هيكل الفلسفة الدينية نفسه .

وأوضح مثال فى هذا ، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا « نظرية النشوء والارتقاء » ، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها ، بعد دراساتهم ومشاهداتهم . . واضطروا ، بناء على هذا ، إلى تفسير جديد للإسلام فى ضوء النظرية الجديدة ، وحين احتاجوا إلى لباس جديد ، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى ، ولكنه ثوب مشوه المعالم ، لا أثر فيه من روح الإسلام ، التى ضاعت مع الأجزاء المقطعة فى عملية التلفيق الجديدة .

إن نظرية النشوء والارتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية . وبناء على هذا : لابد من أن تحدث الأحوال السيئة فى الماضى ، لا فى المستقبل . ويروق لهذه النظرية حياة الخلود فى الجنة ، ولكنها لا تقبل الخلود فى نار الجحيم . ولذا ، ادعى العلماء المسلمون ، الذين قبلوا هذه النظرية ، أن الجحيم ليست مكاناً للعذاب ، وإنما هى مركز للتربية والتزكية . فالحياة تواصل مسيرتها فى مواجهة الصعاب والمشكلات . والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب ؛ سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة ، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة . ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية — مثلا — فى الإسلام ، ليست إلا « أحكاماً مؤقتة » ، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعى

. ويمكن فهم نوعية الأعمال التى قام بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين ، فهى أعمال ناقصة ، رغم الجهود التى بذلت فى صوغها . ولا يدعى المؤلف أن محاولته تخلو من النقائص . ولكنه يقول : إن المحرك الحقيقى لمحاولته هو شعوره بأن عملا من هذا القبيل كان لابد أن يكون .

* * *

إن الطريقة التى يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات وجهين : فكرية وتجريبية ؛ وبعبارة أخرى : فلسفية وعلمية ، إن صح التعبير . وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية ، وهى التجريبية أو العلمية . والسبب فى ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التى وضعت على المنهج الأول ، على حين يوجد نقص شديد فى الكتب من المنهج الثانى .

وإننى لأشعر بأن المضمار الفسيح الذى هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين ، هو تصديق لما جاء فى القرآن ، فى سورة النمل : « وقل الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها » . وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة .

* * *

وهذا الكتاب ليس دراسة موضوعية ، بل هو دراسة ذاتية ، بناء على التقسيم الجديد للكتب . وهذا الواقع ، كما يرى العقل الحديث ، هو ، من تلقاء نفسه ، صوت ضد الكتاب ! فكيف يمكن الاعتماد على دراسة ذاتية ، قدمها عقل يستهدف اتجاها معيناً ؟ وجواباً على هذا الاعتراض ، الذى قد يثار ، أنقل هنا عبارة المستشرق النمسوى المسلم محمد أسد فى مقدمة أحد كتبه :

« إن هذا الكتاب لا يستهدف مسحاً محايداً للمسائل بل هو عرض لقضية هى قضية الإسلام فى مواجهة الحضارة الغربية »[1] .

(1) Islam at the Crossroads, p. 6.

وعلى الرغم من الأحكام التى قدمها علم النفس حول إمكان أن يكون المرء محايداً فى أبحاثه ، أو لا ، فإننى أسلم — نظرياً — بأنه لابد لكل مؤلف أن يبذل قصارى جهده ، لكى يكون محايداً ، من أجل الوصول إلى نتيجة ما ، وهذا هو ما يقصده كل كاتب أمين . لكن هذا الكاتب نفسه ، عندما يجلس إلى مكتبه — فى الواقع — لا نجده باحثاً عن الحقيقة أثناء كتابته ، بل يكون قد توصل إلى أحكام محددة المعالم .

وهناك طريقة أخرى ، هى أن يسرد المؤلف قصة بحثه بجميع مراحلها ، غير أن اعتبار مثل هذا الكتاب محايداً لا يعدو أن يكون قناعاً مزركشاً تختبىء تحته أهداف المؤلف . فليس هناك من كاتب يبدأ دراسته عندما يبدأ الكتابة ، وإنما هو يعرض نتائج بحثه فى كتابه . فالكتاب إنما يكون ذاتياً أو موضوعياً ، بالنظر إلى طريقة ترتيبه للموضوعات ، ولا علاقة لهذا الترتيب بحياد البحث أو موضوعيته .

* * *

لقد وردت كلمة « الدين » كثيراً فى هذا الكتاب ، وليس لأحد أن يغالط فى هذا الموضوع . فإن الكتاب يدور حول موضوع عام ، ولذلك كان لاستعمال الكلمة العامة أهميته . أما ذهن المؤلف ، فإنه لا يقصد بالكلمة شيئاً وهمياً ، وإنما يعنى (الدين) المعتمد عند الله تعالى الآن — وهو دين الإسلام . وأنا حين أطالب مواطناً هندياً بمراعاة القانون ، فليس معنى ذلك أنه تكفيه مراعاة قانون ما ، أو أى جزء من دستور الهند ، وإنما عليه مراعاة ذلك القانون الذى يعتبر دستور البلاد الرسمى . وهكذا ، فالمراد بالدين العملى اليوم هو الإسلام ، مع أنه من الممكن إطلاقه على أى شىء عرف فى التاريخ بذلك الاسم ، ولكن الدين الذى يجلب رضا الله تبارك وتعالى ، والذى يكفل لمعتنقيه نجاة الآخرة ، هو الإسلام لا غير . .

* * *

لقد تعرضت لسؤال بعد محاضرة ، ألقيتها فى إحدى الجامعات ، ذات مرة ، وكنت أشرت فى محاضرتى إلى مقال لفرويد ، فوقف أستاذ فى علم النفس ، أثناء فترة الأسئلة ، وقال : « لقد أشرتم إلى مقال لفرويد ، تأييداً لنظرية دينية ، على حين يعارض (فرويد) معارضة كاملة تلك النظرية التى تمثلونها » .

ومن الممكن إثارة هذا السؤال ، حول هذا الكتاب ، على نطاق أوسع . . فهناك اقتباسات كثيرة وردت فيه ، ومن الجائز ألا يوافق أصحابها على النتائج التى توصلت إليها . وعلى سبيل المثال : الاقتباس الذى ورد فى آخر الباب الخامس « دليل الآخرة » . ولكن هذا الاعتراض غير ذى موضوع ، لأن المؤلف لا يدعى أن هذه الشخصيات تؤيد قضاياه .. وبكلمة أخرى ، لم يقل المؤلف : إن هذه القضية ، أو تلك ، صادقة لأن فلاناً يصدقها أو

يؤيدها . وعلى العكس من ذلك ، فإن جميع هذه الاقتباسات قد استعملت توضيحاً لدليل أو قضية ، فقد يعبر المؤلف عن قضية معينة بألفاظه تارة ، وقد يستعير ألفاظ الآخرين حتى يتبين الموضوع ، تارة أخرى . .

والاتجاهات التي تمثلها هذه الاقتباسات ليست بآراء ذاتية لأصحابها ، وإنما هي كشوف علمية ، يمنحها الملحدون معاني مختلفة. أما نحن فقد جمعناها حين شعرنا أنها في صالح الدين . وأما الاقتباسات التي تؤيد الدين صراحة ، فأكثرها لعلماء يدينون بالمسيحية ؛ ولا عجب ، فهم يشاركوننا في كثير من العقائد السماوية .

• • •

وواضح من عنوان الكتاب ، أنه يهدف إلى إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادي الجديد . وهذا الإثبات يتخذ لنفسه أسلوبين ، أولهما : أن نستدل بأن الدين ليس (مادياً) ، بل فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريق الدين . وقد أصبح هذا الاستدلال في غاية القوة ؛ حيث إن العلماء قد اعترفوا في هذا القرن : « بأن العلوم المادية لا تعطي إلا علماً جزئياً عن الحقائق » . ومغزاه أنه ، بناء على اعتراف هذه العلوم نفسها ، هناك حقائق أخرى ، لا تستطيع العلوم المادية الوصول إليها ، ومنها حقائق الدين . ويعتبر كتاب « ج.و.ن . سوليفان » خير محاولة في هذا الموضوع ، وسوف نستعرضه في الباب السابع من هذا الكتاب .

وأما الطريقة الأخرى لإثبات حقائق الدين ، فهي اتباع نفس الطرق العلمية التي يتبعها العلماء الملحدون لإثبات معتقداتهم . وقد ركز المؤلف أهمية أكثر على هذا الجانب . . فهو يرى : أنه لابد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التي يستغلها الملحدون ، حتى يمكن إثبات حقية الدين .

• • •

وهناك ناحية أخرى لابد من توضيحها هي أن الأسلوب الذي سلكه الكتاب قد يكون غريباً على بعض الأذهان ، من علماء الدين . وإذا كان الأمر كذلك ، فإني أقول : إنه لابد من مراعاة حقيقة ؛ هي أن هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين ، بل هو وليد ضرورة كلامية ؛ فالأسلوب الذي يسلك عند تفسير الدين أمام أصحاب الفطر الدينية المؤمنة ، غير الأسلوب الذي يستخدم عندما يكون الحاضرون ممن يزعمون أن الدين خدعة وأضحوكة وتخدير الشعوب ، فكلما أردنا مواجهة الأسئلة التي تثار ضد الدين ، كان لابد من تغيير لهجتنا ولغتنا ، بتلك التي يستغلها الأعداء ، حتى نستطيع أن نقف أمام العواصف . وعلينا ألا ننسى أن طريقة

رى براما على أن أعترف بجميل زميلين من الرفاق — مهدياً
.. ىحتاب — وهما من الشخصيات اللامعة التى عرفت بخدمة الإسلام فى الربع الأخير من هذا القرن . . وهما : مولانا أبو الأعلى المودودى ، ومولانا السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى . فالفضل يرجع إلى الأستاذ المودودى فى أنه كان المحرك الذى حثنى — بطريقة غير مباشرة — على أن أضحى بحياتى لخدمة الإســلام منذ خمسة عشر عاماً ، فى أدق مرحلة من مراحل حياتى . . وأما الأستاذ الندوى فهو الذى حملنى على القيام بهذا العمل ، فجزاهما الله خير جـــزاء . .

لكناؤ — وحيد الدين خان

فى ٢٦ أغسطس ١٩٦٤

الباب الأول

قضية معارضي الدين

« تعتبر التطورات العلمية التي حدثت في القرن الماضي « انفجاراً معرفياً » Knowledge Explosion في وجه جميع الأساطير الإنسانية عن الآلهة والدين كما انفجرت الأفكار القديمة عن المادة ونسفت بمجرد تفجير الذرة » . . هذه هي قضية العلم الحديث الموجهة إلى الدين كما يقول البروفيسور جوليان هكسلي(١) . وتعتبر الصفحات التالية رداً على هذا التحدي ؛ فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين ، ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه . بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام : « بالحقيقة الأخيرة » قبل أربعة عشر قرناً من الزمان :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(٢) .

* * *

والدين ، كما يزعم الملحدون من العلماء : شيء لا حقيقة له ، وهو مظهر للغريزة الإنسانية الباحثة عن حقائق الكون ، والتي تحاول تفسيره . إن هذه الغريزة الإنسانية في ذاتها شيء مستحسن ، ولكن المعلومات والوسائل المحدودة قد انتهت بأجدادنا إلى إجابات غير صحيحة ، وهي التي تحتويها الآن أفكارهم عن الإله والدين . أما اليوم ، وبعد ما توفرت لدينا الوسائل العلمية ، وأصلحت المعلومات الحديثة شيئاً كثيراً من معتقداتنا الاجتماعية والحضارية ، فقد حان الوقت لنعيد النظر في جميع ما وصل إليه أجدادنا من أفكار .

* * *

ويذهب الفيلسوف الفرنسي « أوجست كونت » — الذي نشأ في النصف الأول من القرن التاسع عشر — إلى أن تاريخ تطور الفكر الإنساني ينقسم إلى ثلاث مراحل :

---

(١) Hindustan Times, Sunday Magazine, Sept 24, 1961.

(٢) فصلت / ٥٣ .

الأولى : المرحلة اللاهوتية (Theological Stage) وهى التى فسرت الأحداث فيها باسم الإله .

والثانية : االمرحلة الميتافيزيقية : وفيها فسر الإنسان الأحداث باسم « عناصر خارجية » ، لا يعلمها ، ولكنه لا يذكر اسم الإله .

والثالثة : المرحلة الوضعية (Positive Stage) : التى أخذ الإنسان يفسر فيها الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة ، يمكن إدراكها بالمطالعة ، أو بالمشاهدة العلمية . وفى هذه المرحلة لا تذكر «الأرواح والآلهة والقوى المطلقة» . ونحن، بناء على هذا، نعيش فى المرحلة الثالثة التى تسمى فى الفلسفة الحديثة بالوضعية المنطقية (Logical Positivism) . إن نظرية «الوضعية المنطقية» أو التجريبية العلمية (Scientific Empiricism) لم تعرف كحركة علمية عالمية إلا خلال العقد الرابع من القرن الحاضر ، ولكنها ، كفكرة ، نشأت قبل ذلك بسنين طويلة . وعلى ظهور هذه الفكرة نجد أسماء كبار العلماء والفلاسفة من أمثال : هيوم ، وميل ، إلى برتراندرسل . وقد أصبحت هذه الفكرة اليوم ، بفضل العدد الكبير من المؤسسات العلمية التى تقوم بدور فعال فى الدعاية لها ، من أهم الحركات العلمية الحديثة . ويقول أحد الباحثين :

« كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب ، بحيث يمكن فحصها أو إثباتها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة »(١).

وبناء على هذا يدعى معارضو الدين أن التطور الذى بلغ به الإنسان اليوم أعلى مستوى من الإنسانية ، هو نفى للدين من تلقاء نفسه . . والسر فى ذلك أن الأفكار المتطورة الحديثة تؤكد أن « الحقيقة » ليست إلا ما يمكن فحصه وتجربته علمياً . وقد قام الدين على « حقيقة » لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علمياً وبعبارة أخرى : إن التفسير اللاهوتى للأحداث والوقائع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية ، فهو باطل لا حقيقة له . ويترتب على هذا القول بأن : « الدين تفسير زائف لوقائع حقيقية » ؛ ذلك أن علم الإنسان القديم المحدود لم يقدم التفسير الحقيقى للأحداث ، على حين أن القانون العام للتطور أتاح لنا أن نبحث عن الحقائق بالوسائل التجريبية الصحيحة .

ويمكن أن نقول هذا الكلام بأسلوب آخر : إن موقف علماء الأديان القديمة أشبه برجل يكتب « شيكاً لا رصيد له فى المصرف » ، فهم قد صاغوا عبارات ليس وراءها حقائق علمية ، فعبارة (الحقيقة العليا غير المتغيرة) صحيحة نحواً ، ولكن ليس لها أى أساس علمى(٢).

---

(١) Dictionary of Philosophy, N.Y., p. 285.

(٢) Religion And The Scientific Outlook, p. 20.

« لقد أثبت (نيوتن) أنه لا وجود لإله يحكم النجوم . وأكد (لابلاس) بفكرته الشهيرة أن النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي أسطورة لاهوتية . وقام بهذا الدور العالمان العظيمان (دارون) و (باستور) في ميدان البيولوجيا . وقد ذهب كل من علم النفس المتطور والمعلومات التاريخية الثمينة التي حصلناها في هذا القرن بمكان الإله ، الذي كان مفروضاً أنه هو مدير شئون الحياة الإنسانية والتاريخ »[1] .

لقد قامت قضية معارضي الدين على أسس ثلاثة :

الأساس الأول : بطل هذا الانقلاب في البيولوجيا هو (نيوتن) ، الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة ، تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية . ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالا علمياً أوسع ، حتى قيل : إن كل مايحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه « قانون الطبيعة » . فلم يبق للعلماء ما يقولون ، بعد هذا الكشف ، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون . وضرب (والتير) مثلا في هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها ، ثم تنقطع صلته بها . ثم جاء (هيوم) فتخلص من هذا الإله الميت ، وعلى حد قوله : « لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع ، فكيف نسلم بأن له صانعاً » ؟

* * *

لقد جلى التطور العلمي للإنسان كثيراً من سلسلة الأحداث التي لم يشاهدها من قبل . فهو لم يكن على علم بأسباب شروق الشمس وغروبها ، حتى زعم أن هناك قوة فوق الطبيعة تجعلها تشرق وتغرب . وها قد عرفنا اليوم أن شروق الشمس وغروبها يحدث لدوران الأرض حول نفسها ، وبذلك انتهت ضرورة القول بهذه الطاقة تلقائياً ، بعدما عرفنا الأسباب المؤدية إلى هذه الحركة الكونية . « فإذا كان قوس قزح مظهراً لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء » .

من أجل هذا كله ، وغيره ، قال هكسلي :

« إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة »[2] .

* * *

(١) Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58.

(٢) Religion Without Revelation, N.Y., 1958, p. 58.

والأساس الثانى : وقد ازداد العلماء يقيناً بعد البحوث العلمية فى ميدان علم النفس ، حين توصلوا إلى نتائج تثبت أن الدين نتاج اللاشعور الإنسانى ، وليس انكشافا لواقع خارجى .

ويقول عالم كبير من علماء النفس :

« God is nothing but a projection of man on a cosmic screen»

« ليس الإله سوى انعكاس للشخصية الإنسانية على شاشة الكون » . وما عقيدة الدنيا والآخرة إلا صورة مثالية للأمانى الإنسانية ، وما الوحى والإلهام إلا إظهار غير عادى لأساطير الأطفال المكبوتة (Childhood Repression) [1] .

* * *

ويرى علم النفس الحديث أن العقل الإنسانى مركب من شيئين هما : (الشعور) ، وهو مركز الأفكار التى تخطر على قلوبنا فى ظروف عادية ، و (اللاشعور) وهو مخزن الأفكار التى مرت بنا ونسيناها ، ولا تظهر إلا فى أحوال غير عادية ، كالجنون والهستيريا . وهذا القسم الثانى أكبر بكثير من الأول . ويمكن أن نمثل لهما بجبل من الجليد ، فلو قسمناه تسعة أجزاء لكان منها ثمانية فى جوف البحر ، ولظهر جزء واحد على السطح .

اكتشف فرويد بعد جهد طويل أن اللاشعور قد يقبل أفكاراً فى الطفولة ، وتؤدى إلى أعمال غير عقلية . وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العقائد الدينية : فإن فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأمانى التى تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته ، ولكن لم تسنح له الفرصة لتحقيقها ، فتبقى دفينة فى اللاشعور ، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل ما كان يتمناه ، شأن الرجل الذى قد لا يظفر بما يحب فى الواقع فيحصله فى المنام . وهكذا خرجت عقدة التفرقة بين الصغير والكبير (Father complex) — من الجرائم الاجتماعية ، فصاغوا منها نظرية على مستوى الكون والسماء .

ويقول رالف لنتون :

« إن عقيدة القادر المطلق الظالم فى نهاية الأمر ، الذى لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء ، كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامى . لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادى . وكانت نتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم ضخمة مفصلة عن المحرمات فى كل مجال من الحياة الإنسانية . وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين كانوا يتقبلون أحكام آبائهم الصماء ويطيعونها . وما التصور الإلهى (اليهودى) إلا خيال مثالى لأب سامى ، مع شىء من المبالغة والتجريد فى الأوصاف والطاقات »[2]

---

(١) Iqbal Review, April, 1962.

(٢) Tree of Culture, Ralph Linton.

والأساس الثالث : لقضية معارضى الدين هو : (التاريخ) . يقولون : إن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان ، فلم يكن فى استطاعته أن يفلت من السهول والأعاصير والطوفانات والزلازل والأمراض ، فأوجد (قوى فرضية) يستغيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى شئ يجتمع الناس حوله ، ولا يتفرقون ، فاستغل اسم (الإله) الذى تفوق قوته قوة الإنسان ، ويهرع الجميع إلى رضاه) .

يقول محرر دائرة معارف العلوم الاجتماعية تحت اسم «الدين»

« وبجانب المؤثرات الأخرى التى ساعدت فى خلق الدين ، فإن إسهام الأحوال السياسية والمدنية عظيم جداً فى هذا المجال . إن الأسماء الإلهية وصفاتها خرجت من الأحوال التى كانت تسود على ظهر الأرض . فعقيدة كون الإله « الملك الأكبر » صورة أخرى للملكية الإنسانية ، كذلك الملكية السماوية صورة طبق الأصل للملكية الأرضية . وكان الملك الأرضى القاضى الأكبر ، فأصبح الإله يحمل هذه الصفات : ولقب « بالقاضى الأكبر الأخير » ، الذى يجازى الإنسان على الخير والشر من أعماله . وهذه العقيدة القضائية التى تؤمن بكون الإله محاسباً ومجازياً لا توجد فى اليهودية فحسب ، وإنما لها مقامها الأساسى فى العقائد الدينية ، المسيحية والإسلامية »[1] .

• • •

« لقد خلق العقل الإنسانى الدين ، وأتم خلقه : فى حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية » . ويضيف جوليان هكسلى إلى هذا قوله :

« فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته »[2] . ويقول أيضا :

« إن هذه البيئة قد فات أوانها أو كاد ؛ وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل ، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعى للدين » ، ويضيف : « لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا ، وهى لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات ؛ لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين ؛ جاء بالسحر ، ثم بالعمليات الروحية ، ثم بالعقيدة الإلهية ، حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) . وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته . ولاشك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا ، بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور[3] . »

• • •

(١) Encyclopaedia of Social Sciences, 1957, Vol. 13, p. 233.

(٢) Man in the Modern World, p. 130.

(٣) Ibid. p. 131.

وترى الفلسفة الشيوعية أن الدين « خدعة تاريخية » ، وهى تركز الأسباب فى عوامل اقتصادية ، لأنها تنظر إلى التاريخ فى ضوء الاقتصاد . وهى ترى أن العوامل التاريخية التى خلقت الدين هى النظام البورجوازى الاستعمارى القديم . وهذا النظام القديم يلقى اليوم حتفه . فلندع الدين أيضاً يذهب معه .

يقول فيلسوف الشيوعية انجلز :

« إن كل القيم الأخلاقية هى فى تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية »[١]

فالتاريخ الإنسانى هو تاريخ حروب الطبقات التى امتص فيها البورجوازيون دماء الفقراء ، وقد كانت الغاية من وضع الدين والأسس الأخلاقية حماية حقوق البورجوازيين .

ويقول البيان الشيوعى : (Communist Menifesto) :

« إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية ، وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها » .

ويقول لينين فى خطاب له ألقاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعى فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ :

« إننا لا نؤمن بالإله ، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والإقطاعيين والبورجوازيين لايخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ، ومحافظة على مصالحهم ، إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعة ، غير الإنسان ، والتى لا تتفق مع أفكارنا الطبقية ، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال ، لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية »[٢].

كانت هذه هى قضية معارضى الدين ، التى يزعم بعض العلماء الجدد بناء عليها ما يمكن تلخيصه فى كلمة أستاذ أمريكى فى طب الأعضاء :

« Science has shown religion to be history's crueliest and wickediest hoax.»

« لقد أثبت العلم أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة فى التاريخ »[٣] .

ولسوف تنظر فى مدى صحة هذه القضية على أسس علمية فى الباب الآتى ، إن شاء الله .

• • •

---

(١) Anti Duhring, Moscow, 1954, p. 131.

(٢) Lenin, Selected Works, Moscow, 1947, Vol. II, p. 667.

(٣) Quoted by CA Coulson, Science & Christian belief, p. 4.

الباب الثانى

نقد قضية المعارضين

عرضنا فى الباب الأول قضية المعارضين ، الذين يزعمون أنه لا داعى لأن يبقى الدين فى عصرنا الحاضر . والحقيقة أن هذه القضية لا تقوم على أساس . ولسوف نتناول فى الأبواب الآتية ، أفكار الدين الأساسية ، واحدة واحدة : لننظر فى مدى حقيتها ، كما كانت قبل العصر الحديث .

وإليكم نقداً عاما لقضية المعارضين :

أولا : حقيقة الطبيعة :

لنتكلم أولا فى الدليل الذى يعرض باسم البيولوجيا ، وهو أن الحوادث تحدث طبقا (لقانون الطبيعة) ، فلا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولا . إن أحسن ما قيل فى هذا الصدد ما قاله عالم مسيحى : « Nature is A Fact, Not An Explanation. »

« إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيراً (له) » . لأن ما كشفتم ليس بيانا لأسباب وجود الدين . فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التى تدور « وراء الكون » . وما كشفتموه هو الهيكل الظاهر للكون . إن العلم الحديث تفصيل لما يحدث ، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع . فكل مضمون العلم هو إجابة عن السؤال : « ما هذا ؟ » ، وليس لديه إجابة عن السؤال : « ولكن لماذا ؟ » . وإن التفسير الذى نحن بصدده هنا يتعلق بالأمر الثانى .

* * *

لنفهم هذا من مثال بسيط . فالكتكوت يعيش أيامه الأولى ، داخل قشرة البيضة القوية ، ويخرج منها بعد ما تنكسر مضغة لحم ، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه . ولكننا شاهدنا اليوم بالمنظار أنه فى اليوم الحادى والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت ، يستعمله فى تكسير البيضة ، لينطلق خارجاً منها ، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة .

هذه المشاهدة ، كما يزعم المعارضون ، أبطلت الفكرة القديمة القائلة : بأن الإله يخرج الكتكوت من البيضة ، إذ قد رأينا يقيناً أن قانوناً لواحد وعشرين يوما يحدث هذه العملية . والحقيقة أن المشاهدة الجديدة لا تدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث ، ولا تكشف عن سببه الحقيقي ، فقد تغير الوضع الآن فأصبح السؤال لا عن تكسر ! بيضة ، بل عن (القرن)؟ . إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن ، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة ، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه « مشاهدة للواقع على نطاق أوسع » ، ولكنه ليس تفسيرا له .

يقول البروفسور (سيسيل بايس هامان) ، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا :

« كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءاً من البدن تنسب من قبل إلى الإله ، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيماويا ، هل أبطل هذا وجود الإله ؟ فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيداً ؟ . . . إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي ، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض . فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة ! » . (١)

كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شئ عن عملية تبخر الماء في البحر ، حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للوقائع ، وليست في ذاتها تفسيراً لها ، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة ، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية ؟ والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون – ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

ويضيف العالم الأمريكي سيسيل قائلا :

« Nature does not explain, she is herself in need of explanation. »

« إن الطبيعة لا تفسر شيئا (من الكون) ، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير » .

فلو أنك سألت طبيبا : ما السبب وراء احمرار الدم ؟

لأجاب : لأن في الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها ببلبمن البوصة !

---

(١) **The Evidence of God in an Expounding Universe, p. 221.**

– حسناً ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

– فى هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين) وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأوكسجين فى القلب .

– هذا جميل . ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل الهميوجلوبين ؟

– إنها تصنع فى كبدك .

– عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطاً كلياً ، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟

– هذا ما نسميه بقانون الطبيعة .

– ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا ، يا سيدى الطبيب ؟

– المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية .

– ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائما إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها ، حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء ، ويوجد إنسان فى الدنيا ، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

– لا تسألنى عن هذا ، فإن علمى لا يتكلم إلا عن : (ما يحدث) ، وليس له أن يجيب : (لماذا يحدث ؟) .

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التى لم نكن على معرفة بها ، ولكن الدين جواب لسؤال آخر ، لا يتعلق بهذه الكشوف الحديثة العلمية ، فلو أن هذه الكشوف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين ، إن جميع هذه الكشوف « حلقات ثمينة من السلسلة) ، ولكن ما يحل محل الدين لابد أن يشرح الكون شرحاً كليا وكاملا . فا الكون على حاله هذه إلا كمثل ماكينة تدور تحت غطائها ، لا نعلم عنها إلا أنها (تدور) ، ولكنا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها . هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها ؟ هل يفهم منطقيا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتيا ؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقيا فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون – أنه جاء تلقائيا ، ويتحرك ذاتياً ؟ . . .

لقد استغل البروفيسور هريز (A. Harris) هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء ، فقال :

« إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصلح) ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الاصلح :[1] .

ثانياً : اللاشعور ودليل علم النفس :

لنعالج الآن الدليل الذى يقدمه علم النفس والقائل بأن الإله والآخرة قياس للشخصية الإنسانية وأمانيها على مستوى الكون . ولست بمستطيع أن أدرك نقطة الاستدلال فى هذا الدليل . ولو أننى ادعيت — بدورى — أن الشخصية الإنسانية وأمانيها موجودة فعلا على مستوى الكون فلست أدرى ما عسى أن يبطل ادعائى هذا من منطق المعارضين ؟ !

نحن نعرف أن مادة (الجنين) التى لا تشاهد إلا بالمنظار تنبئ فى ذاتها عن إنسان طوله ٧٢ بوصة ، وأن (الذرة) التى لا تقبل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسى ، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذى نشاهده على مستوى الإنسان فى الجنين ، وعلى مستوى النظام الشمسى فى الذرة موجوداً أيضا ، وبصورة أكمل على مستوى الكون . إن ضمير الإنسان وفطرته ينشدان عالما متطوراً كاملا ، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقى فلست أرى فى ذلك أى ضرب من ضروب الاستحالة ! !

(ا) لاشك فى قول العلماء: إن الذهن الإنسانى يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد فى صورة غير عادية . ولكن سوف يكون قياساً مع الفارق أن نعتمد على هذه الفكرة كى نبطل الدين . فهو قياس فى غير محله ، وهو يعتبر استدلالا غير عادى من واقع عادى . فهو أشبه بمن يشاهد مثالا يصنع صنما فيصرخ : هذا هو الذى قام بعملية خلق الإنسان .

ومن معايب الفكر الحديث أنه يستنبط من حادث عادى دليلا غير عادى ، فهذا الدليل لا وزن له من الناحية المنطقية ، ولو افترضنا أن رجلا يسير فى شارع أخذ يهذى بكلام غريب نتيجة لأفكار مختزنة فى ذهنه ، فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث فى البحث فى كلام الأنبياء ، وهو الكلام الذى يكشف سر هذا الكون . . ؟ ؟ سوف يكون هذا الاستدلال غير علمى ، وغير منطقى ، ولسوف يدل على أن صاحبه يفتقر إلى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء ، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين .

فالقيم تتغير ذاتياً بتغير الأوضاع ، ومن الخطأ الظن بأنها لا توجد إلا عند أصحاب الفكر الحديث .

---

(١) Revolt against Reason, A. Lunn, p. 133.

ولنتخيل أن رهطا من سكان بعض النجوم هبط الأرض ، وهم يسمعون ، ولكنهم لا يقدرون عـلى الكلام ، ولنتصور أنهم يذهبون فيبحثون عن الأسباب المؤدية إلى تكلم الإنسان ، وبينما هم فى طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح ، واحتك غصنان ، أحدهما مع الآخر ، فنتج صوت ، وتـكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح ، وإذا بهم يعلن كبيرهم : لقد عرفنا سر كلام الإنسان ، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنـان ، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت ! ولا شك أنه إذا احتك شئ بالآخر يحدث صوتا ، ولـكن هذا الواقع لا يكشف عن سر الكلام الإنسانى ، كما لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب – كهذيان رجل الشارع ، فى حال الجنون أو الهستيريا .

(ب) واللاشعور الإنسانى – من الوجهة العلمية – فراغ فى أصله ، لا شئ فيه قبل مولد الإنسان ، وإنما يستقر فيه عن طريق الشعور ما يشغله الآن ، لأن (اللاشعور) ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التى شاهدها الإنسان فى حياته ، ولو مرة ، ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل . والذى يثير الدهشة أن الدين الذى جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس فى أى زمان ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتى بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها ؟

إن الدين الذى جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة – الطبيعة ، والفلك ، وعلم الحياة ، وعلم الانسان ، وعلم النفس ، والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم ، وكل حديث فى التاريخ الإنسانى مصدره (الشعور) ، فضلا عن اللاشعور ، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة . أما الكلام النبوى فإنه برئ ولا شك من كل هذه العيوب ، رغم اتصاله بجميع العلوم ، ولقد مرت قرون إثر قرون ، أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون ، ومازال صدق كلام النبوة باقياً على الزمان ، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به ، وكل من حاول ذلك أخفق .

وإليكم مثالا من هذا القبيل اعتمد عليه فلكى كبير ، حتى ادعى أنه كشف غلطة علمية فى القرآن الكريم .

يقول (جيمز هنرى بريستد) :

« لقد راج التقويم القمرى فى الدنيا لكثرة تداوله فى غرب آسيا ، ولغلبة الإسلام سياسياً بوجه خاص ولقد مضى محمد (صلى الله عليه وسلم) بالاختلاف بين التقويم القمرى والشمسى إلى أقصى حـد من العبث يمكن تصوره ، حتى إنه أبطل إضافة الشهور الكبيسة

(Intercalery months) . إن السنة القمرية المزعومة تشتمل على ٣٥٤ يوماً ، وتقل أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية. وهكذا تزيد السنةالقمرية سنة واحدة كل ٣٣ سنة ، وثلاث سنين في كل قرن. فلو حل رمضان في يونيو في هذه السنة فسوف يحل بعد ست سنين في أبريل » .

لقد مضى ١٣١٣ عاماً منذ[1] الهجرة ، حيث إن قرننا (الميلادى) هو بمثابة مائة سنة وثلاث سنين في تقويم المسلمين ، وقد سجل تقويمهم واحداً وأربعين عاماً زائداً في هذه المدة من قرننا . وقد ألغت كنيسة اليهود الشرقية هذه السخافة واختارت طريقة إضافة الشهور (Intercalation) لتجعل تقويمها مثل التقويم الشمسي ، وهذا هو السبب في أن غرب آسيا يعاني حتى الآن لعنة هذه الطريقة القديمة — التقويم القمرى »[2].

لسنا هنا بصدد مناقشة الفرق بين التقويم القمرى والشمسي ، ولكن لابد من توضيح أن ما نسبه المؤلف إلى رسول الإسلام هو في الحقيقة غفلة شديدة ترجع إلى المؤلف نفسه ، ولم يمنع القرآن الكريم إضافة (الشهور الكبيسة) ، وإنما حرم النسيء (التوبة : ٣٨) ، ومعناه في اللغة : (التأخير) ، ومنه : (نسأ الدابة) عن الحوض لكي تشرب الأخرى ، ومعناه في الاصطلاح : (تأخير شهر وتقديم شهر آخر عليه) .

لقد كان من بين العادات الكريمة التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام العرب تحريم أربعة أشهر لا قتال فيها ولا جدال ، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وقد كان العرب يسافرون في هذه الأشهر بكل حرية ، لكي يؤدوا فريضة الحج والعمرة . وحين دب الفساد في بعض القبائل ، اخترعوا بدعة (النسيء) ، وهي أن يضعوا شهراً غير حرام محل الشهر الحرام ، كأن يجعلوا صفر في مكان المحرم ، وذلك لكي يحاربوا قبيلة يلزم قتالها في الشهر الحرام . وهذه هي البدعة المقيتة التي وصفها القرآن الكريم بأنها : (زيادة في الكفر) .

وقال العلماء : إن الشهور الكبيسة كانت رائجة في العرب ، وكانوا يضيفون عدد الشهور في السنة للتقويم .

وقال مفسر للقرآن الكريم في هذا الموضوع ، وهو مولانا شبير أحمد العثماني في تفسيره :

« إن بعض القبائل تضيف الشهور الكبيسة كل ثلاثة أعوام ليستقيم التقويم القمرى ، ولا يدخل هذا العمل في النسيء » .

إن ما قاله رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم في عهد الظلام لم يكن من الجهالة ، ولا يدخل

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٣٥ م.

(٢) Time and its Mysteries, N Y., 1962, p. 56.

قطعا فى نطاق ما أورده (جيمز هنرى بريستد) طعناً عليه ، ولو كان كلامه صلى الله عليه وسلم صادرا عن الشعور أو اللاشعور لوقعت فيه أخطاء ، ما من ذلك بد .

• • •

ثالثاً : الاستدلال بالتاريخ والاجتماع :

إن الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع خطأهم الأساسى أنهم لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، ولهذا يبدو لهم الدين شيئا غريبا ، ومثال ذلك أن ترى شيئا مربعا من زاوية منحرفة فيتراءى لك مثلثا . إن الخطأ الذى يقعون فيه هو أنهم يتناولون الدين على أنه « مشكلة موضوعية Objective Problem » ، فهم يجمعون فى سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين)، من رطب ويابس ، فى أى مرحلة من التاريخ ، ثم يتأملون فى ضوء هذا المحصول حقيقة الدين ! ! إن موقفهم ينحرف من أولى مراحله ، فيبدو لهم الدين — جراء هذا الموقف الفاسد — عملا اجتماعيا ، لا كشفا لحقيقة ، ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلا أعلى ، ولابد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها فى ضوء مثله الأعلى . أما الأمور التى تأتى بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى . وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها .

والدين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليس من الممكن البحث عن حقائقه ، كما يبحث عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات ، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها ، أو يقبلها فى شكل ناقص ، ويبقى الدين فى جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة فى ذاتها ، وإنما يختلف فى أشكاله المقبولة ، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة فى المجتمعات باسم الدين .

ولنأخذ — على سبيل المثال — لفظ (الجمهورية). فهى قيمة سياسية لنظام خاص بالحكم، وفى ضوء هذه القيمة نستطيع أن نحكم على بلاد بأنها جمهورية ، أو بأنها ليست كذلك . لكنا لو ذهبنا نبحث عن معانى (الجمهورية) فى النماذج السياسية التى توجد عبر القارات ، ويلتصق بها لفظ (الجمهورية) ، ثم زعمنا أن كل هذه البلاد قائمة (على أسس جمهورية) . فسوف تصبح كلمة « الجمهورية » بلا معنى . فى هذه الحالة ستختلف (جمهورية) الصين عن (جمهورية) الولايات المتحدة الأمريكية ، وستعارض (جمهورية) انجلترا (الجمهورية) العربية المتحدة ، كما أن (جمهورية) باكستان ستصطدم (بالجمهورية) التى تلتزم بها الهند . فإذا تأملنا كل هذه المشاهدات فى ضوء (فلسفة التطور) فإن هذه الكلمة سوف تفقد معناها حتما ، لأن فرنسا التى أنجبت النظام الجمهورى سوف تبرهن على أن (الجمهورية) بعد (نشوئها وارتقائها) تتمثل فى ديكتاتورية ديجول العسكرية .

وهذا النهج فى التناول يؤدى إلى نتيجة غريبة ، هى أنه لا حاجة إلى (الإله) فى الأديان ! !

إذ يوجد مثال لهذا فى تاريخ الأديان وهو مثال البوذية ، التى تخلو تماما من فكرة (الإله) . ومن ثم آمنت جماعة من الناس بضرورة البحث عن دين مجرد من الإله ، ولو أننا سلمنا بالفكرة القائلة بأن شيئا مثل (الدين) لابد منه للإنسان ، لحاجته إلى الوعى الخلقى والتنظيم الاجتماعى ، فلا داعى إذن للإله أن يوجد ، وربما قيل : « إن الدين الذى يصح لهذا العصر يلزم أن يكون مثل البوذية ، فإن إله العصر الحاضر هو (مجتمعه وأهدافه السياسية) ، ورسول هذا الإله هو (البرلمان) الذى يوجه الشعب إلى ما يرضيه ، ومعابد هذا الإله العصرى ليست المساجد أو الكنائس القديمة ، وإنما هى المصانع الكبيرة والسدود العظيمة» (١)

إن لهؤلاء الباحثين الاجتماعيين المزعومين قدرة كبيرة على خلق هذه الأفكار الجديدة ، التى تنتقل من (دين الإله) إلى فكرة (الدين بغير الإله) . وذلك ناشىء عن الطريق المعوجة التى سلكها بحثهم ، وهم يغمضون أعينهم عن جميع النواحى العلمية الأخرى التى تلقى ظلالا من الشكوك حول جداولهم الارتقائية . ومثاله أن علماء الاجتماع والإنسان قد توصلوا بعد أبحاثهم الفنية الدقيقة إلى أن (نظرية الإله) شكل ارتقائى لفكرة تعدد الآلهة ، غير أن هذا الارتقاء ضل طريقه واتجه إلى طريق غريبة ، وحير العلماء كما شوش أمره على نفسه ، بارتقائه الباطل من فكرة تعدد الآلهة إلى فكرة الإله الواحد .

إن فكرة تعدد الآلهة كانت تحمل قيما اجتماعية مؤداها أن يعيش مؤمنو الآلهة المختلفة فى سلام باعتراف متبادل ما بينهم ، « ولكن فكرة الإله الواحد أبطلت حتما هذا الإمكان ، بخلقها نظرية الدين الأعلى (Higher Religion) ونتيجتها أن بدأت حروب ضارية لا نهاية لها بين شعوب الدنيا ، وهكذا سعت فكرة الإله الواحد إلى حتفها بظلفها ، بارتقائها فى اتجاه مناقض ، وهذا هو قانون النشوء والارتقاء »(٢)

ولكننا — فعلا — قد تركنا الواقع الحقيقى فى هذا الجدول ، فالتاريخ المعلوم يثبت أن أول رسول معلوم كان سيدنا نوحا عليه السلام ، وكان يدعو إلى الله الواحد . كما أن تعدد الآلهة (Polytheism) ليس فى درجة واحدة ، وإنما معناه : أن يشرك الإنسان مع الإله الأكبر آلهة آخرين . يقربونه إليه ، ويشفعون له. وفى وجود هذه الحقائق تتحول نظرية النشوء والارتقاء إلى ادعاء لا دليل عليه .

• •

وفكرة (ماركس) هى أكثر نظريات هذه المجموعة عبثاً ، فهى تقول : إن الأحوال الاجتماعية هى التى تقوم ببناء الإنسانية وتكميلها ، ومن ثم كان العصر الذى وجد فيه الدين

---

(١) Religion without Revelation, Julian Huxley.

(٢) Man in the Modern World, p. 112.

عصر الإقطاع والرأسمالية ، وهو عصر الانتهازيين اللصوص ، كما أن الأفكار الدينية والأخلاقية التي تولدت في هذا العصر تحمل نفس الطابع الانتهازي الاستعماري .

والحق أن هذه الفكرة ليست لها قيمة من الناحية العلمية ، كما أنها عند التحليل العلمي والتجربة العملية لا طريق إلى تصديقها .

فالفكرة الماركسية تنفي بشدة إرادة الإنسان ، وهي تحيل الأحداث إلى تأثير عوامل الزمن الاقتصادية ، ومعنى ذلك أن الإنسان لا شخصية له ، فهو يصاغ في مجتمعه ، كما يصاغ الصابون في المصنع ، ولا طريق أمامه كي يشق أفكاراً وطرقاً جديدة ، وإنما هو ينطلق مفكرا على النهج الذي سمحت له به حياته الاقتصادية ، فإذا كانت هذه القضية صحيحة ، فكيف تمكن كارل ماركس – وليد النظام الرأسمالي – من أن يفكر ضد العوامل الاقتصادية الرائجة في عصره ؛ هل صعد القمر لكي يبحث في أحوال الأرض ؟

وبعبارة أخرى : لو صح أن الدين وليد عصر مخصوص فكيف لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادي، لعصرها ؟؟ .. وإذا لم نسغ هذا الوضع فيما يتعلق بالماركسية فكيف نسيغه بالنسبة إلى الدين ؟ .. الحق أن هذه الفكرة عبث مثير لا يحمل على ظهره أي دليل علمي أو عقلي .

هذا وقد اتضحت أخطاء هذه الفكرة بالتجارب العملية . وحسبنا روسيا ، هنالك حيث سادت الماركسية نصف قرن من الزمان ، ادعت روسيا خلاله أن أحوال البلاد المادية قد تغيرت تماما ، وأن النظام الزراعي ، والمبادلة ، وتقسيم الأموال ، قد جرت على أسس غير استغلالية ، ولكنا وجدنا حين مات ستالين أن قادة الروس أنفسهم قد أقروا بأن الظلم والفساد كانا رائجين في عهده ، وأنه كان يستغل الشعب كما يستغله الحكام في البلاد الاستعمارية . ولو وضعنا في اعتبارنا واقع الرقابة الشديدة على الصحف ووسائل الإعلام ، وهي التي تمكن بها ستالين من أن يذيع على العالم أن عهده هو عهد العدل والإنصاف، فلا ريب أن هذه الرقابة موجودة هنالك اليوم أيضا ، ومن هنا نستطيع أن نفهم أن الأمور تجري وراء ستائر الدعاية الجميلة على ما كانت عليه في عهد ستالين . وإن كان المؤتمر العشرون (١٩٥٦) للحزب الشيوعي الروسي قد أفشى مظالم ستالين ، فلا غرابة أن يجيء المؤتمر الأربعون للحزب الشيوعي بإفشاء أسرار حكام روسيا اليوم[١] .

إن هذا النظام الذي استغرقت تجربته نصف قرن من الزمان ليدلنا على أن الإنسان لا يتغير بتغيير نظام الزراعة والمبادلة المزعوم ، ولو كان العقل الإنساني تابعا للنظام الاقتصادي فلماذا نجد الظلم والفساد والاستغلال في نظام روسيا الشيوعي ؟

---

(١) وقد أكد هذا عزل خروشوف والحوادث التي تلته في روسيا في أكتوبر عام ١٩٦٤ م .

إن قضية العصر الحاضر لا تعدو أن تكون «سفسطة علمية Scientific Sophism» ذلك أن علماء هذا العصر يعالجون قضاياهم فى ضوء العلم الحديث ، غير أن هذه المعالجة لا تجدى نفعا ، لأنها قائمة على العلم المحض وحسب ، على حين لابد من اعتبار أشياء أخرى ، ومثال ذلك : أن نشرع فى دراسة علمية لأشياء علمية ناقصة ، فسوف تؤدى هذه المطالعة العلمية إلى نتائج غير علمية ، ناقصة ، باطلة .

لقد عقد فى دلهى فى يناير ١٩٦٤ مؤتمر دولى للمستشرقين ، اشترك فيه ألف ومائتان من العلماء من جميع أنحاء العالم . وقدم أحدهم فى هذا المؤتمر بحثا يدعى فيه مآثر كثيرة لمسلمى الهند ليست من عمل المسلمين ، وإنما هى من عمل الملوك الهندوس . وضرب لذلك مثلا بمنارة قطب فى دلهى المنسوبة إلى الملك قطب الدين أيبك ، على حين بناها الملك الهندوسى سامودرا جوبت قبل ٢٣ قرنا ، وقد أخطأ المؤرخون المسلمون فنسبوها إلى الملك قطب الدين . ويستدل هذا البحث بأن فى المنارة المذكورة بعض أحجار قديمة نحتت قبل عصر الملك قطب الدين .

وهذا – كما يبدو – استدلال علمى ، إذ أن بعض أحجار المنارة فعلا من الصنف الذى ذكره العالم ، ولكن هل يكفى مشاهدة بعض أحجار المنارة للبت فى أمر بانيها ؟ أو أنه لابد من نواح أخرى كثيرة لنشاهدها فى هذا الصدد.ومن هنا فإن هذا التفسير لا يصدق على منارة قطب – ككل . هذا تفسير . وهناك تفسير آخر ، هو أن هذه الأحجار القديمة التى يوجد بعضها فى المنارة . إنما جاءت من أنقاض أبنية قديمة ، كما هو معروف فى كثير من الأبنية التاريخية الحجرية . ولا مناص من أن نقبل هذا التفسير الثانى حين نشاهد منارة قطب الدين فى ضوء طابعها المعمارى ورسومها وتصميمها . والمسجد الناقص بجوارها ، والمنارة الثانية التى لم تكمل ، ثم ننتهى إلى أن التفسير الأول ليس إلا قياسا خاطئا قائماً على المغالطات .

• • •

وهذا هو أمر قضية المعارضين ، فإنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية ، لا يتصل بعضها بالموضوع مطلقا ، واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين ، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلا فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف .

والدليل الذى يقنعنى بصدق الدين هو أن عقولا مثالية منا – بعد أن تركت الدين – قد أخذت تهذى بكلمات لا حقائق وراءها ، وتعمه فى تيه الظلام ، ذلك أن الإنسان بعد أن يفقد أساس (الدين) لا يجد أساسا آخر لأفكاره . والأسماء التى تأتى فى قوائم المعارضين أكثرها من عقولنا الكبيرة ، ولكنهم بعد أن تخلوا عن الدين راحوا يكتبون ضروبا من اللغو غاية فى الإهمال والتمزق ، حتى إنى أتحير – أحيانا – فلا أفهم كيف صدرت هذه الكلمات عن قلم رجل من العلماء ؟ .. وإن السجل الذى أنتجه هؤلاء ليشتمل على خرافات وآراء

متناقضة ، واعترافات بجهل الحقيقة ، كما يشتمل على أدلة أشبه بالسفسطة . فبطولة هؤلاء تكمن فى أنهم أغمضوا أعينهم عن الحقائق الظاهرة،وشادوا قناطر خيالية من الادعاء، كما تتمثل فى استدلالهم بالشاذ من الأمور . وذلك من سمات القضايا الباطلة ، أما القضايا الصحيحة فإنها تقوم على أسس علمية ثابتة ، لا على الشواذ .

• • •

وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين أكثر من ذلك حين نطالع صورة الحياة الإنسانية فى ضوء الدين ، إنها صورة جميلة لطيفة ، تتوافق مع أفكار الإنسان السامية . كما يتوافق الكون المادى مع القوانين الرياضية، بعكس تلك الصورة التى يرسمها المعارضون، فهى صورة جد قبيحة، وهى لا تتفق أبدا مع الذهن الإنسانى ، وانظر إلى ما يقوله برتراند رسل:

« والإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف ، إن بدأه ونشوءه ، وأمانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده ، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، والقبر ينهى حياة الإنسان . ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى. إن هذه المجهودات الطويلة . والتضحيات ، والأفكار الجميلة ، والبطولات العبقرية ، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسى . إن الكفاح الإنسانى كله سوف يدفن حتما مع الأرض تحت أنقاض الكون ، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية فإنها أقرب ماتكون إلى الحقيقة ، حتى إن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقى فناءها تلقائيا »[1]

ويكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادى ، فالكون فى ضوء هذا الفكر المادى ـ يكاد يفقد أهدافه ، ولا يبقى غير الظلام الحالك ؛ الظلام الذى تتلاشى فيه معايير الخير والشر ، حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلما ، لأنهم سوف يلقون حتفهم على أية حال يوما ما . أما الفكر الدينى فهو فكر الضوء والأمل . الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة ، وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجد لها مكانا فيه ، وإن كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره، يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة ، فإن تصديق العقل الإنسانى الفكر الدينى دليل قطعى على أنه هو الحقيقة التى طالما بحثت عنها الفطرة الإنسانية ، وعندئذ لا نجد أساسا واقعيا لإنكار قيمة الفكر الدينى ، هذا وهو « المقياس » العلمى الذى يشير إليه الرياضى الأمريكى البروفيسور (ارل تشستر ريكس) قائلا :

« إنى أستخدم فى أبحاثى ذلك المقياس العلمى المسلم ، الذى يستخدم فى ترجيح إحدى فكرتين مختلفتين أو أكثر ، عن حقيقة واحدة . وهو المقياس الذى نرجح بناء عليه الفكرة التى تفسر المسائل المتنازع فيها بطريقة أكثر بساطة وسهولة . لقد استخدم العلماء هذا المقياس

---

(1) Limitations of Science, p. 133.

لاختيار إحدى نظريتي بطليموس وكوبرنيك : كانت الأولى تزعم أن الأرض هي مركز النظام الشمسي ، على حين أكدت الثانية أن النظام الشمسي هو مركز الأرض . وكانت نظرية بطليموس غاية في التعقيد حتى رفضها العلماء »[1]

ولابأس من الاعتراف بأن هذه الأدلة لن تقنع بعض الناس ، فإن أبواب عقولهم المادية موصدة دون أى كلام — مهما يكن علميا — عن الإله أو الدين . ومن المؤكد أن موقفهم هذا ليس لأن استدلالنا ضعيف ، وإنما هو راجع إلى تعصبهم المقيت ضد الأفكار الدينية ، ولقد صدق عالم بريطانيا العظيم سير جيمس جينز — الذى يعتبر ولاشك أعظم علماء العصر الحديث — حيث قال فى كتابه الشهير (عالم الأسرار) ·

« إن فى عقولنا الجديدة تعصبا يرجح التفسير المادى للحقائق »[2]

وذكر (وينكر شامبرز) فى كتابه (الشهادة) Witness حادثا كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته . ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفتت أذناها نظره ، فأخذ يفكر فى أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق ، كهذه الأذن ، بمحض اتفاق ، بل لابد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة . لكن (ويتكر شامبرز) طرد هذه الوسوسة عن قلبه ، حتى لا يضطر أن يؤمن — منطقيا — بالذات التى أرادت فدبرت ، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة .

ويقول الأستاذ الدكتور (تامس ديود باركس) بعد أن يذكر هذا الحادث :

« إنى أعرف عددا كبيرا من أساتذتى فى الجامعة . ومن رفقائى العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية فى المعامل[3]

لقد أجمع علماء هذا العصر على صدق نظرية النشوء والارتقاء.. وقد بدأت هذه النظرية · تسود فعلا جميع فروع العلوم الحديثة . فكل مشكلة تحتاج « إلهاً » فى تفسيرها توضع مكانه هذه النظرية بغير تردد .

هذا جانب من النظرية ، وأما الجانب الثانى — وهو الجانب المظلم منها — الذى يقرر (فكرة التطور العضوى) Organic Evolution الذى استنبطت منه فكرة الارتقاء ، فقد بقى إلى يوم الناس هذا بلا براهين ، وبلا أدلة علمية ! ! حتى قال كثير من العلماء : « إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية ، إلا لأنه لا يوجد أى بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة » .

---

(١) The Evidence of God, p. 179.

(٢) Mysterious Universe, p. 189.

(٣) The Evidence of God, pp. 73 - 74.

وكتب سير آرثر كيث يقول :

« إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو (الإيمان بالخلق الخاص المباشر) ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه[1] » !!

إنني أقر هنا بعجزي عن إقناع أولئك الذين ينطوون على التعصب الأعمى للتفسير المادي ، بحقية الدين ، ولهذا التعصب جذور عميقة ، كما يقول عالم أمريكي : « إن كون العقيدة الإلهية معقولة ، وكون إنكار الإله سفسطة لا يكفي ليختار الإنسان جانب العقيدة الإلهية. فالناس يظنون أن الإيمان بالله سوف يقضي على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التي استعبدت عقول العلماء ، واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم[2] »

وبناء على هذا يدعي جوليان هكسلي أن فكرة النبوة « هي إظهار للتفوق بطريقة شاذة لا يمكن احتمالها » ؛ إذ أن معنى الإيمان بنبي أن نؤمن بكلامه على أنه كلام الإله ، ثم نمتثل - طوعا أو كرها - لكل ما يأمر به .

ولكن إذا كان الإنسان مخلوقا وليس خالقا ، عابدا وليس معبودا . فكيف يستطيع أن يقضي على الحقائق بمجرد أفكار نبتت في عقله ؟ .. إننا لا نستطيع أن نغير الحقائق ، وإنما نستطيع أن نعترف - أو نؤمن بها - فحسب . وإذا كنا لا نحب أن تكون عاقبتنا عاقبة النعامة ، فأفضل خيار لنا أن نسلم بالحقيقة قبل أن تفوت الفرصة نهائيا .

إن كفرنا بالحقيقة لن يسئ إلى قضيتها ، ولكن الخسران كله سوف يكون من حظنا في الآخرة .

---

(١) Islamic Thought, Dec. 1961.

(٢) George H. Blount, The Evidence of God, p. 130.

الباب الثالث

طريقة الاستدلال العلمى

إن قضية العصر الحاضر ضد الدين هى قضية طريقة الاستدلال ، أعنى الطريقة الجديدة التى كشفها العلم الحديث بعد التطورات فى ميادينه العديدة ، بحيث لم تعد تقف أمامها دعوى الدين وعقائده . هذه الطريقة الجديدة هى معرفة الحقيقة بالتجربة والمشاهدة ، على حين تتصل عقائد الدين بعالم ما وراء حواسنا ، ولا يمكن إخضاعها للتجربة . (فالدين كله مبنى على قياس واستقراء)[1] ، وهذا هو ما يجعله باطلا ، لأنه ليس له أساس علمى .

وقضية العصر الحاضر باطلة ، لأنها لا تقوم على أسس علمية ، فالطريقة الجديدة لا تنفى وجود أشياء لم تجرب مباشرة ، كما لا تنفى قياس أشياء لم نشاهدها على أشياء شاهدناها تجريبيا وهو ما يسمى « قياسا علميا » ، ويعتبر كالتجربة المباشرة ، فالتجربة لا تعد حقيقة علمية لمجرد أنها شوهدت ، كما أن القياس ليس باطلا لمجرد أنه قياس. فإمكان الصحة والبطلان موجود فيهما على سواء .

كان الناس فى القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب . اعتقادا منهم أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخف منه وزنا ، وحين قال بعضهم : إن السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتى من الخشب . أنكر الناس عليه مقالته واتخذوه هزواً ، وجاء نحاس فألقى بنعل من حديد فى دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية ـ بدل أن تطفو على سطح الماء ـ استقرت فى القاع . كان هذا العمل تجربة . ولكننا جميعا نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة ، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينيه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية .

---

(١) ومثاله أن أصحاب الدين إذا أرادوا إثبات وجود الإله لا يقدرون على ذلك باستعمال التلسكوب ، ولكنهم يستدلون بأن نظام الكون وروحه العجيبة تدلان على أنه يوجد عقل إلهى وراءها . وهذا الدليل لا يثبت وجود الإله مباشرة ، وإنما هو يثبت قرينة تستلزم الإيمان بالله بعد الإيمان بها .

فى بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا ، فلما شاهدنا السماء بهذا المنظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور ، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغـاز ، تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوما . ولكنا حين تمكنا من صناعة منظار قوى ، وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية ، علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هى مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب ، نتيجة البعد الهـائل بينها وبين الأرض .

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتى العلم القطعيتين ، وأن العلم لا ينحصر فى الأمور التى شوهدت بالتجربة المباشرة . لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة النطاق ، ولكن الأشياء التى نلاحظها بهذه الوسائل كثيرا ما تكون أمورا سطحية ، وغير مهمة نسبيا . أما النظريات التى يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهى أمور لا سبيل إلى ملاحظتها ، والذى يطالع العلم الحديث ، يجد أن أكثر آرائه « تفسير للملاحظات » وأن هذه الآراء لم تجرب مباشرة ، ذلك أن بعض الملاحظات يحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيا ، فأى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل : « القوة » Force ، و « الطاقة » Energy ، و « الطبيعة » Nature ، و « قانون الطبيعة » Law of Nature ، وما إلى ذلك . ولكن هذا العالم لا يدرى ما « القوة والطاقة والطبيعة وقانونها » ؟ فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة ، لكى يبين عن علل غير معلومة . وهذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ ، تماما كرجل الدين ، لا يستطيع تفسير صفات الإله ، وكلاهما يؤمن — بدوره — بعلل غير معلومة .

* * *

يقول الدكتور (الكسيس كيرل) :

« إن الكون الرياضى شبكة عجيبة من القياسات والفروض ، لا تشتمل على شىء غير « معادلة الرموز » ، الرموز التى تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها »[1]

والعلم الحديث لا يدعى ، ولا يستطيع أن يدعى ، أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن « الماء سائل » . ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة . ولكن الواقع أن كل (جزئ) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين ، وذرة من الأوكسجين وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب فى العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقى .

* * *

---

(١) Man The Unknown, p. 15

ويقول البروفيسور ا.ى. ماندير :

« إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى « **الحقائق المحسوسة** Percieved Facts »، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر فى « الحقائق المحسوسة » ؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا فى هذه السبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه « بالحقائق المستنبطة Inferred Facts والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو فى التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائما هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط »(١)

ويضيف ماندير قائلا :

« إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر ؟ .. هناك وسيلة وهى الاستنباط أو التعليل . وكلاهما طريق فكرى، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة ، حتى ننتهى بنظرية : أن الشئ الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا»(٢)

وهنا نتساءل : كيف يصح الاستنباط المنطقى لأشياء لم نشاهدها قط ؟ وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل : حقيقة علمية ؟ ويجيب ماندير بنفسه عن هذا السؤال :

« إن المنهج التعليلى صحيح ، لأن « الكون » نفسه عقلى » .

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ؛ حقائقه متطابقة ، ونظامه عجيب ، ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها — هى دراسة باطلة . ويقول ماندير فى هذا الصدد :

« إن الوقائع المحسوسة هى أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية ، وغير مرتبطة بالأخرى . فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا . فأما إذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة ، فإننا سندرك حقيقتها » .

ثم يأتى بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

« إننـــا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ، ويتطلب جهدا ، ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك ، ونعلم أن الصعود

---

(١) A.E. Mander, Clearer Thinking, London, p. 46.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

فى الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية – هى « قانون الجاذبية » ، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام . وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة ، فلن نجد بينها أى ترتيب ، فهى متفرقة ، وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق »[1]

• • •

إن قانون « الجاذبية » لا يمكن ملاحظته قطعا ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية ، وإنما هى أشياء أخرى ، اضطروا لأجلها – منطقيا – أن يؤمنوا بوجود هذا القانون .

واليوم يلقى هذا القانون قبولا علميا عظيما ، وهو الذى كشف عنه نيوتن لأول مرة ، ولكن .. ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية ؟ .. ها هو ذا نيوتن يتحدث فى خطاب أرسله إلى (بنتلى) فيقول :

« إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهى تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما »[2]

• • •

فنظرية معقدة غير مفهومة ، ولا طريق إلى مشاهدتها ، تعتبر اليوم ، بلا جدال ، حقيقة علمية !!! لماذا ؟ .. لأنها تفسر بعض ملاحظاتنا ، فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هى ما علمناه مباشرة بالتجربة ، ومن ثم نمضى إلى القول بأن العقيدة الغيبية التى تربط بعض ما نلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام – تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة ! ..

• • •

يقول البروفيسور مانديز :

« القول بأننا عرفنا الحقيقة يعنى : أننا عرفنا معناها ، وبعبارة أخرى : أننا بحثنا عن وجود شىء ، وعن أحواله ، فسرناه ، وأكثر عقائدنا تدخل فى هذا النطاق ؛ فهى فى الحقيقة : « تفسيرات للملاحظة » .

ويستطرد مانديز فيتكلم عن « الحقائق الملحوظة » :

---

(١) Clearer Thinking, p. 51.
(٢) Works of W. Bently, III, p. 221.

« عندما نذكر « ملاحظة » فإننا نقصد شيئا أكثر من المشاهدة الحسية المحضة ، فمعناها : « الملاحظة الحسية » و « التعرف » بما يشمل جانب التفسير »[1]

نظرية التطور العضوى :

هذه هي القاعدة العلمية التي على أساسها وافق العلماء على حقيقة نظرية (التطور العضوى) كما قال مانديز : « لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى إننا نستطيع أن نعتبرها « أقرب شيء إلى الحقيقة » [2]

ويقول سمبسن فى هذا الصدد :

« إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكليا ، وليست بقياس ، أو (فرض بديل) صيغ للبحث العلمى »[3]

ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) : أن نظرية الارتقاء فى الحيوانات « حقيقة » ، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين .

وقال ر .س لل :

« ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد ، يوما بعد يوم ، بعد داروين ، حتى إنه لم يبق شك لدى المفكرين والعلماء فى أن هذه هي الوسيلة المنطقية الوحيدة التي تستطيع أن تفسر عملية الخلق وتشرحها » .[4]

• • •

هذه النظرية التي أجمع العلماء على صحتها ، هل لاحظها أحدهم أو جربها فى معمله ؟ .. والجواب : لا ! فذلك ضرب من المستحيل ، إن مزعومة الارتقاء معقدة ، وهى تتعلق بماض بعيد جدا ، حتى إنه لا سؤال عن تجربتها وملاحظتها . وهى على ما أكده (لل) فى كلمته السابقة : « وسيلة منطقية » لتفسير مظاهر الخلق ، وليست بملاحظة واقعية . وأرى أن هذا هو السبب الذى دفع « السير آرثر كيث » — الذى يعتبر محاميا متحمسا لنظرية الارتقاء — أن يسلم بأن هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة ، وإنما هي مجرد عقيدة . ومن كلماته :

« إن نظرية الارتقاء « عقيدة أساسية » فى المذهب العقلى » [5]

---

(١) Clearer Thinking, p. 56.

(٢) Ibid, p. 113.

(٣) Meaning of Evolution, p. 127.

(٤) Organic Evolution, p. 15.

(٥) Revolt against Reason, p. 112.

وعرف أحد المعاجم العلمية نظرية دا روين بأنها « نظرية قائمة على تفسير بلا برهان »[1] .

* * *

فما الذى يجعل شيئا غير ملاحظ وغير قابل للتجربة « حقيقة علمية » ؟ يذكر (مانديز) أسباب ذلك فيقول :

١ — هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ — فى هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع ، لا يمكن فهمها إلا من طريقها .

٣ — ولم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة[2]

فإذا كانت هذه الأدلة كافية لتصبح نظرية الارتقاء حقيقة علمية فهى كذلك موجودة فى جانب الدين على وجه أتم وأكمل . والقول بصدق نظرية الارتقاء وإبطال الدين فى نظر الذهن العلمى لا يعنى مطلقا أن قضية المعارضين هى قضية الاستدلال العلمى ، وإنما هذه القضية تتعلق « بالنتيجة » ، فلو أثبت نفس الاستدلال أمرا « طبيعيا محضاً » فسيقبله المعارضون ، وسيرفضونه لو أثبت أمرا إلهيا — لأنه غير مرغوب فيه عندهم .

* * *

مشكلة تعيين حقائق الأمور :

وبهذا لا ينبغى القول بأن الدين هو « الإيمان بالغيب » ، وبأن العلم هو الإيمان « بالملاحظة العلمية » . فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الإيمان بالغيب . غير أن دائرة الدين الحقيقية هى دائرة «تعيين حقائق الأمور» نهائيا وأصليا ، أما العلم فيقتصر بحثه على المظاهر الأولية والخارجية ، فحين يدخل العلم ميدان تعيين حقائق الأمور تعيينا حقيقيا ونهائيا — وهو ميدان الدين الحقيقى — فإنه يتبع نفس طريق الإيمان بالغيب . الذى يتهم به الدين . ولابد من هذا السلوك فى « الميدان الثانى » : كما قال سير آرثر ادنجتن : « إن عالمنا فى العصر الحاضر يعمل على منضدتين فى وقت واحد : إحداهما : المنضدة العامة التى يستعملها الرجل العادى ، التى يمكن لمسها ورؤيتها . وأما الأخرى : فهى « المنضدة العلمية » ، وأكثرها فى الفضاء ، وتجرى فيها إلكترونات لا حصر لها ولا تشاهد » ، ويستطرد سير آرثر أدنجتن قائلا : « وهكذا نجد لكل شئ صورة ذات وجهين ، أحدهما : (ملحوظ) ، والآخر : (صورة فكرية) لا سبيل إلى مشاهدتها بأى ميكروسكوب أو تلسكوب »[3]

(١) Ibid, p. 111.

(٢) Clearer Thinking, p. 112.

(٣) Nature of tne Physical World, pp. 7-8.

أما الوجه الأول فيشاهده العلم ، ويشاهده لمدى بعيد جدا ، ولكنه لا يستطيع أن يدعى أنه يشاهد الوجه الآخر . وطريقة العلم الحديث أنه يقدم رأيا عن شئ بعد مشاهدة مظاهره . وأما « الميدان الثانى » فهو ميدان معرفة حقائق الأشياء وتعينها ، و « العلم » فى هذا الميدان هو البحث عن حقائق غير معلومة ، بوساطة حقائق معلومة .

وعندما يجتمع لدى عالم من العلماء قدر مناسب من « الحقائق الملحوظة » فإنه يحس بضرورة وضع نظرية أو فرض علمى . وبعبارة أدق : ضرورة فكرة اعتقادية ووجدانية ، تقوم بتفسير الملاحظات ، وربط بعضها ببعض ، فإذا نجحت هذه الفكرة الاعتقادية فى تفسير الحقائق تفسيرا كاملا عدت حقيقة علمية ، رغم أنها لم تلاحظ قط كما لوحظت الحقائق الأخرى التى نعرفها بالمشاهدة ، أو بالملاحظة العلمية .

ومعنى ذلك أن العالم يؤمن بوجود شئ غائب بمجرد ظهور نتائجه وآثاره ، فكل حقيقة نؤمن بها تكون دائما (فرضا) فى أول أمرها ، إلى أن نكشف حقائق جديدة تدعم صدقها ، فنزداد يقينا بها. حتى نبلغ حق اليقين : وإذا لم تؤيدها الملاحظات اللاحقة تخلينا عنها . ومن أمثلة هذه « الحقائق » : حقيقة « الذرة » التى لا سبيل إلى إنكارها ، برغم أنها لم تشاهد قط بالمعنى المعروف ، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت فى هذا العصر . وهذا هو السبب الذى دفع أحد العلماء أن يعرف (النظريات) العلمية بالألفاظ التالية :

« Theories are Mental Pictures, That Explain Known Laws»

« النظريات صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة » .

• • •

حقيقة النظريات العلمية :

إن الحقائق التى تعرف فى العلم باسم « الحقائق الملحوظة » ليست بحقائق شوهدت فعلا ، وإنما هى تفسيرات لبعض المشاهدات ، لأن المشاهدة الإنسانية لايمكن أن توصف بأنها (كاملة) ، ولذا فإن جميع هذه التفسيرات تعد « إضافية » ، ومن الممكن أن تتغير بتطور الملاحظة .

ويقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية :

« هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى « نظرية علمية صحيحة » أنها « فروض عملية ناجحة» Successful Working Hypothesis ، ومن الممكن تماماً أن يكون سائر النظريات العلمية باطلا ، ذلك أن النظريات التى نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست إلا « قياساً

على وسائلنا المحدودة للملاحظة » ، ولا تزال قضية الحقيقة فى عالم العلم « قضية عملية نفعية Pragmatic Affair »[1]

* * *

ولا يزال العلماء بعد هذا يعتبرون أن الفرض الذى يفسر ملاحظاتهم لا يقل فى قيمته عن « الحقيقة الملحوظة » نفسها ، فهم لا يستطيعون أن يقولوا : إن الحقائق الملحوظة هى وحدها « العلم » ، وإن ماسواها من النظريات الشارحة لا تدخل فى نطاق (العلم) ، لأنها غير ملحوظة . . والحق أن هذا هو ما نسميه « الإيمان بالغيب » ، وهو بالنسبة إلى المؤمنين ليس سوى الإيمان بحقائق غير ملحوظة ، فهو ليس بعقيدة عمياء ، وإنما هو خير تفسير للحقائق التى يشاهدها العلماء . .

* * *

وكما رفض العلماء نظرية الضوء التى قدمها نيوتن وتعرف باسم Corpuscular Theory of Light لأنها لم تنجح فى تفسير مظاهر حديثة للضوء ؛ فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدين ، لأنها فشلت فى تفسير مظاهر الطبيعة .

إن مأخذ حقائق الدين هو نفس المأخذ الذى يستقى منه العلم الحديث ملاحظاته ، لكى يثبت نظرية علمية . ولقد انتهينا بعد دراسة الحقائق الملحوظة إلى أن تفسير الدين للطبيعة هو عين الحق ، حتى إن هذا التفسير لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهور ، على حين أن كل نظرية صاغها الإنسان منذ قرن ، أو أكثر أو أقل ، قد رفضت ، أو أصبحت موضع شك الآن .

وإن صدق الدين ليتجلى بعد كل خطوة نخطوها فى الملاحظة ، حتى ليصبح كل كشف علمى جديد تصديقاً لحقائق الدين !

ولسوف نطالع أفكار الدين من هذه الناحية فى الأبواب التالية .

* * *

---

(١) J.W.N. Sullivan, Limitations of Science, p. 158.

الباب الـرابـع

الطبيعة تشهد بوجود الإلـه

أصدرت الكنيسة المسيحية فى كيرالا جنوبى الهند كتيباً بعنوان :

« Nature and Science Speak about God »

« الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله » . . وأعتقد أن هـــذه الكلمات هى أفضل عنوان لهـــذا الباب .

إن أكبر دليل على وجود الإله هو مخلوقه ، هذا الذى نجده أمامنا ، وأوثق ما علمنا من حقائق الطبيعة يدعونا إلى الإيمان بأنه لاريب أن لهذه الدنيا إلهاً واحداً . ونحن لا نستطيع أن نفهم أنفسنا وأن نفسرها ، بله الكون كله — مجردين من الإيمان بوجود الإله .

إن وجود الكون ، والنظام العجيب الذى اشتمل عليه ، وأسراره الدقيقة ، لايمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه قد خلقته (قوة) ، وأن هـــذه القوة (عقل) لا حدود له ، وأنها ليست بقوة عمياء .

أولا — نظرية التشكيك فى الوجود :

هناك جماعة من المفكرين هزيلة العدد جداً ، «تشك» فى مجرد وجود مثل هذه القوة . وتعتقد هذه الجماعة أنه لا وجود للإنسان ، ولا للكون ، وأن الوجود عبارة عن عدم محض ، ولا شئ غير ذلك .

فلو سلمنا بهذه الفكرة لالتبس علينا أمر الإله دون شك . . ولكننا حين نؤمن بأن الكون موجود نضطر تلقائياً أن نؤمن بالإله ، أو بالقوة الخالقة — كما نسميها ، فليس بمعقول أن نؤمن بالوجود من العدم المحض ، ذلك قياس باطل ! !

فهذا التشكيك فى وجود الكون ، والذى يتخذ أحياناً شكل نظرية الـ « لا أدرية »[1] — يمكن أن يعد نكتة فلسفية ، لا علاقة لهـا بالحقيقة . فنحن حين نفكر يكون فكرنا هذا دليلا

---

(١) هذا مصطلح مستعمل فى اللغة الأردية مأخوذ من عبارة « لا أدرى » ، يشير إلى الاتجاه الذى ينكر معرفة شئ عن الكون ، لأن الكون لا وجود له على الحقيقة — المراجع .

قاطعاً فى ذاته على أن لنا وجوداً(۱). وحين نصطدم فى الطريق بحجارة ثم نتألم فهذا الواقع دليل فى ذاته على أن هناك عالماً موجوداً وجوداً ذاتياً خارج وجودنا . وهكذا تدرك حواسنا فى كل وقت أشياء كثيرة ، من الفرح والألم والتذوق ، فهذا الاحساس والشعور دليل لكل شخص على أنه موجود فى كون ، وعلى أنه يملك وجوده الذاتى ، وحينئذ فلو قام أحد يشكك نفسه فى وجوده الذاتى ووجود الكون فسوف نعتبر ذلك حالة استثنائية مفردة ، لاترتبط بتجربة الملايين من جماهير الناس . وسوف نقول عن هذا الرجل الفذ : إنه قد غاب فى عالمه الذهنى ، حتى نسى نفسه . . .

بل إننا لو سلمنا — جدلا — بأنه ليس للكون فى ذاته وجود خارج ذاتنا ، فلست أعتبر هذا دليلا ملزماً بأنه لا وجود للإله .

وعلى كل حال فهذه هى الفكرة الوحيدة التى ترى وجود الإله مشكوكاً فيه ، بكل ما تتضمن من السفسطة والجهالة وانعدام الواقعية ، وهى فكرة لا معنى لها فى ذاتها ، وليست مفهومة لدى جمهور الناس ، كما أنها لم تحظ بقبول فى دنيا العلم .

* * *

الوجود والخلق :

إن الإنسان العادى ، والعالم العادى يؤمن على كل حال بأن « له » وجوداً ، وبأن للكون أيضاً وجوداً ، وعلى هذا الأساس من العلم والإيمان تقوم جميع ألوان النشاط العلمى والحيوى .

فإذا آمنا بوجود الكون فلا بد أن نؤمن بإله هذا الكون منطقياً . . إذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ، ونحن لا نعلم شيئاً جاء إلى الوجود من العدم ، دون أن يخلق ، فكل شىء مهما بلغ حجمه ، عظم أو صغر ، جل أو دق ، ووراءه علة ، فكيف بنا نؤمن بأن كوناً عظيماً — مثل كوننا — جاء إلى الوجود ذاتياً ، دون خالق ؟؟

ذكر (جون ستيوارت ميل) فى سيرة حياته : أن أباه قد علمه أن سؤال « من الذى خلقنى ؟ » لا يكفى لإثبات وجود الإله ، إذ ينجم تلقائياً سؤال : « فمن ذا الذى خلق الإله ؟ » ، وقد اعتد (برتراند رسل) هذا الاعتراض الثانى كافياً لرفض مدلول السؤال الأول(۲).

ونحن نعرف أن هذا الاستدلال قديم جداً لدى الملحدين ، ومقتضاه : أننا لو افترضنا خالقاً للكون فسوف نضطر أن نتصوره أزلياً ! !

---

(۱) يستخدم المؤلف هنا تلك العبارة الفلسفية الشائعة : « أنا أفكر ، إذن فأنا موجود » (المراجـع) .

(۲) Morton White, The Age of Analysis, pp. 21 - 22.

الأزلى : الخالق أم المادة ؟

وإذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق ، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون ؟ وهذا الكلام لا معنى له ، لأننا لم نعثر على صفات للكون ، أية كانت ، تثبت أنه خالق نفسه .

ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر ، ولكنا اليوم ، وبعد كشف « القانون الثانى لحرارة الديناميكية » Second Law of Thermo Dynamics نجد أن هذا الاستدلال فقد كل أساس كان يقوم عليه .

وهذا القانون الذى نسميه «قانون الطاقة المتاحة» أو «ضابط التغير» Law of Entropy يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً ، فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائماً من (وجود حرارى) إلى (عدم حرارى) ، والعكس غير ممكن ، وهو أن تنتقل هذه الحرارة من (وجود حرارى قليل) أو (وجود حرارى عدم) إلى (وجود حرارى أكثر) . فإن ضابط التغير هو التناسب بين « الطاقة المتاحة » و « الطاقة غير المتاحة » .

وبناء على هذا الكشف العلمى الهام فإن « عدم كفاءة عمل الكون » يزداد يوماً بعد يوم ، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات ، وحينذاك لا تبقى أية طاقة مفيدة (للحياة والعمل) ، وسيترتب على ذلك أن تنتهى العمليات الكيماوية والطبيعية ، وتنتهى - تلقائياً - مع هذه النتيجة « الحياة » .

• • •

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القائلة بأن العمليات الكيماوية والطبيعية جارية ، وأن الحياة قائمة ، يثبت لدينا قطعاً أن الكون ليس بأزلى ، إذ لو كان الكون أزلياً لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد ، بناء على هذا القانون ، ولما بقى فى الكون بصيص من الحياة .

يذكر هذا التحقيق العلمى الحديث عالم أمريكى فى علم الحيوان ، هو الأستاذ (ادوارد لوثر كسيل) فيقول :

« وهكذا أثبتت البحوث العلمية - دون قصد - أن لهذا الكون « بداية » فأثبتت تلقائياً وجود الإله ، لأن كل شئ ذى بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته ، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول - الخالق الإله »[1] .

وقد قال نفس الكلام السير جيمس : « تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) Entropy سوف تستمر حتى تنتهى طاقاتها كلية ، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها ، لأنه لو حدث شئ مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض ، حتى نفكر

---

(١) The Evidence of God, p. 51.

فيها . إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن ، ومن ثم لابد لها من بداية ، ولابد أنه قد حدثت عملية فى الكون ، يمكن أن نسميها « خلقا فى وقت ما » حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً »[1].

* * *

وهناك شواهد طبيعية كثيرة تثبت أن الكون لم يكن موجوداً منذ الأزل ، وأن له عمراً محدوداً ، وعلى سبيل المثال ، نجد « علم الفلك » يقرر أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم ، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة ، بعضها عن بعض . ويمكن أن نفسر هذه الحالة تفسيراً جيداً إذا نحن سلمنا بوقت للبدء ، كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة بعضها مع بعض، ثم بدأت الحركة والحرارة . ويقدر العلمـاء أن هذا الكون قد وجد نتيجة «لانفجار» فوق العادة ، وقع منذ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠سنة .

فالإيمان بهذا الكشف العلمى ، وهو أن للكون عمراً محدوداً يتعارض مع إنكار موجده ، ومثل من يؤمن بحدوث الكون مع إنكاره لوجود خالقه ، كمثل من يزعم أن « تاج محل » قام بنفسه من غير بنائين ومهندسين ، مع تسليمه بأنه بنى فى القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن موجوداً منذ الأزل .

* * *

ثانياً ــ الكشوف الفلكية

يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمـال الموجودة على سواحل البحار فى الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض ، ولكن أكثرها كبير جداً ، حتى يمكن أن نضع فى واحد منها ملايين النجوم ، فى مثل حجم الأرض التى نعيش عليها ، ولسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال ! ! .

إن كوننا هذا فسيح جداً . ولكى نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (١٨٦,٠٠٠) ميلا فى الثانية الواحدة ، وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجـود الآن . إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة ، يضاف إلى ذلك أن هذا الكون ليس بمتجمد ، وإنما هو يتسع كل لحظة ، حتى إنه بعد (١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين ! ! وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة فى سرعتها الخيالية أن تكمل دورانها حول هذا الكون أبداً ، وإنما سوف تظل تواصل رحلتها فى نطاق هذا التوسع الدائم فى الكون[2] .

---

(١) The Mysterious Universe, p. 133.

(٢) هذه هى نظرية أينشتين عن الكون . ولكنها ليست إلا « قياساً رياضياً » ، والحقيقة أن الإنسان لم يستطع حتى الآن أن يفهم سعة هذا الكون ! !

عندما تكون السماء صافية نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم ، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (٢,٠٠٠,٠٠٠) من النجوم حين نستعمل تلسكوباً عادياً . وأقوى تلسكوب فى العالم هو الذى يوجد فى مرصد (ماوْنت بالومار) فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويستطيع أن يشاهد بلايين من النجوم .

إن الفضاء الكونى فسيح جداً ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها ، بسرعة خارقة ، بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها مايتحرك فى شكل مجموعات . ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذى يدخل غرفتك من الشباك ، فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير فى الهواء ، فلو استطعت أن تتخيل هذا فى شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشئ عن السيارات والكواكب فى الكون ، مع الفرق الهائل المتمثل فى أن ذرات الغبار تتحرك ، ويتصادم بعضها مع بعض ، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى . ومثلها مثل بواخر عديدة تمشى فى أعالى البحار متباعدة ، حتى إن إحداها لاتعرف شيئاً عن الأخرى . إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم ، تسمى « مجاميع النجوم » وكلها تتحرك دائماً . . .

• • •

وأقرب حركة منا هى حركة القمر التى تبعد عنا (٢٤٠,٠٠٠) ميلا ، وهو يدور حول الأرض ، ويكمل دورته فى مدة تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم . وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣,٠٠٠,٠٠٠) ميلا ، وهى تدور فى محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة ، فى دائرة (١٩٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلا ، وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة فى سنة كاملة . وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض ، وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب السيار « بلوتو » الذى يدور فى دائرة (٧,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ميلا حول الشمس . وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا أخرى ، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من « النجيمات » ، وآلاف من النجوم ذوات الأذناب ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور ، وفى وسطها ذلك السيار العملاق الذى نسميه « الشمس » ، وقطرها (٨٦٥,٠٠٠) ميلا وهى أكبر من الأرض (١,٢٠٠,٠٠٠) مرة ! !

ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة ، أو واقفة فى مكان ما ، وإنما هى بدورها ، مع كل هذه السيارات والنجيمات ، تدور فى هذا النظام الرائع ، بسرعة (٦٠٠,٠٠٠) ميلا فى الساعة . . . وهناك آلاف من الأنظمة ، غير هذا النظام الشمسى ، يتكون منها ذلكم النظام الذى نسميه « مجاميع النجوم » ، أو المجرات ، وكأنها جميعاً طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب

منفردة ومجتمعة ، كما يدور الخذروف الذى يلعب به الأطفال . ومجــرات النجوم هذه تتحرك بدورها أيضاً ، والمجرة التى يقع فيها نظامنا الشمسى تدور على محــورها بحيث تكمل (دورة واحدة) فى (٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠) « سنة ضوئية » .

• • •

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم ، مضروباً هذا العدد فى (٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ، من الملايين ، وفى كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم، أو أكثر أو أقل ، ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجــوم ، وهى التى نراها فى الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزاً مداه مائة ألف سنة ضوئية . ونحن ــ سكان الأرض ــ نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية .

ومع هذا الدوران تجرى حركة أخرى ، وهى أن هذا الكون يتسع من كل جوانبه ، كالبالون المتخذ من المطاط ، حين ينفخ فيه الأطفال ، وشمسنا هذه ــ وهى تدور حول نفسها ــ تدور بنا أيضاً على الحاشية الخارجية للمجرة ، وهى تتباعد عن هذه الحاشية الخارجية بمقدار اثنى عشر ميلا ، كل ثانية ، كما تتبعها فى هــذه العملية جميع النجــوم الداخلة فى النظام الشمسى . وهكذا جميع السيارات تسير إلى جانب أو آخر ، مع دورانها الخاص طبقا لنظامها ، فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال فى الثانية ،ومنها ما يسير بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلا فى الثانية ، ومنها ما يسير بسرعة أربعة وثمانين ميلا فى الثانية . وجميع النجوم ، على هذا النحو ، تبتعد فى كل ثانية ، بسرعة فائقة عن مكانها . هذه الحركة المدهشة تحدث طبقا لنظام وقواعد محكمة ، بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف فى سرعتها .

• • •

إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط ، بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير فى سرعة دورانها ، حتى بعد مرور قرن من الزمان . وهذا القمر ، الذى يتبع فى حركته الأرض ، يدور فى فلك مقرر ومنضبط ، مع تفاوت يسير جداً ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاماً ونصف عام ، بدقة فائقة ، وتلك هى حال جميع الأجرام السماوية . ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض ، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة، فى مجرة أخرى مثلها (وتتحرك سياراتها هى الأخرى) ، ثم تخرج منها بسياراتها جميعاً ، دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين .

وإن العقل ، حين ينظر إلى هذا النظام العجيب ، والتنظيم الدقيق الغريب ، لا يلبث

أن يحكم باستحالة أن يكون هذا كله قائماً بنفسه ، بل إن هنالك طاقة غير عادية هى التى تقيم هذا النظام العظيم ، وتهيمن عليه .

* * *

الأنظمة المعقدة

إن هذا النظام الذى يوجد فى العوالم الكبرى ، نجده — فى صورته الكاملة — فى أصغر عالم عرفناه ، فنحن نعرف — طبقا لأحدث معلوماتنا — أن الذرة أصغر عالم ، وأنها قد تناهت فى صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات ، فهى — بناء على هذا — ليست شيئاً ، بل إنها « لا شئ » بالنسبة إلى أدنى ما يستطيع البصر الإنسانى أن يراه ، ولكن هذه الذرة — مع ما وصفناها به — تحتوى بصورة رائعة على نظام الدوران العجيب ، الموجود فى النظام الشمسى ؛ فالذرة اسم لمجموعة من الإلكترونات ، وهذه الإلكترونات لا يتصل بعضها ببعض ، وإنما يوجد بينها فراغ كبير الحجم (نسبيا) . ولنأخذ مثلا قطعة من الحديد التى توجد فيها الذرات ، متصلا بعضها ببعض اتصالا شديدا . وسنجد أن هذه الإلكترونات لا تشغل أكثر من ـــــــ/١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من مساحة الذرة ، وبقية المجال يكون خاليا . ولو أننا أخذنا صورة مكبرة لجزيئين من الإلكترون والبروتون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ياردة . ولقد نتصور الذرة ، من حيث هى فى الغبار ، غير مرئية ، ومع هذا فإن حجم دوران الإلكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والإلكترون — الذى هو الجزئ السلبى فى الذرة — يدور حول البروتون — الذى هو الجزئ الإيجابى فيها — وهذه الجزيئات التى لا حقيقة لها أكثر من نقط وهمية سابحة فى الشعاع ، تدور حول مركزها ، بنفس النظام الذى تتبعه الأرض فى مدارها حول الشمس ، بحيث لا يمكن تصور وجود الإلكترون فى مكان محدود لسرعة دورانه ، وإنما هو يتخيل فقط موجوداً على طول مداره فى وقت واحد . وذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات فى الثانية الواحدة ! !

هذا النظام الذرى يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق إلى مشاهدته ، ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم ، أما وقد تبناه العلم فعلا ، فلماذا لانأخذ منه دليلا على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ؟ إنه يستحيل قيام هذا التنظيم فى الذرة دون منظم قائم عليه .

* * *

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من

لندن إلى ملبورن باستراليا تتم فى بضع ثوان ؛ فإذا كان تعقيد نظام أسلاك التليفون يوقعنا فى هذه الحيرة ، فما بالنا بنظامنا العصبى ، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً ؟ ! إن ملايين الأخبار تجرى على أسلاك نظامنا العصبى – الذى أوجدته الطبيعة – من جانب إلى آخر ، ليل نهار . وهذه الأخبار هى التى توجه القلب فى تدفقها ، وفى حركتها ، وتتحكم فى حركات الأعضاء المختلفة ، وتتحكم فى الحركات الرئوية . ولو لم يكن هذا النظام موجوداً فى أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقاً لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان ، وفى هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر فى سائر الجسم ، وتسمى هذه الأسلاك « الأنسجة العصبية » ، وفى هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وإرسال للأخبار ، بسرعة سبعين ميلا فى الساعة . وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق ، ونسمع ، ونرى ، ونباشر سائر أعمالنا ؛ بل إن هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds. ولكل منها سلك عصبى خاص متصل بالمخ . وبوساطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة . وتوجد فى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية . ومن خلال نظام معقد ، يسرى من هذه الخلايا ، يسمع مخنا . وفى كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء Light Roceptors ، وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا ، فإذا قربنا إلى الجلد شيئا حاراً ، فإن ثلاثين ألفا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ . وإذا قربنا إلى الجلد شيئا بارداً ، فإن ربع مليون من الخلايا ، التى تلتقط الأشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلئ المخ بأثرها ، ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة . وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة ، فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية – تلقائيا – عرقا بارداً إلى خارج الجسم .

والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع . منها : « الفرع المتحرك ذاتيا » Autonomic Branch ويقوم بأعمال تحدث ذاتيا فى الجسم ، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب . ويندرج تحت هذا الفرع نظامان : أحدهما : « النظام الخالق لحركة » Sympathetic System والآخر : هو المانع لها Payasympathetic. وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع . ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ، ولو سيطر النظام الثانى لتوقفت حركة القلب توقفا تاما . وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها فى دقة فائقة ، وفى توازن عام ، ولكن هنالك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين ، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة ، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة ، والنظام الثانى يتغلب عند النوم . فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

تقليد الطبيعة :

إن أحسن الآلات من صناعة الإنسان لا يمكن أن تقف أمام النظام العجيب الذى يوجد فى الكون . ولهذا فإن تقليد نظام الطبيعة قد أصبح اليوم موضوعاً خاصا فى العلم ، يولى أهمية خاصة للسير بالآلات الميكانيكية وفق ذلك النظام . وأصبحنا نرى علما جديداً يسمى « بيونيكس » Bionics لهذه الدراسة . وكانت مقتصرة من قبل على اكتشاف القوى الكامنة فى الطبيعة واستغلالها .

واليوم يسلك النظام البيولوجى سبلا كثيرة لحصول على معلومات تساعد على حل مسائل الهندسة .

ومن أمثلة استغلال نظام الطبيعة فى الصناعة آلة التصوير ، وهى فى الواقع تقليد ميكانيكى لعين الإنسان ، فعدسة الكاميرا Lens هى كالشبكة الخارجية للعين ، والحجاب الحاجز Diaphragm هو قزحية العين Iris والفيلم الذى يتأثر بالضوء . إنما هو شاشة العين التى توجد فيها خطوط وأشكال مخروطية ترى الأشياء معكوسة(١) .

لقد ابتكرت جامعة موسكو آلة نموذجية لالتقاط وقياس « الذبذبات تحت الصوتية » Infra-Sonic Vibrations . وهذه الآلة تستقبل وتلتقط أخبار الفيضانات والزلازل وما أشبهها من الكوارث قبل حدوثها بمدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة ، وخمس عشرة ساعة . وهى أقوى من الآلات المستعملة خمس مرات . فمن أين جاء هذا التفكير إلى العلماء ؟ لقد استنبطوه من سمكة قنديل البحر ، التى تسمى « هلامى » Jelly Fish فقلد المهندسون أعضاءها ، وهى شديدة الحساسية ، حتى لتحس بالذبذبات تحت الصوتية(٢) !

وهناك أمثلة كثيرة جدا غير هذه يمكن عرضها ، وهى تؤكد أن علماء الطبيعة والتكنولوجيا يقلدون — فى تفكيرهم الحديث — النماذج الحية فى الطبيعة .

وقد شغلت بال العلماء مسائل كثيرة من أزمان مضت ، على حين حلتها الطبيعة منذ زمن بعيد . وإن كانت أجهزة التصوير وتلقى الأخبار « التليبرنتر » لا يمكن وجودها بغير عقل إنسانى ، فمن المستحيل أن نتصور أن نظام الكون — الذى هو أكثر تعقيداً من أى نظام — قد قام بنفسه بغير عقل وراءه ؛ بل لابد أن له مهندسا منظما — هو الإله ، ولا يمكن أن يتصور العقل نظاما دون منظم ، فليس من اللامعقول أن نعتقد بوجود منظم للكون ، بل إن من اللامعقول أن ننكر خالق هذا النظام ، فالحقيقة أن العقل الإنسانى لا يملك أساسا عقليا لإنكار الإله .

• • •

(١) لن يجرؤ صاحب علم منا أن يدعى أن آلة التصوير جاءت عن نفسها ، دون اختراع إنسانى . ولكن الكثيرين من علمائنا يعتقدون أن « العين » جاءت عن صدفة واتفاق محض ! !

(٢) Soviet Land, Delhi, Dec. 1963.

ثالثاً ــ روح الكون الغريبة :

ليس الكون كسلة المهملات ، وإنما هو منطو على روح غريبة . وهذه الروح لايمكن أن تصدر إلا عن عقل قام بخلق الكون ، ويقوم بتدبيره .

وليس من الممكن أن يوجد نظام وروح فى عملية مادية عمياء ، حدثت اتفاقا ؛ فالكون متوازن ، ومتناسب إلى حد لا يمكن تصوره . لقد قال « شادفاش Chadvalsh : « إن من الممكن أن نسأل أى رجل ــ مؤمنا بالله كان أو منكراً له ــ نسأله أن يثبت كيف يمكن أن يكون هذا التوازن فى صالحه ، إذا كان الكون قد وجد بمحض الصدفة ؟ »[1] .

لابد للحياة فوق الأرض من أحوال كثيرة ، يستحيل اجتماعها بنسبها الخاصة رياضياً . ولكننا نجد أن هذه الحالات المستحيل اجتماعها رياضيا موجودة على سطح الأرض فعلا . وذلك يحتم علينا أن نؤمن بأن هنالك طاقة عظيمة عاقلة وراء الكون ؛ هى المتسببة فى وجود هذه الحالات .

* * *

التوازن المدهش فى الأرض :

الأرض أهم عالم عرفناه ، إذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شئ من هذا الكون الواسع ، وهى فى ضخامتها (كما تبدو لنا) لا تساوى ذرة من هذا الكون العظيم ، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر ، مما هى عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت فى حجم القمر مثلا ؛ بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا . لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها ، كما هى الحال فى القمر ، الذى لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائى ، لضعف قوة الجاذبية فيه . وانخفاض الجاذبية فى الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقداراً كبيراً من الماء . وكثرة الماء أمر ضرورى لاستمرار الاعتدال الموسمى على الأرض ، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب « عجلة التوازن العظيمة » Great Balance Wheel[2] وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائى للأرض فى الفضاء ثم يتلاشى . ويتبع ذلك أن تبلغ درجة حرارة الأرض أقصى معدلها ، ثم تنخفض إلى أدنى درجاتها ، على ما سبق ذكره .

وعلى العكس من ذلك ، إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت جاذبيتها

---

(١) The Evidence of God, p. 88.

(٢) The Evidence of God, p. 88.

الحالية ؛ وحينئذ ينكمش غلافها الجوى – الذى هو على بعد خمسمائة ميل – إلى ما دون ذلك . وسيترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة .

ولو أن الأرض تضاعف حجمها ، فصارت مثل حجم الشمس مثلا ، لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب غلافها الهوائى ، حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط ، بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوى إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة . وذلك يؤدى إلى استحالة نشأة الأجسام الحية . وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا – تحت الكثافة الهوائية الحالية – خمسمائة رطل . كما يهبط حجم الإنسان حتى يصير فى حجم فأر كبير ، ولاستحال وجود العقل فى الإنسان ، لأنه لابد للعقل الإنسانى من أنسجة عصبية كثيرة فى الجسم ، ولا يوجد هذا النظام إلا إذا كان حجم الجسم بقدر معين .

* * *

نحن قائمون على الأرض ظاهراً ، ولكن الأصح أن نقول : نحن ملقون على رؤوسنا ، ولتوضيح ذلك نقول : إن الأرض مثل كرة معلقة يسكنها الإنسان ، فوضع الناس بعضهم بالنسبة إلى بعض على هذه الكرة ، أن سكان أمريكا سيكونون تحت سكان أهالى الهند ، وسكان الهند سيكونون تحت أقدام سكان أمريكا .

فأرضنا هذه ليست بثابتة ، وإنما هى تدور بسرعة مقدارها ألف ميل فى الساعة ، وذلك يجعل وضعنا فوقها أشبه بحصاة وضعت على محيط عجلة تدور بسرعة ، يوشك أن تقذف بها فى الفضاء ، ولكن الأرض لا تقذفنا ؛ بل نحن مستقرون عليها ، فكيف تمسكنا وهى تدور بهذه السرعة ؟ ! ! ..

إن فى الأرض جاذبية غير عادية ، وهى بهذه الجاذبية تشد كل شئ إليها ، فجاذبية الأرض وضغط الهواء المستمر يمسكانا فوقها بنسبة معلومة ، وهكذا صرنا مشدودين بهاتين العمليتين إلى كرة الأرض من كل ناحية .

وضغط الهواء الذى يكون على كل بوصة مربعة ما يقرب من ١٥ رطلا معناه : أن كل إنسان يتحمل ما يقرب من ٢٢٨,٤٠ رطلا من الضغط الجوى على جسمه ، ولكن الإنسان لا يحس بهذا الوزن ، لأن الهواء يضغطه من كل ناحية ، كما يحدث عندما نسبح فى الماء . ثم إن الهواء – وهو علم على مركب معين من الغازات – ذو فوائد كثيرة ، لا يمكن حصرها فى كتاب .

* * *

لقد توصل نيوتن ، من خلال مشاهداته ومطالعاته ، إلى أن الأجسام يجر بعضها بعضا، ولكنه لم يستطع تعليل هذا ، ولذا سلم بأنه لا تفسير لديه لهذه العملية .

ولقد ذكر هذه المسألة « وهايت هيد » قائلا :

« لقد كشف نيوتن – حين سلم بهذا – عن حقيقة فلسفية عظيمة ؛ هي أن الطبيعة لو كانت بغير روح فلن تفسر نفسها ، كما أن الشخص الميت لا يستطيع أن يحكى لنا واقعا . إن جميع التفسيرات الطبيعية والمنطقية لم تزد أخيرا على أن تكون إظهاراً لهدف ، لأن الميت لا يمكن أن يكون حامل[1] أهداف » .

وسوف أدفع حديث (وهايت هيد) إلى الأمام ، قائلا : إنه إذا لم يكن هذا الكون تحت سلطان « وجود ذى إدراك » فلماذا توجد فيه هذه الروح المدهشة ؟

• • •

إن الأرض تتم دورة واحدة حول محورها ، فى كل أربع وعشرين ساعة . ومعنى ذلك أنها تسير حول محورها بسرعة ألف ميل فى الساعة ، فإذا فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتى ميل فى الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات ، بالنسبة إلى ما هى عليه الآن ، ويترتب على ذلك أن تحرق الشمس – بشدة حرارتها – كل شئ فوق الأرض ، وما بقى بعد ذلك ستقضى عليه البرودة الشديدة فى الليل .

وهذه الشمس ، التى نعدها اليوم وسيلة حياتنا ، تبلغ حرارة سطحها اثنى عشر ألف درجة فهرنهيت ؛ والمسافة بينها وبين الأرض تبلغ ما يقرب من ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميلا . وهذا البون الهائل دائم ، لا يتغير أبداً بزيادة أو نقص ، وفى ذلك عبرة عظيمة لنا ؛ لأنه لو نقص ، واقتربت الشمس من الأرض . بمقدار النصف ، مثلا ، من الفاصل الحالى ، فسوف يحترق الورق على الفور من حرارتها ، ولو بعد هذا الفاصل ، فصار ضعف ما هو عليه الآن فإن البرودة الشديدة التى تنجم عن هذا البعد ، سوف تقضى على الحياة فى الأرض ، ولو أنه حل محل الشمس سيار آخر غير عادى ، يحمل حرارة تزيد على حرارة الشمس عشرة آلاف مرة ، فسوف يجعل من الأرض تنوراً رهيباً ..

ثم إن هذه الأرض دائرة فى الفضاء ، وهى تؤدى عملها بزاوية ٢٣° درجة ، الأمر الذى تنشأ عنه المواسم ، ويترتب عليه صلاحية أكثر مناطق الأرض للزراعة والسكنى ، فلو لم تكن الأرض على هذه الزاوية لغمر الظلام القطبين طول السنة ؛ ولسار بخار البحار شمالا

---

(١) The Age of Analysis, p. 85.

وجنوباً ، ولما بقى على الأرض غير جبال الثلج ،وفيافى الصحراوات ، وهكذا تنجم مؤثرات كثيرة تجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة .

• • •

فلو كان قياس العلماء صحيحا ، وهو : أن المادة قد نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة ، فما أعجب هذا القياس ، وما أكثر إثارته للدهشة ! ! . يقولون : إن الأرض انشقت من الشمس ، ومعنى هذا : أن درجة حرارتها كانت فى مبدأ أمرها ، نفس حرارة الشمس ، وهى اثنا عشر ألف درجة فهرنهيت ، ثم بدأت الأرض تبرد ، إذ لا يمكن اتصال الأوكسجين بالهيدروجين إلا بعد أن تنخفض الحرارة إلى أربعة آلاف فهرنهيت – وفى هذه المرحلة وجد الماء ، وهكذا استمرت عمليات التقلب على سطح الأرض ملايين السنين ، حتى جاءت الأرض فى صورتها الحالية ، منذ أكثر من بليون سنة مضت ، وذهبت الغازات من فضاء الأرض إلى فضاء الكون ، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك إلى المركب المائى ، أو انجذبت إلى الأشياء الأرضية ، أو بقيت فى صورة الهواء ، وأكثرها فى صورة الأوكسجين أو النتروجين . وهذا الهواء ، فى كثافته ، يعد جزءاً واحداً من ٢,٠٠٠,٠٠٠ من أجزاء الأرض . ولم تنجذب كل الغازات إلى الأرض ، كما أنها كلها لم تتحول إلى (هواء) . ولو أنه حدث ، لاستحالت حياة الإنسان ، فلو أننا فرضنا المستحيل ، ووجدت الحياة فى ظروف كهذه – تتحمل فيها البوصة المربعة آلاف الأرطال من الضغط الجوى – لكان من المستحيل أن توجد الحياة فى صورة الإنسان الحالية .

ولو كانت قشرة الأرض أكثر سمكا ، بمقدار عشرة أقدام من سمكها الحالى ، لما وجد الأوكسيجين ،[1] وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية .

وكذلك لو كانت البحار أعمق بضعة أقدام ، أكثر من القاع الحالى ، لانجذب (ثانى أكسيد الكربون) ، والأوكسيجين[2] ، ولاستحال وجود النباتات على الأرض ، فضلا عن الحياة .

ولو كان الغلاف الهوائى للأرض ألطف مما هو عليه الآن ، لاخترقت النيازك كل يوم غلاف الأرض الخارجى ، ولرأيناها مضيئة فى الليل ، ولسقطت على كل بقعة من الأرض وأحرقتها ، فهذه النيازك تواصل رحلتها بسرعة أربعين ميلا فى الثانية ، ونتيجة لهذه السرعة العظيمة ، فإنها ستحرق كل شئ يمكن احتراقه على الأرض ، حتى تصبح الأرض غربالا فى وقت ليس ببعيد . .

---

(١) إذ أن القشرة الأرضية ستمتص حينئذ الأوكسجين .
(٢) حتى يمتصهما الماء .

فلولا أن غلاف الأرض الهوائى يقينا من هذه الشهب لاحترقنا . فإن سرعتها أكثر من سرعة طلقة البندقية تسعين مرة كما أن حرارتها الشديدة كافية لإهلاك كل شئ ، بما فيه الإنسان . فنحن إذن فى حماية هذا الغلاف الكثيف الموزون ، الذى لا تخترقه « الأشعة الشمسية ذات الأهمية الكيماوية » Actinic Rays إلا بالقدر الذى يكفى لحياة النبات ، وإيجاد الفيتامينات ، والقضاء على الجراثيم الضارة ، وما إلى ذلك ..

إن هذا التوازن للكميات ، المحتاج إليها ، عجيب جداً ؛ فالغلاف الذى فوق الأرض مكون من ستة غازات ؛ منها ٧٨ فى المائة من النتروجين ، و ٢١ فى المائة من الأوكسيجين ، والغازات الأخرى توجد بنسب قليلة ، وهذا الغلاف يضغط الأرض بنسبة ١٥ رطلا فى البوصة المربعة ، ونسبة الأوكسيجين فى هذا الضغط ٣ أرطال فى البوصة المربعة ، والمقادير الأخرى للأوكسيجين الموجود اليوم قد انجذبت إلى الأرض ، وهى تمثل ٨و٠ من الماء الموجود على سطح الأرض ، والأوكسيجين هو الوسيلة الوحيدة لتنفس سائر حيوانات الأرض ، ولا طريق إلى ذلك من غير الفضاء .

* * *

قانون الضغط والتوازن :

وهنا يظهر سؤال هام ، وهو : كيف تجمعت هذه الغازات الشديدة الحركة ، مع احتفاظها بمقاديرها المتناسبة ، التى لابد منها لحياة ، فى الفضاء ؟

والجواب : أنه لو كانت نسبة الأوكسيجين ٥٠٪ ، أو أكثر ، بدلا من ٢١٪ ، لزادت قابلية الاحتراق ، بما يساوى ارتفاع هذه النسبة ... فإذا احترقت شجرة واحدة فى غابة ، حينما تكون نسبة الأوكسجين ٢١٪ ، فإن الإنفجار الخاطف ، الناجم عن ارتفاع هذه النسبة إلى ٥٠٪ يجعل احتراق الغابة كلها أمراً حتمياً ، فى لحظات !

ولو أن هذه النسبة انخفضت ، فأصبحت ١٠٪ ، لكان من الممكن ، على مدى القرون ، أن تعتاد الحيوانات الحياة مع انخفاض نسبة الأوكسيجين إلى هذا الحد ، ولكنه يكون من المستحيل أن تزدهر الحضارة الإنسانية ، كما هى عليه فى الظروف الحالية[1] .

ولو أن الأوكسيجين الموجود على سطح الأرض انجذب مع الأوكسيجين ، الذى انجذب قبل ذلك فى الأرض ، لكان من المستحيل (الوجود الحيوانى الحسى) .

إن الأوكسيجين والهيدروجين وثانى أوكسيد الكربون ، وغازات الكربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ، تتركب معاً فتصبح عناصر عظيمة الأهمية لحياة الحيوانية ، وللأسس

(١) إذ أن أعضاء الجسم الإنسانى على فرض وجودها فى هذه الحالة لن تتمكن فى تلك الظروف من مواصلة عملها كعادتها اليوم فى الظروف المتاحة فعلا ، وذلك لاستحالة وجود الأنسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة فى ظل تلك الظروف ، لأنه كلما قل الأوكسجين قل النشاط الجسمانى والعقلى .

التى تقوم عليها الحياة الإنسانية ، وبناء عليه لا يوجد احتمال $\frac{١}{١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ أن تجتمع ، هذه الغازات فى تناسبها المطلوب ، وبجميع خصائصها اللازمة للحياة ، على كوكب معين ، بطريق الصدفة .

ولذلك يقول أحد كبار علماء الطبيعة :

«Science has no explanation to offer for the facts, and to say it is 'accidental' is to defy mathematics.»

« إن العلم لا يملك أى تفسير للحقائق ، والقول بأنها حدثت « اتفاقاً » إنما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات » .

إن هناك وقائع كثيرة جدا ، لا طريق لنا إلى فهمها أو تفسيرها ، إلا إذا سلمنا بأن للعقل يداً عايا فى إحداثها ..

فمن الخصائص المهمة التى توجد فى الماء : أن كثافة الثلج Density تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء ، فالماء إذن مادة معلومة ، تقل كثافتها بعد التجمد ، ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة ؛ إذ يترتب على هذه الخاصة أن الثلج يطفو على سطح الماء ، ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك ، لكان الماء كله قد تجمد فى البحار ، والأنهار ، والخزنات المائية ؛ إن الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذى تحته ، كما تبقى حرارته دون درجة التجمد ، فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة . فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصة الثلج هذه لعانى سكان الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب ، الناجمة عن عدم ذوبان الثلج .

* * *

لقد أصاب مرض الإندوثيا Endothia فى أوائل القرن العشرين ، أشجار (شاه بلوط) الثمينة فى غابات أمريكا ، وانتشر بسرعة فائقة ، فقال بعض من رأى تلك المواضع الخربة الكبيرة فى « مظلة الغابات » : إنها لن تمتلئ أبداً ! !

ولم يكن أى نوع من الأشجار — حتى ذلك الحين — قد انتزع هذا الامتياز الذى كان خاصاً بهذا النوع من أشجار البلوط ، ذات الأخشاب الثمينة الغالية ، حتى كان يلقب : « ملك أشجار الغابات الأمريكية » ، قبل وصول وباء الإندوثيا من آسيا سنة ١٩٠٠ م تقريبا .

أما الآن ، فلا توجد هناك أية أثار لشاه بلوط ، ذلك الشجر العظيم ، فى الغابات الأمريكية .

ولكن سرعان ما امتلأت تلك المواضع فى غابات أمريكا بنوع آخر من الأشجار ، يسمى : « التيوليب » ، كانت لا تحتل من الغابات إلا حيزاً صغيراً ، ولم تكن مزدهرة .

لقد انتهزت أشجار « التيوليب » هذه الفرصة ، فازدهرت وحلت محل شاه بلوط . واليوم لايتذكر أى تاجر أخشاب أمريكى وجود أشجار شاه بلوط ، فقد حلت محلها أشجار « التيوليب » ، التى تتضخم كل سنة بنسبة بوصة واحدة فى الجذع ، وترتفع ست بوصات فى الفروع والأغصان ، كما تعطى خشباً ممتازاً يستعمل فى جميع الصناعات الدقيقة .

* * *

ومن الأحداث العلمية الهامة التى وقعت فى هذا القرن ما حدث فى استراليا .. لقد زرعوا نوعا خاصا من « الصبار » فى مزارعها لكى يحميها ، ولم يكن فى استراليا أى نوع من الدودة يعادى ويأكل هذا النبات ذا الشوك ، فأخذ ينتشر انتشارا رهيبا ومروعا ، حتى استولى على منطقة توازى مساحه جزر بريطانيا كلها ، لقد هاجم الصبار القرى والمدن ، وخرب المزارع والحقول ، حتى استحالت الزراعة ، ولم يتمكنوا من استئصاله بأية طريقة لقد أصبح جيشا جباراً ، يزحف لكى يسيطر على استراليا كلها ، وهى لا تجد ما تقاوم به ؛ واستمرت هذه الحال ، حتى خرج علماء الحشرات ، يبحثون عن دودة تأكل الصبار . فاكتشفوا دودة لا تعيش إلا عليه ، ولا غذاء لها سواه ، وقد كان نسلها يزيد بسرعة ، ولا عدو لها فى حشرات استراليا ، وسرعان ما تغلبت هذه الدودة الصغيرة على جيش الصبار العظيم ، وانتهت مصائب استراليا ! ! .

أيمكن أن يكون هذا القانون — « قانون الضبط والتوازن Checks and Balances قد حدث دون تخطيط واع ، هكذا صدفة واتفاقا ؟ !

* * *

السنن الرياضية المحكمة :

وفى الكون سنن رياضية محكمة ، بصورة تدعو إلى الدهشة والإكبار ، وحتى المادة الجامدة ، التى لا تملك شعورا ، لا يمكن أن تجرى على غير نظام ، وإنما هى تتبع قوانين صارمة معلومة ، ولفظ الماء ، أينما كان الماء على هذه الأرض الواسعة ، لن يكون معناه سوى مادة سائلة تحتوى على ١١,١٪ من الهيدروجين ، و ٨٨,٩٪ من الأوكسيجين . ولذلك يستطيع أى عالم يجرى عملية تسخين الماء فى معمله أن يقول بكل قطعية : إن درجة حرارة غليان الماء هى (١٠٠) ستى جراد ، دون أن يرى مقياس الحرارة ، ما دام ضغط الهواء ٧٦٠م.م. فإذا كان ضغط الهواء أقل ، فسوف نحتاج طاقة أقل لتوفير الحرارة التى تدفع جزئيات الماء . وتعطيها صورة البخار . وحينئذ سوف تنخفض درجة غليان الماء ، وعلى العكس ، لو كان ضغط الهواء أكثر من ٧٦٠ م.م. فستزداد درجة غليان ، بمقدار زيادة ضغط الهواء . لقد جربوا هذه العملية مراراً ، إلى أن تمكنوا من البت فى أمر الغليان ، حتى قبل تسخين الماء ، والتنبؤ بدرجة غليانه دون استعمال المقياس . ولو لم يكن هذا النظام والضبط

فى المادة وعمليات الطاقة ، لما وجد الإنسان أسسا يقيم عليها كشوفه ومنجزاته العلمية . ولولا هذا النظام والضبط لحكمت عالمنا الاتفاقات والصدف المحضة! ولكان من المستحيل على علماء الطبيعة أن يقولوا : إنه بمباشرة عمل ما فى حالة معينة تحصل نتيجة كذا ..

نظام العناصر والدورية :

إن أول شئ يشاهده الطالب فى معمل الكيمياء هو نظام العناصر ودوريتها ، وقد وضع العالم الروسى « مانڈليف » خريطة للعناصر الكيماوية ، بمقاديرها الجوهرية ، وسميت بـ « الخريطة الدورية » Periodic Chart ، وفى ذلك الوقت لم تكن كل العناصر قد تم كشفها ، حتى تملأ كل الخانات الموجودة فى الخريطة ، فتركها « مانڈليف » خالية ، إلى أن ملأها العلماء فيما بعد ، كما تخيلها العالم الروسى من قبل كشفها بسنين طويلة . وهذه الخريطة تحوى جميع العناصر الجوهرية بأرقام وقوائم مختلفة . ومعنى الأرقام الجوهرية هو العدد الخاص الذى يوجد فى مركز الذرة ، من الشحنات الكهربية الإيجابية « البروتون » ، وهذا العدد هو الفارق بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر ؛ فالهيدروجين ، الذى نعتبره أبسط عنصر يوجد فى مركز ذرته شحنة واحدة من الكهربية الإيجابية ، وكذلك توجد فى العنصر المسمى « هيليم » شحنتان ، وفى « ليثيم » ثلاث شحنات . وما كان لنا أن نتمكن من وضع خرائط العناصر المختلفة إلا بناء على قوانينها الرياضية العجيبة . وهل هناك مثال للضبط أفضل من أننا عثرنا على العنصر رقم (١٠١) بمجرد معرفة شحناته الكهربية الخمسة عشر ؟!!

ليس من الممكن أن يطلق العلماء على هذا النظام الرائع فى الطبيعة عبارة : « الصدفة الدورية » Periodic Chance ، وإنما هو « القانون الدورى » Periodic Law . وليس من الممكن أن تتنكر لما تطلبه هذه الضوابط والنظم من وجود إله ومهندس . . فإن عدم إيمان العلم الحديث بالإله إنكار فى الواقع لكشوفه كنتيجة حتمية !

• • •

« سوف يحدث كسوف للشمس يوم ١١ أغسطس سنة ١٩٩٩ م ، ويمكن رؤيته كاملا فى كورنفال[١] » ، ليس هذا مجرد تنبؤ قياسى ، ولكن علماء الفلك يؤمنون بأنه لابد من هذا الكسوف ، بناء على نظام دوران الشمس الموجود حالياً .

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا إلى السماء ، ونشاهد الكواكب والنجوم التى لا حصر لها ؛ إن هذه الكرات السماوية ، التى لا تزال معلقة فى الفضاء ، منذ قرون لا نعرف عدتها ، تدور فى الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين معلوم بحيث يمكننا معرفة جميع الوقائع

---

(١) بلدة فى جنوب غربى انجلترا – المراجع .

المستقبلة قبل وقوعها بقرون . إنه نظام لا مثيل له ، من الذرة إلى قطرة الماء ، إلى الكواكب السحيقة فى أجواز الفضاء . . نظام تستنبط على أساسه قوانين علمية !

إن نظرية « نيوتن » تفسر دوران الكرات الفلكية ، وبناء على هذه النظرية استطاع العالمان : آدمز ولافريير أن يتنبآ بوجود كوكب ، لم يكن معروفاً وجوده فى وقتهما ، وبناء على قولهما وجه مرصد برلين فى ليلة من ليالى سبتمبر سنة ١٨٤٦ تلسكوباً إلى الجهة التى أشارا إليها ، وسرعان ما وجد رجال المرصد الكوكب الذى نسميه اليوم (السيار نبتون) ، فى أسرة الشمس ! !

* * *

خصائص حكيمة :

إن أبعد الأمور عن القياس ، وأعظمها استحالة ، هو أن نؤمن بأن الكون وقطعيته الرياضية ، قد جاءا نتيجة « صدفة » !

فمن الخصائص الحكيمة فى هذا الكون كونه صالحاً لتصرفات الإنسان عند الضرورة ، ولنأخذ النتروجين على سبيل المثال . . فإن ٧٨٪ من النتروجين توجد فى كل هبة من الرياح ، وكذلك توجد فى أجزاء كيماوية أخرى ، ونسميها حينئذ « النتروجين المركب » ؛ وهذه كلها يستغلها النبات لكى يهيئ لنا الجزء النتروجينى فى غذائنا ؛ فلولا هذه العملية ، لهلك الحيوان والإنسان ، وكل ما يعتمد على النبات فى أكله جوعاً وفاقة ؛ فإن أى نبات غذائى لا ينمو بدون هذا التحليل الكيماوى .

إن هناك طريقتين لا ثالثة لهما ، لتحليل النتروجين فى الأرض ، والطريقة الأولى : هى « العملية الجرثومية » ، وتقوم بأدائها الجراثيم التى تعيش فى جذور الشجرة تحت الأرض ، وهذه الجراثيم تأخذ النتروجين من الهواء ، وتصنع منه « النتروجين المركب » ، ويبقى هذا النتروجين تحت الأرض ، بعد الحصاد ، مع الجذور . وأما العملية الثانية التى تصنع النتروجين المركب فهى (الرعد) . . فكلما احتك الرعد فى الفضاء ، مزج شيئاً من الأوكسجين فى النتروجين ، ويصل هذا النتروجين المركب إلى الحقول عن طريق الأمطار التى تلى العملية ، والكمية التى تحصلها الحقول من هذا المركب بسهولة ، كل سنة ، هى ما يقرب من خمسة أرطال لكل « ايكر »[1] من الأرض ، وهى تساوى ثلاثمائة رطل من نترات الصوديوم[2] .

---

(١) مقياس إنجليزى لسطح الأرض ، وهو أقل من (فدان) المراجع .

(٢) Lyon, Buckman and Brady,
The Nature and Properties of Soils.

ولكن هذه الكمية من النتروجين المركب لا تكفى ، لأن الحقول التى تزرع لمدة طويلة ، ينفذ ما فيها منه . ولذلك نرى الزراع يحولون المواسم الزراعية من حقل لآخر ، بعد وقت معلوم . وأعجب ما حدث فى هذا القرن – عندما ضاقت الأرض بما رحبت على سكانها ، وقل النتروجين لكثرة الزراعة ، وخافت الإنسانية من القحط والفاقة – اكتشافنا فى هذه المرحلة الخطيرة « طريقا ثالثة » لاستمداد النتروجين من الهواء ، وكانت الجهود الأولى ، التى بذلت فى هذا الصدد ، أنهم جربوا عملية خلق رعد صناعى فى الفضاء باستعمال آلات قوتها ٣,٠٠٠,٠٠٠ حصان ؛ غير أنهم لم ينجحوا إلا فى صناعة كمية ضئيلة من النتروجين المركب . وتقدم الإنسان بهذه التجارب ، حتى كشف الطريق الثالثة ؛ وهى استخدام الهواء فى صناعة النتروجين المركب ، فى صورة (السماد) . . وهكذا استطاع أن يهيئ لغذائه جزءه الضرورى ، الذى لولاه لهلك جوعاً . وهذا حدث عجيب فى تاريخ الأرض ؛ فإن الإنسان كشف للمرة الأولى فى تاريخه حلا لأزمة الغذاء ، وابتعدت أشباح الكارثة عن سكان الأرض ، حين كان من المستحيل أن يتجنبوها !!

* * *

إن هناك أموراً كثيرة تؤكد وجود الحكمة والروح فى الكون ، وكل ما لدينا من علم يؤكد لنا أن ما قد كشف أقل بكثير مما لم نستطع حتى الآن الكشف عنه ! وبرغم ذلك فإن ما كشفه الإنسان كثير جداً ، حتى إننا لو أردنا فهرسة عناوين هذه العلوم ، فسنحتاج إلى سفر ضخم جداً ، بالنسبة إلى هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ ، وسوف يبقى بعد ذلك أيضاً الكثير منها دون فهرسة . .

إن كل ما يمكن للسان الإنسانى أن يلفظه عن آلاء الله وآياته سوف يكون غاية فى النقص ، فهما فصلناها وأسهبنا فى تفسيرها ، فسنخرج آخر الأمر مقتنعين بأننا لم نحط بها ، وإنما تناولنا منها « بعض الشئ » .

والحق أنه لو قدر أن تنكشف للإنسان جميع العلوم الكونية ، ثم يجلس سكان المعمورة ، وقد هيئت لكل فرد منهم جميع الوسائل ، فى أكمل صورها ، فإن هؤلاء جميعاً لن يستطيعوا تدوينها أبداً . . أليس هذا هو مصداق قوله تعالى :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله » : وقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »[1] !!

---

(١) لقمان / ٢٧ والكهف / ١٠٩ .

إن كل من أتيحت له الفرصة كى يطالع صفحة من هذا الكون ، سيعترف مصدقاً أنه لا مبالغة فى هذه الكلمات الإلهية ، وإنما هى تعبير بسيط عن الحقائق الموجودة فعلا .

• • •

صدفة أم عمليات حكيمة ؟

إن معارضى الدين يسلمون بكل ما طرحناه فى الصفحات الماضية من الأنظمة العجيبة ، والحكمة غير العادية ، والروح التى تسرى فى الكون ، ولكنهم يفسرونها بطريقة أخرى ؛ إنهم عاجزون عن أن يجدوا فيها رمزاً أو إشارة لمنظم ومدبر . . فإذا بهم يرون أن كل هذا جاء نتيجة « صدفة محضة » .

واستمع إلى قول « هكسلى » :

« لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون ، الموجود الآن ، نتيجة لعمليات عمياء ، ظلت تدور فى « المادة » ، لبلايين السنين(١) » .

إن أى كلام من هذا القبيل « لغو مثير » ، بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ؛ فإن جميع علومنا تجهل — إلى يوم الناس هذا — أية صدفة أنتجت واقعاً عظيما ذا روح عجيبة ، فى روعة الكون ، فنحن نعرف بعض الصدف ، وما ينشأ عنها من آثار ، فعندما تهب الرياح تصل « حبوب اللقاح » من وردة حمراء إلى وردة بيضاء ، فتأتى بوردة صفراء . . هذه صدفة لا تفسر قضيتنا إلا تفسيراً جزئياً استثنائياً . فإن وجود الوردة فى الأرض بهذا التسلسل ، ثم ارتباطها المدهش مع نظام الكون ، لا يمكن تفسيره بهبة رياح صدفة . إنها تأتى بوردة صفراء ولكنها لاتأتى بالوردة نفسها ! إن الحقيقة الجزئية الاستثنائية التى توجد فى مصطلح « قانون الصدفة » باطلة كل البطلان ، إذا ما أردنا تفسير الكون بها .

يقول البروفيسور ايدوين كونكلين :

« إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة « حادث اتفاقى » شبيه فى مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدفى يقع فى مطبعة(٢) » .

وقد قيل : إن تفسير الكون بوساطة (قانون الصدفة) ليس « بكلام فارغ » . بل هو

---

(١) The Mysterious Universe, pp. 3-4.

(٢) The Evidence of God, p. 174.

كما يعتقد السير جيمس جينز ينطبق على « قوانين الصدفة الرياضية المحضة »
(١) Purely Mathematical Laws of Chance

ويقول أحد العلماء الأمريكيين :

« إن نظرية الصدفة ليست افتراضاً ، وإنما هي نظرية رياضية عليا ، وهي تطلق على الأمور التي لاتتوفر في بحثها معلومات قطعية ، وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز من الباطل والحق ، وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول إلى نتيجة ، هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة[٢] » .

• • •

ولو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون ، وافترضنا أيضاً أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها (ولست أجد أساساً لأقيم عليه هذه الافتراضات) ففي تلك الحال أيضاً لن نظفر بتفسير الكون ، فإن « صدفة » أخرى تحول دون طريقنا . . فلسوء حظنا : أن الرياضيات التي تعطينا نكتة « الصدفة » الثمينة ، هي نفسها التي تنفي أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي ، بفعل قانون الصدفة .

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه ، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين في أي حال من الأحوال ، لتسويغ إيجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضي .

ويمكننا أن نفهم شيئاً عن قانون الصدفة من المثال التالي :

« لو تناولت عشرة دراهم ، وكتبت عليها الأعداد ، من ١ إلى ١٠ ، ثم رميتها في جيبك ، وخلطتها جيداً ، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي ، بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى . . فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه[٣] في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة ؛ وإمكان أن تتناول الدرهمين (١ ، ٢) بالترتيب ، واحد في المائة ، وإمكان أن تخرج الدراهم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف . . حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات !! » .

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير « كريسي موريسن » ، ثم استطرد قائلا :

---

(١) Mysterious Universe, p. 3.

(٢) The Evidence of God, p. 23.

(٣) Man Does not Stand Alone p. 17.

« إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه ، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد « الوقائع » بنسبة كبيرة جداً فى مقابل « الصدفة »(١) .

* * *

ولنتأمل الآن فى أمر هذا الكون ؛ فلو كان كل هذا بالصدفة والاتفاق ، فكم من الزمان استغرق تكوينه بناء على قانون الصدفة الرياضى ؟

إن الأجسام الحية تتركب من « خلايا حية » ، وهذه (الخلية) مركب صغير جدا ، ومعقد غاية التعقيد، وهى تدرس تحت علم خاص يسمى « علم الخلايا » Cytology . ومن الأجزاء التى تحتوى عليها هذه الخلايا : البروتين ، وهو مركب كيماوى من خمسة عناصر ، هى : الكربون ، والهيدروجين ، والنتروجين ، والأوكسيجين ، والكبريت .. ويشمل الجزئ البروتينى الواحد أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر ! !

وفى الكون أكثر من مائة عنصر كيماوى ، كلها منتشرة فى أرجائه ، فأية نسبة فى تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون فى صالح قانون « الصدفة » ؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر — من هذا العدد الكبير — لإيجاد « الجزئ البروتينى » بصدفة واتفاق محض ؟ ! إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضى ذلك القدر الهائل من (المادة) الذى سنحتاجه ، لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام ؛ كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المدة السحيقة التى سوف تستغرقها هذه العملية .

لقد حاول رياضى سويسرى شهير ، هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواى) أن يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضة .. فانتهى فى أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) فى وقوع الحادث الاتفاق — الذى من شأنه أن يؤدى إلى خلق كون ، إذا ما توفرت المادة — هو واحد على 10^{160} (أى : ١٠ × ١٠ مائة وستين مرة) . وبعبارة أخرى : نضيف مائة وستين صفراً إلى جانب عشرة ! ! وهو عدد هائل لا يمكن وصفه فى اللغة .

إن إمكان حدوث الجزئ البروتينى عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن فى سائر الكون ، حتى يمكن تحريكها وضخها ، وأما المدة التى يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية ، فهى أكثر من 10^{243} سنة(٢) !

إن جزئ البروتين يتكون من « سلاسل » طويلة من الأحماض الأمينية Amino-Acids وأخطر ما فى هذه العملية هو الطريقة التى تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض ، فإنها لو اجتمعت فى صورة غير صحيحة لأصبحت سما قاتلا ، بدل أن تصبح موجدة للحياة .

---

(١) Man Does not Stand Alone, p. 17.

(٢) أى : مائتان وثلاثة وأربعون صفراً أمام عشر سنين — المترجم .

لقد توصل البروفيسور ج.ب. ليثز G.B. Leathes إلى أنه يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من $١٠^{٤٨}$ صورة وطريقة . وهو يقول : إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل — بمحض الصدفة — فى صورة مخصوصة من هذه الصور التى لا حصر لها ، حتى يوجد الجزئ البروتينى الذى يحتوى أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التى سبق ذكرها .

ولابد أن يكون واضحا للقارئ أن القول بالإمكان فى قانون الصدفة الرياضى لا يعنى أنه لابد من وقوع الحادث الذى ننتظره ، بعد تمام العمليات السابق ذكرها ، فى تلك المدة السحيقة ؛ وإنما معناه أن حدوثه فى أثناء تلك المدة محتمل ، لا بالضرورة ، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شئ ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد !

• • •

هذا الجزئ البروتينى ذو وجود « كيماوى » ، لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءاً من الخلية ، فهنا تبدأ الحياة ، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال فى بحثنا : من أين تأتى الحرارة ، عندما يندمج الجزئ بالخلية ؟ ... ولا جواب عن هذا السؤال فى أسفار المعارضين الملحدين .

إن من الواضح الجلي أن التفسير الذى يزعمه هؤلاء المعارضون ، متسترين وراء قانون الصدفة الرياضى ، لا ينطبق على الخلية نفسها ، وإنما على جزء صغير منها ؛ هو الجزئ البروتينى وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش ، وفى جسد كل فرد منا ، ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا ! !

لقد أعد العالم الفرنسى « الكونت دى نواى » Le Cotme de Nouy بحثا وافياً حول هذا الموضوع ، وخلاصة البحث : أن مقادير (الوقت ، وكمية المادة ، والفضاء اللانهائى) التى يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هى أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن ، وأكثر من الوقت الذى استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض ، وهو يرى : أن حجم هذه المقادير الذى سنحتاج إليه فى عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه فى حدود العقل الذى يتمتع به الإنسان المعاصر ، فلأجل وقوع حادث — على وجه الصدفة — من النوع الذى ندعيه ، سوف نحتاج كونا يسير الضوء فى دائرته $١٠^{٨٢}$ سنة ضوئية (أى : ٨٢ صفراً إلى جانب عشرة سنين ضوئية ! !) وهذا الحجم أكبر بكثير جداً من حجم الضوء الموجود فعلا فى كوننا الحالى ؛ فإن ضوء أبعد مجموعة للنجوم فى الكون يصل إلينا فى بضعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط .. وبناءاً على هذا ، فإن فكرة أينشتين عن اتساع هذا الكون لا تكفى أبدا لهذه العملية المفترضة .

أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها ، فاننا سوف نحرك المادة المفترضة فى الكون المفترض ، بسرعة خمسمائة (تريليون) حركة ، فى الثانية الواحدة ، لمدة $١٠^{٢٤٣}$ بليون سنة

(٢٤٣ صفراً أمام عشرة بلايين) ، حتى يتسنى لنا حدوث إمكان فى إيجاد جزئ بروتينى يمنح الحياة .

ويقول « دى نواى » فى هذا الصدد :

« لا بد ألا ننسى أن الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين ، وأن الحياة — فى أى صورة من الصور — لم توجد إلا قبل بليون سنة ، عندما بردت الأرض[1] » .

هذا ، وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه ، وأثبتت الدراسة فى هذا الموضوع أن كوننا موجود منذ ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة .. وهى مدة قصيرة جداً ، ولا تكفى على أى حال من الأحوال لخلق إمكان ، يوجد فيه الجزئ البروتينى ، بناء على قانون الصدفة الرياضى .

وأما ما يتعلق بأرضنا التى ظهرت عليها الحياة ، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة ، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء ، جزء من الشمس ، انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر ، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور فى الفضاء ، شعلة من نار رهيبة ، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حينئذ لشدة الحرارة ، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ، ثم تجمدت وتماسكت ، حتى ظهر إمكان بدء الحياة على سطحها .

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق ، وأحسن طريقة عرفناها لهذه الدراسة ، هى التى توصلنا إليها بعد كشف «العناصر المشعة» Radio-Active Elements ، فإن الذرات الكهربية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ، وهذا «التحلل» Disintegration يقلل الذرات الكهربية فى هذه العناصر ، لتصبح تلقائيا عناصر غير مشعة عبر الزمان ، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة ، وهو يتحول إلى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربية ، وهذه النسبة فى الانتشار لا تتغير تحت أى ظرف ، من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط ، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير .

إن قطع اليورانيوم توجد فى كثير من الهضبات والجبال ، ومما لاشك فيه أن هذا اليورانيوم هو جزء من ذلك الجبل ، منذ أن تجمد فى شكله الأخير ، عند تجميد الأرض .. وعلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعا من الرصاص ، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم . والسبب فى هذا أن الرصاص الذى يتكون من تحلل اليورانيوم يكون أقل وزنا من الرصاص العادى ، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما إذا

---

(١) Human Destiny, pp. 30-36

كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم ، أو أنها قطعة رصاص عادى ، ونحن هنا نستطيع أن نحتسب المدة التى استغرقتها عملية تحلل اليورانيوم بدقة ، فهو يوجد فى الجبل من أول يوم تجمد فيه ، ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه !

لقد أثبتت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال ، التى تعتبر – علميا – أقدم جبال الأرض ، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفا أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ، ولكن التجارب العلمية تنفى بشدة هذه الظنون الشاذة ، ويذهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن « المعدل المعقول » لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة[1] !

• • •

ولنتأمل الآن ، بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح ، تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين ، حتى يتسنى مجرد إمكان لحدوث (جزئ بروتينى) فيها بالصدفة ! فكيف إذن جاءت فى هذه المدة القصيرة فى شكل مليون من أنواع الحيوانات ، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ألف نوع من النبات ؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض ، فى كل مكان ؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذى نسميه « الإنسان » ؟ ولا أدرى كيف نجرؤ على مثل هذه الاعتقادات ، فى حين أننا نعرف جيداً أن نظرية النشوء والارتقاء تقوم على أساس « تغيرات صدفية محضة » ؟ ! وأما هذه التغيرات ، فقد حسبها الرياضى « باتو » Patau ، وانتهى إلى أن اكتمال « تغير جديد » فى جنس ما ، قد يستغرق مليونا من الأجيال[2] :

فلنفكر فى أمر (الكلب) الذى يزعمون أنه جد (الحصان) الأعلى ، كم من المدة ، على قول الرياضى باتو سوف يستغرقها الكلب ، حتى يصبح حصانا ؟ !

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكى مارلين ب . كريدر :

« إن الإمكان الرياضى فى توفر العلل اللازمة للخلق – عن طريق الصدفة – فى نسبها الصحيحة ، هو ما يقرب من « لا شئ » [3] .

• • •

لقد أطلت فى هذا البحث حتى نتبين مدى مخافة فكرة الخلق بالصدفة ، وبطلانها ، ولست – فى الحق – أشك فى أنه يستحيل وجود الجزئ البروتينى والذرة عن الصدفة ، كما لا يمكن أن يكون عقلك هذا – الذى يتأمل فى أسرار الكون وخفاياه – من ثمار الخلق

---

(١) JWN Sullivan, Limitations of Science, p. 78.

(٢) The Evidence of God, p. 117.

(٣) Ibid, p. 67.

الصدف ، مهما بالغنا فى افتراضاتنا عن المدة الطويلة التى استغرقتها عملية المادة فى الكون . ونظرية الخلق هذه ليست مستحيلة فى ضوء قانون الصدفة الرياضى فحسب ، وإنما هى لا تتمتع بأى وزن منطقى فى نفس الوقت .

وأى كلام من هذا القبيل سخيف وملئ بالصلافة .. ومثاله كمن يزعم أن سقوط كوب مملوء بالماء أو بالقهوة سوف يرسم خريطة العالم على الأرض ! ! لا مانع من أن أسأل هذا الرجل : من أين جاء بهذا الفرش الأرضى ، والجاذبية ، والماء ، والكوب ، حتى يقع هذا الاتفاق الغريب ؟ !

• • •

ولقد ولغ عالم البيولوجيا « هيكل » Haeckel فى زعمه حين قال :

« إيتونى بالهواء ، وبالماء وبالأجزاء الكيماوية ، وبالوقت ، وسأخلق الإنسان » . ولكن « هيكل » نسى أو تجاهل فى هذه المقالة : أنه بتقريره احتياجه إلى المادة والأحوال المادية ، ينفى زعمه من تلقاء نفسه !

يقول الأستاذ « كريسى موريسن »[1] فى هذا الصدد :

« إن هيكل يتجاهل فى دعواه : الجينات الوراثية ، ومسألة الحياة نفسها ، فإن أول شئ سيحتاج إليه عند خلق الإنسان ، هو الذرات التى لا سبيل إلى مشاهدتها ، ثم سيخلق (الجينات) ، أو حملة الاستعدادات الوراثية ، بعد ترتيب هذه الذرات ، حتى يعطيها ثوب الحياة .. ولكن إمكان الخلق فى هذه المحاولة بعد كل هذا ، لا يعدو واحداً على عدة بلايين ، ولو افترضنا أن « هيكل » نجح فى محاولته ، فإنه لن يسميها « صدفة » ، بل سوف يقررها ، ويعدها نتيجة لعبقريته »[2] .

• • •

ولنختم هذا البحث بقول عالم الطبيعة الأمريكى « جورج إيرل ديفيس » :

(لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله .. وهكذا ننتهى إلى التسليم بوجود (الإله) ،ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيبا : إلها غيبيا وماديا فى آن واحد ! ! إننى أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ومديره ومدبره ، بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات[3] » .

---

(١) رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك (سابقا) – المترجم .

(٢) Man Does not Stand Alone, p. 87.

(٣) The Evidence of God, p. 71.

الباب الخامس

دليل الآخرة

من أهم الحقائق التي يدعونا الدين إلى الإيمان بها : فكرة الآخرة . والمراد بها : أن هناك عالما آخر غير عالمنا الحاضر ؛ وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين ؛ وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء ، وجد فيه الإنسان لأجل معلوم ؛ وأن الله سوف ينهي هذا العالم حين يحين أجله ، لبناء العالم الآخر ، على طراز جديد ؛ وأن الناس سوف يبعثون مرة أخرى ؛ وسوف تعرض أعمالهم — خيراً أو شر — على محكمة الله ، الذي يجزى كل انسان بما عمل في الحياة الدنيا .

أهذه النظرية صحيحة ؟ أم هي باطلة ؟ وهل هناك إمكان لهذه الآخرة ؟ .. سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية .

• • •

أولا : إمكان الآخرة

ليكن الجانب الأول من هذا العرض ، هو البحث عن « إمكان » وقوع الآخرة . فهل هنالك وقائع وإشارات تصدق هذه الدعوى ؟

إن فكرة (الآخرة) تقتضى — أول ما تقتضى — ألا يكون الإنسان والكون ، في شكلهما الحالي أبديين ، وقد علمنا في الصفحات الماضية — بما لا يدع مجالا للشك — أن أبدية الكون والإنسان مستحيلة ، وأيقنا ، يقيناً لايتزعزع ، بأن الإنسان يموت ، وأن الكون سينتهى طبقا لقانون «الطاقة المتاحة» . ولست أدرى إذا ماكان هنا طريق للنجاة من هذه النهاية المروعة .

• • •

أ — مسألة الموت :

إن الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني — الآخرة — يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالما أبديا لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيراً عن أسباب « الموت » ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا إخفاقا

ذريعاً ، وكلما بحثوا فى هذا الموضوع ، رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وأنه لا مناص منه .

« لماذا الموت ؟ » .. هناك ما يقرب من مائتى إجابة عن هذا السؤال الخطير ، الذى كثيراً ما يطرح فى المجالس العلمية ، منها :

(فقدان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عملية الأجزاء التركيبية) ، (تجمد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سموم « بكتريا » الأمعاء فى الجسم) .. وما إلى ذلك من الإجابات التى تتردد كثيراً حول ظاهرة الموت .

إن القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل . . فإن الآلات الحديدية والأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضا تبلى وتفقد فاعليتها كالجلود التى نلبسها فى موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنسانى تؤكد : أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال .. وأن أقرب شئ يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذى لا يزال يجرى منذ آلاف السنين على ظهر الأرض فمن ذا الذى يستطيع القول بأن النهر الجارى يبلى ويهن ويعجز ؟ ! بناء على هذا الأساس يعتقد الدكتور « لنس بالنج[1] » أن الإنسان أبدى ، إلى حد كبير ، نظريا ؛ فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائيا ! وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت ؛ ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحير العلماء .

إن جسمنا هذا فى تجدد دائم ، وإن المواد الزلالية ، التى توجد فى خلايا دمائنا ، تتلف كذلك ثم تتجدد ؛ ومثلها جميع خلايا الجسم ، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ؛ اللهم إلا الخلايا العصبية . وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجدداً كليا خلال ما يقرب من أربع سنين ، كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنسانى فى بضع سنين . ونخرج من هذا بأن الجسم الإنسانى ليس كهيكل ، وإنما هو كالنهر الجارى ؛ أى أنه « عمل مستمر » . ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هى وهن الجسم وفقده لقوته ، فإن الأشياء التى فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لأن نجعلها سبب الموت ، فسبب الموت موجود فى مكان آخر ، وليس فى الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب .

---

(١) وهو حائز على جائزة نوبل للعلـــوم .

ويدعى بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هى سبب الموت ، لأنها تبقى فى الجسم إلى آخر الحياة ولا تتجدد . ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبى هو نقطة الضعف فى الجسم الإنسانى ، فمن الممكن أن نزعم أن أى جسم خال من (النظام العصبى) لابد أن يحيا عمراً أطول من الأجسام ذات النظام العصبى ، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ، فإن هذا النظام لا يوجد مثلا فى الأشجار ، وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التى لا يوجد بها هذا النظام العصبى لا تعيش أكثر من سنة ، وليس فى كائن « الأميبا » جهاز عصبى ، وهى مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة ، ومقتضى هذا التفسير أيضا أن تلك الحيوانات التى تعد من (نسل أعلى) ، والتى تتمتع بنظام عصبى أكمل وأجود ، لابد أن تعيش مدة أطول من تلك التى هى أحقر نسلا وأضعف نظاما . ولكن الحقائق لا تؤيدنا فى هذا أيضا ؛ فإن السلحفاة والتمساح وسمكة « باتيك » أطول عمراً من أى حيوان آخر ، وكلها من النوع الثانى — حقير النسل ، وضعيف النظام .

* * *

لقد أخفقت تماما تلك البحوث التى استهدفت أن تجعل من الموت أمرا غير يقينى ، يمكن ألا يقع ، فبقى الاحتمال ، الذى أكدته الأزمان ، وهو أن يموت الإنسان فى أى عمر ، وفى أى زمن ، ولم نستطع العثور على أى إمكان يمنع الموت ، رغم جميع الجهود .

لقد بحث الدكتور « الكسيس كيرل » هذه المشكلة فى مقال طويل بعنوان « الزمن الداخلى » ، فذكر الجهود المخفقة التى بذلت فى هذا الصدد ، ثم قال :

« إن الإنسان لن يسأم أبدا من البحث عن (الخلود) والسعى وراءه ، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد ، فتركيبه الجسمانى يخضع لقوانين معينة ، إنه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجى) لأعضاء الجسد ، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة ، ولكنه لن يتغلب على الموت أبدا[1] » .

(ب) ظواهر وأمثلة طبيعية :

فى ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة ، فنحن على علم بالقيامات الصغرى التى تقع على سطح الأرض ، وهى التى ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع ، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها .

إن الظاهرة الأولى التى تنذرنا بإمكان القيامة هى الزلازل . . . فبطن الأرض يحتوى على مادة شديدة الحرارة ، نشاهدها عندما ينفجر البركان ، وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق ، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة ، وما نحس به من الهزات الأرضية ، التى

---

(١) Man the Unknown, p. 175.

نسميها « الزلازل » إنهـــا لا تزال كلمة رهيبة فى حياة الإنسان المعاصر ، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا ، كما كانت رهيبة فى حياة الإنسان القديم. هذه الزلازل هى حملة الطبيعة ضد الإنسان ، الذى لا يملك إزاءها شيئا ، فالخيار كله فى يد الفريق الأول . إن الإنسان لا يملك شيئا يقاوم به الزلازل ، فهى نذير يذكره دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية ، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية رقيقة ، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو متراً : وهذه القشرة ليست ، بالنسبة إلى الكرة الأرضية ، إلا بمثابة القشرة من ثمرة التفاح .

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف) : « إن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء ، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان ، وبكلمة أخرى : نحن واقفون على ظهر لغم « ديناميت» عظيم ، ومن الممكن أن ينفجر فى أى وقت ، ليدمر النظـــام الأرضى بأكمله(١) » .

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحى الأرض ، ولا تخلـــو الجرائد أى صباح من أخبارها، ولكن يكثر وقوعها فى الأماكن التى توجد بها البراكين لاعتبارات جغـــرافية . وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسى) الصينى ، الذى وقع عام ١٥٥٦ م . ولقى أكثر من ٨,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مصرعهم فى هذه الكارثة . وقد وقع زلزال فى « لشبونة » عاصمة البرتغال عام ١٧٥٥م ، فدمر المدينة كلها ، وأباد ثلاثين ألفا من الناس فى ست دقائق . وقد قيل : إن هذا الزلزال هز ربع أوروبا . ومن هـــذا النوع من الزلازل ما وقع فى ولاية (آسام (الهندية عام ١٨٩٧ م ، وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى فى التاريخ ، فقد أحدث دماراً وخرابا عظيمين فى منطقة كبيرة من شمالى الهند ، كما غير اتجاه النبر العملاق (برهـــام بوترا) ، وطفرت هضبة (إيفرست) بجبال الهملايا ، فارتفعت مائة قدم !

إن هذه الزلازل (قيامة) على نطاق غير واسع... فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف ، ودويها الرهيب ، وعندما تتساقط الجدران،وسقف الأبنية المسلحة الفخمة،حتى كأنها أوراق « الكوتشينة » ، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها،وأسفلها أعلاها، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى فى ثوان معدودة،وعندما تسير طوابين النعوش ، وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر — فتلكم هى قيامة الزلزال .

وفى تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة ، فإن الزلازل لا تقرع أبواب المدن إلا بغتة ،دون سابق إذن أو إنذار،والبلية كل البلية فى أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل ، ولا بموعد وقوعها ، وهى فى نفسها تنبئ عن قيامة كبرى، سوف تفجؤنا غداة يوم على غرة منا،إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها ، كما يشاء .

---

(١) Biography of the Earth, p. 62.

وهذه هى حال الفضاء الخارجى ؛ فالكون فضاء لا حدود له ، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها ، هى (السيارات والنجوم) ، ومثالها كملايين الخذاريف[1] التى تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها . . وهذا الدوران يمكن أن يتحول فى أى يوم إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره . وفى تلك اللحظة الرهيبة يكون ما فى الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية ، وهى تواصل رحلتها فى الجو ، ثم تصطدم كلها مرة واحدة ! ! إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقاً ، بل الغريب حقاً هو عدم وقوع هذا الاصطدام ؛ فدراسة علم الفلك تؤكد إمكان اصطدام الأجرام السماوية ، والحديث عن وجود النظام الشمسى يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديماً ؛ فإذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيداً ذلك (الإمكان) الذى نحن بصدده . . فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه . . « القيامة » .

إن فكرة (الآخرة) التى تقرر أن نظام الكون الموجود حالياً سوف يدمر يوماً ، لا تعنى سوى أن واقع الكون ، الذى نشاهده فى صورة صغيرة أولية ، سوف يتجلى يوماً فى صورة نهائية كبرى . فالقيامة حقيقة معلومة فى أعماقنا ، ونحن اليوم نعرفها فى حد (الإمكان) ، ولسوف نلقاها غداً فى صورة الواقع .

• • •

(جـ) الحياة بعد الموت :

المسألة الثانية فى هذا البحث هى مسألة الحياة بعد الموت .

« هل هناك حياة بعد الموت ؟؟ » هذا سؤال يتردد دائماً فى العقل الحديث ، ثم يستطرد قائلا : « لا . . . لا حياة بعد الموت ، لأن الحياة التى أعرفها لا توجد إلا فى ظروف معينة من تركيب العناصر المادية . وهذا التركيب الكيماوى لا يوجد بعد الموت ، إذن : فلا حياة بعد الموت » .

ويعتقد « ت.ر.مايلز » بأن : « البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم يضيف قائلا :

« إنها قضية قوية عندى أن الإنسان يبقى حياً بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن — لفظياً — أن تكون حقيقة ، وهى قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية فى طريقنا هى أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الإجابة القطعية عن هذا السؤال إلا بعد الموت ، ولذلك يمكننا أن نقيس » .

---

(١) جمع خذروف ، وهى لعبة من الخشب ، مخروطية الشكل ، يسميها الأطفال (النحلة) (المراجع)

وحيث إن قياسه لا يصدق هذه القضية ، فهى ليست بحقيقة لفظية . وقياسه كما يلى :

« بناء على علم الأعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجى ، والاتصال به ، إلا عندما يعمل الذهن الإنسانى فى حالته العادية ، وأما بعد الموت ، فهذا الإدراك مستحيل ، نظراً إلى بعثرة تركيب النظام الذهنى[1] » .

ولكن هناك قياسات أخرى أقوى من هذا القياس ؛ وهى تؤكد أن بعثرة الذرات المادية فى الجسم الإنسانى لا تقضى على الحياة ؛ فإن « الحياة » شئ آخر ، وهى مستقلة بذاتها ، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها .

ومن المعلوم أن الجسم الإنسانى يتألف من أجزاء (ذرات) ، تسمى « الخلايا » ، ومفردها : خلية (cell) . وهى ذرات صغيرة جداً ومعقدة ، يزيد عددها فى الجسم الإنسانى العادى على ٢٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خلية . ويبدو أن هذه الخلايا مثل الطوب الصغير ، ينبنى منه هيكل أجسامنا . ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطينى شاسع جداً . فطوب الطين الذى يستخدم فى العمارات يبقى كما هو — نفس الطوب الذى صنع فى المصنع ، واستخدم فى البناء للمرة الأولى . بينما يتغير طوب هياكلنا فى كل دقيقة ، بل فى كل ثانية ، إن خلايا أجسامنا تنقص بسرعة ، كالآلات التى تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء ، فهو يهيئ لجسم قوالب الطوب التى يحتاج إليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها[2] . فالجسم الإنسانى يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة ، وهو كالنهر الجارى المملوء دائماً بالمياه ، لا يمكن أن نجد به نفس الماء الذى كان يجرى فيه منذ برهة ، لأنه لا يستقر ، فالنهر يغير نفسه بنفسه دائماً ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذى وجد منذ زمن طويل ، ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجارى ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى إنه يأتى وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة فى الجسم ، لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها . هذه العملية تتكرر فى الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ فى الكهولة . ولو حسبنا معدل التجدد فى هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين . إن عملية فناء الجسم المادى الظاهرى تستمر ، ولكن الإنسان فى الداخل لا يتغير ، بل يبقى كما كان : علمه ، وعاداته ، وحافظته ، وأمانيه ، وأفكاره ، تبقى كلها كما كانت . إنه يشعر فى جميع مراحل حياته بأنه هو « الإنسان

---

(١) Religion and Scientific Outlook, p. 206.

(٢) لم نشبه الخلية بالطوب إلا لشبه ظاهرى ، والحقيقة أن « الخلية » عملية معقدة للغاية ، وهى فى ذاتها جسم كامل ، ويبحث عنها فى علم الخلايا Cytology.

السابق » ، الذى وجد منذ عشرات السنين ، ولكنه لا يحس بأن شيئاً من أعضائه قد تغير ، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه .

ولو كان الإنسان يفنى بفناء الجسم ، لكان لازماً أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيداً أن هذا لا يحدث ؛ وهذا الواقع يؤكد أن « الإنسان » أو « الحياة الإنسانية » شئ آخر غير الجسم ، وهى باقية رغم تغير الجسم وفنائه ، **وهو كنهر مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة** ! وهذا هو الأمر الذى دعا عالماً أن يصف الإنسان : بشئ مستقل بذاته ، وباق غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة . فهو يعتقد :

« أن الشخصية هى عدم التغير فى عالم التغيرات » — «Personality is Changelessness in Change»

ولو كان الموت فناء « للإنسان » ، فمن الممكن أن نقول — بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوى الذى يجرى فى الجسم — إن الإنسان قد مات ، وإنه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته ! ومعناه أن الرجل الذى أراه فى الخمسين من عمره ، وهو يمشى فى الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات فى هذه الحياة القصيرة ؛ فإذا لم يمت هذا الإنسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات فى المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة ؟

إن بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : إن العقل ، أو الوجود الداخلى الذى نسميه « إنساناً » ، ليس بشئ آخر ، ولم يوجد إلا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجى ، وإن الأفكار والأمانى لا توجد خلال العمل المادى إلا كالحرارة التى توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !

إن الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السير جيمز : أن « الشعور » لا يوجد كوحدة **Entity** ، وإنما هو وظيفة **Function** ، وتفاعل وتنسيق **Process** . . وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) فى ذاته ليس إلا التفاعل والرد العصبى لما يحدث من حركة ونشاط فى العالم الخارجى . وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن إمكان الحياة بعد الموت ، نظراً لتحلل النظام الجسمانى ، ولأن المركز العصبى فى الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذى كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجى ؛ وهم يعتقدون بناءاً على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلى أو واقعى .

سوف أقول : إنه لو كانت هذه هى حقيقة الإنسان ، فلنجرب أن نخلق إنساناً حياً ذا شعور ، ونحن — اليوم — نعرف بكل وضوح جميع العناصر التى يتألف منها جسم الإنسان ، وهذه العناصر توجد فى الأرض وفى الفضاء الخارجى ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسمانى ، وعرفنا هيكله وأنسجته ، ولدينا قانون

مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساماً كجسم الإنسان ، بكل مواصفاتها ، فلنجرب – لو كان معارضوا الروح يصرون على حقيقة مبدئهم – ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام ، ولنضعها فى شتى الميادين ، فى بقعة الأرض الفسيحة ، ثم لننتظر ذلك الوقت الذى تمشى فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل « بناء على تأثيرات العالم الخارجى » ! ؟

* * *

فهذا عن إمكان بقاء الحياة بعد الموت .

ثانياً : ضرورة الآخرة :

لنفكر الآن فى الأسباب التى أقام الدين عليها دعوته إلى الإيمان بهذه النظرية : إن الحياة ، كما نتصور ، ليست « غدواً ورواحاً » ، كما يراها الفيلسوف الألمانى (نيتشه) ، والتى تمتلئ وتخلو كالساعة ، ولا هدف لها أكثر من ذلك . . إن الحياة « الآخرة » ذات هدف عظيم : هو المجازاة على أعمال الدنيا ، خيراً كانت أو شراً . وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جلياً حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة ، وبغير توقف . وللإنسان ثلاثة أبعاد ، يعرف من خلالها ، هى : نيته ، وقوله ، وعمله . وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها . فكل حرف يخرج عن لساننا ، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا – يسجل فى الأثير (الفضاء) ؛ ويمكن عرضه فى أى وقت من الأوقات بكل تفاصيله ، لنعرف – إذا شئنا – كل ما قاله ، أو فعله أى إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، من خير أو شر .

إن الأفكار تخطر على بالنا ، وسرعان ما ننساها ، ويبدو لنا أنها انتهت ، فلم يعد لها وجود ، ولكنا ، بعد فترة طويلة ، نراها رؤى خلال النوم ، أو نذهب نتكلم عنها فى حالات الهستريا أو الجنون ، دون أن ندرى شيئاً مما نقول . وهذه الوقائع تثبت قطعياً أن العقل أو الحافظة ليست تلك التى نشعر ونحس بها فحسب ، وإنما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها ، وهى ذات وجود مستقل ، وذات كيان قائم بنفسه .

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ فى شكلها الكامل ، ولسنا قادرين على محوها أبداً ، وأثبتت هذه التجارب أيضاً أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » ، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الإنسانية تبقى وراء الشعور ، يسميها فرويد : « ما تحت الشعور » ، أو « اللاشعور » . وهذه الأجزاء تشكل جانباً كبيراً من من شخصيتنا ، بل هى الجانب الأكبر منها ؛ ومثلها كمثل جبل من الجليد فى أعالى البحار ، أجزاؤه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه إلا الجز التاسع . وتلك هى ما نسميه : (تحت الشعور) ، الذى يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه ، أو ننتويه .

يقول (فرويد) فى محاضرته الحادية والثلاثين :

« إن قوانين المنطق ، بل أصول الأضداد أيضاً ، لا تحول دون عمل (اللاشعور) I D وإن الأمانى المتناقضة موجودة فيه جنباً إلى جنب ، دون أن تقضى واحدة منها على الأخرى ، ولا شئ فى اللاشعور يشبه أن يكون « رفضاً » لشئ من هذه المتناقضات . إننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأى فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم فى زمن محدد ، ولكن لا شئ فى اللاشعور يطابق الفكر الزمنى ، ولا يوجد فيه أى رمز لمضى الوقت وسريانه ، وهى حقيقة محيرة . ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة ، هى أن مضى الزمن لا يحدث أى تغيير فى العمل الذهنى ؛ إن الدوافع الحبيسة (**Conative impulses**) التى لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التى دفنت فى اللاشعور — تكون أزلية فى الحقيقة والواقع ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين ، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس[١] » .

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم ، ومعناها أن كل ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشر ، ينقش فى صفحة اللاشعور ، فلا يزول إلى الأبد ، ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحدثان ، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية — طوعاً أو كرهاً .

ولم يستطع (فرويد) أن يدرك ما يكمن خلف هذه العملية من أسباب وعلل ، وأية خدمة تؤديها فى مصنع الكون ؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة إلى التفكير والتأمل . ولكننا لو قارنا هذا الواقع مقروناً إلى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة ، إن هذا الواقع يؤكد بكل صراحة إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان فى حيازته ، عندما يبدأ حياته الأخرى ، فإن وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التى عاشها :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[٢] » .

* * *

(١) مسألة القول :

ولنتناول هنا مسألة « القول » : إن نظرية الآخرة تقول بأن الإنسان مسئول عن (أقواله) ، فجميع ما نلفظه من كلام ، حسناً كان أو قبيحاً ، حمداً أو سخطاً ؛ وسواء استعملنا اللسان فى إبلاغ رسالة الحق ، أو استعملناه فى إبلاغ رسالة الشيطان ، كل ذلك يحفظ فى سجل كامل : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[٣] » . وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة ليتم حساب الإنسان .

---

(١) New Introductory Lectures on Psycho-Analysis, London 1949, p. 99.

(٢) ق : ١٦ .

(٣) ق : ١٨ .

وإمكان وقوع هذا لا ينافى العلم الحديث ، فنحن نعرف قطعاً أن أحداً عندما يحرك لسانه ليتكلم ، يحرك بالتالى موجات فى الهواء ، كالتى توجد فى الماء الساكن عندما نرمى فيه بقطعة من الحجر . إنك لو وضعت جرساً كهربائياً فى زجاج محكم الإغلاق من كل جانب ، ثم تضغط عليه ، فلن تسمع صوته ، رغم أن الجرس على مرأى منك . . لأنه لا يرسل الموجات إلى الخارج ، فهو مكتوم داخل الزجاج ، وهذه الموجات فى الظروف العادية تصطدم بطبلة الأذن ، التى تقوم آلياً بإرسال هذه الموجات إلى العقل ، فما نفهمه من المعنى ، يسمى « سماعاً ! »

ولقد ثبت قطعياً أن هذه الموجات تبقى كما هى فى « الأثير » ، إلى الأبد ، بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى . ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع أنها لا تزال تتحرك فى الفضاء من زمن بعيد . ولم يبد العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال حتى الآن ، بعد أن سلموا — نظرياً — بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر كما يلتقط المذياع الأصوات التى تذيعها محطات الإرسال . على أن المسألة الكبرى التى نواجهها فى هذا الصدد ، ليست هى التقاط الأصوات القديمة ، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة — الهائلة الكثرة — حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة . . وهذه هى مسألة الإذاعة التى وصلنا فيها إلى حل ؛ فإن آلاف المحطات الإذاعية فى العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار ، وتمر موجات هذه البرامج فى الفضاء ، بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميلا فى الثانية . وكان من المعقول جداً عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطاً هائلا من الأصوات لا نفهم منه شيئاً ، ولكن هذا لا يحدث ، لأن جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فنها ما يرسل برامجه على موجات طويلة ؛ ومنها ما يرسل على موجات قصيرة ، ومتوسطة . وهكذا تمر هذه البرامج فى الفضاء بموجات مختلفة طولا ، فتستطيع أن تسمع أية موجة من المذياع ، بمجرد أن تدير عقربه إلى المكان المطلوب .

إن علماءنا لم ينجحوا فى اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته . وبناء على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة فى المستقبل ، فيما لو نجحنا فى اختراع الآلة المطلوبة ؛ ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس ، وهى القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يسجل ، وهو محاسب عليه يوم الحساب .

وربما كان قياساً مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق رئيس وزراء إيران الأسبق مسجوناً أثناء محاكمته عام ١٩٥٣ ، فقد ركبت فى غرفته

آلة للتسجيل تتحرك آلياً ، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق فى غرفته ، وقد عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة ، شهادة عليه . . وهو نموذج لما يمكن أن يحدث فى الآخرة .

إن مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفى وجود ملائكة لله — أو بلفظ آخر — وجود « مسجلين » غير مرئيين ، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما ننطق به من كلام ، وهو ما يصدق قول الله سبحانه : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

* * *

(ب) مسألة العمل :

ولننظر الآن فى مسألة (العمل) : ومعلوماتنا فى هذا الصدد تصدق بصورة مدهشة إمكان حدوث الآخرة .

فالعلم الحديث يؤكد إيمانه بأن جميع أعمالنا — سواء أباشرناها فى الضوء ، أم فى الظلام ، فرادى ، أم مع الناس — كل هذه الأعمال موجودة فى الفضاء فى حالة الصور ، ومن الممكن فى أية لحظة تجميع هذه الصور ، حتى نعرف كل ما جاء به إنسان ما من أعمال الخير والشر طيلة حياته ، فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شئ — حدث فى الظلام أو فى النور ، جامداً كان أو متحركاً — تصدر عنه « حرارة » بصفة دائمة ، فى كل مكان ، وفى كل حال ، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً ، كالأصوات التى تكون عكساً كاملا للموجات التى يحركها اللسان . وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التى تخرج عن أى كائن ، وبالتالى تعطى هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حيثما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat Waves) . ومثاله أننى أكتب الآن فى مكتبتى ، وسوف أغادرها بعد ساعة ، ولكن الموجات الحرارية التى خرجت من جسدى أثناء وجودى ههنا ، ستبقى دائماً ، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستى فى المكتبة فى أى وقت بوساطة تلك الآلة ، غير أن الآلات التى تم اختراعها إلى الآن ، لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث . أما الموجات القديمة ، فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ، لضعفها .

وتستعمل فى هذه الآلة (أشعة إنفرارد) التى تصور فى الظلام والضوء ، على حد سواء . ولقد بدأ العلماء فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة فى تحقيقاتهم ، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة فى سماء نيويورك ، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة ، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها[1] . . ولقد أطلق على هذه

---

(١) Reader's Digest, November, 1960

الآلة اسم : « آلة تصوير الحرارة Evaporagraph » . ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقاً بمناسبة هذا الاختراع ، تقول : « إننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما فى المستقبل ، ومن الممكن أن تنتهى هذه العملية إلى كشوف عجيبة . تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها . . »

وإننى أعتبر هذا الاختراع عجيباً كل العجب ، فمعناه أن حياة كل منا تصور على مستوى عالمى : كما تسجل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين . إنك لو صفعت فقيراً ، أو حملت عبئاً عن أحد الغرباء ، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر . . فإن جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون ، حيث لا يسعك منعها أو الهرب منها ، سواء أكنت فى الظلام أم فى النور . فحياتك كالقصة التى تصور فى الاستديو ، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن ، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل ، ولكنك تشعر كأنك موجود فى مكان الأحداث ، وهكذا شأن كل ما يقترفه الإنسان ، وشأن الأحداث التى يعيشها ، فإن فيلماً كاملا لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدى كل فرد يوم القيامة ، حتى يصرخ الناس قائلين :

« يا ويلتنا !! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[1] ؟ »

* * *

والتفاصيل العلمية التى أوردنا بعضها فى الصفحات الماضية يتضح منها جلياً أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الإنسان ؛ فكل ما يدور فى أذهاننا يحفظ إلى الأبد ، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة ، فنحن نعيش أمام كاميرات تشتغل دائماً ، ولا تفرق بين الليل والنهار . . وجميع أعمالنا ، القلبية منها واللسانية والعضوية ، كلها تسجل بدقة تامة . . ولا يسعنا — ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة — إلا أن نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة إلهية . . وبأن هذه المحكمة هى التى قامت بإعداد هذا النظام العظيم لتحضير الشهادات التى لا يمكن تزويرها .

ولا يستطيع أى عالم أن يدلى بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه . . فلو لم تستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعل البشر يحسون بمسئوليتهم إزاء المحكمة الجبارة التى ستقام يوم الحساب ؛ فلا أدرى ما الواقع الذى قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم ؟!

* * *

---

(١) الكهف : ٤٩ .

ثالثاً : الحاجة إلى الآخرة :

لقد بحثنا فى الصفحات الماضية فيما إذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة ، التى يدعيها الدين ، « ممكناً » ؟ ولقد ثبت ما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث . . والمسألة التى نقف أمامها الآن هى : البحث فيما إذا كان هذا العالم فى حاجة — فعلا — إلى شئ من قبيل الآخرة ؟ وهل يقتضى الكون — فى هيكله الحالى — وقوعها ؟؟

* * *

(ا) الجانب النفسى :

لنتناول أولا (الجانب النفسى) من المسألة .

يقول البروفيسور (كنجهام) فى كتابه : Plato's Apalogy : « إن عقيدة الحياة بعد الموت « لا أدرية مفرحة Cheerful Agnosticism » ، ومن الممكن اعتبار هذا القول خلاصة أفكار فلاسفتنا الملحدين المعاصرين ؛ فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الإنسان الباحثة عن عالم حر ، مستقل عن حدود هذا العالم ، وعن مشكلاته ، ملئ بالأفراح . وإنما يدفعه إلى الإيمان بهذه العقيدة أمله فى الحصول على حياته المفضلة ، التى لا جهد فيها ولا كدح . . وأن هذه العقيدة تنتهى بالإنسان إلى عالم مثالى وخيالى ، حيث يحلم بأنه سوف يظفر به بعد الموت . ولكن الحقيقة — كما يراها الفلاسفة — أن لا وجود لشئ كهذا العالم الثانى فى الأمر الواقع !

وفى رأيى : أن هذا المطلب الإنسانى — فى حد ذاته — « دليل نفسى » قوى على وجود عالم آخر ، كالظمأ ، فهو يدل على الماء ، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الإنسان . وهكذا فإن تطلع الإنسان — نفسياً — إلى عالم آخر دليل فى ذاته على أن شيئاً مثل ذلك موجود فى الحقيقة ، أو أنه — على الأقل — خليق أن يوجد . وهذا المطلب النفسى يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة ، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الغريزة الإنسانية منذ أقدم العصور على مستوى إنسانى ، وهو أمر لا أستطيع فهمه : كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر فى هذا الشكل الأبدى ، وعلى مستوى إنسانى ؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بإمكان وجود العالم الآخر . وإنكار هذه الحاجة النفسية ، بدون أدلة ، يعتبر جهلا وتعصباً .

إن الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه زاعمين أنها باطلة ، هم من أعجز الناس حقاً عن تفهم أى « واقع » على سطح الأرض بعد هذا . . ولو كانوا يزعمون الفهم فى الواقع فلا أدرى بأى دليل ؟ . . وعن أى برهان ؟

ولو كانت هذه الأفكار نتاج المجتمع ، كما يزعمون ، فكيف لا تزال تطابق التفكير الإنسانى ، بهذه الصورة المدهشة ، من أقدم العصور ؟ هل تجدون مثالا لأية أفكار إنسانية

أخرى ظلت باقية إلى العصر الحاضر ، وبهذا التسلسل الرائع منذ ألوف السنين ؟ هل يستطيع أذكى أذكيائكم أن يخترع فكراً واهياً ، ثم يدخله إلى النفس الإنسانية ، وكأنه موجود بها منذ الأزل ؟

إن لكل إنسان أماني كثيرة لا تكلل بالنجاح في حياته ، إنه يتمنى حياة أبدية ، ولكن الحياة التي أعطيت له تخضع لقانون الموت . والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة ، بعدما كسب من العلم والمعرفة ، والخبرة والتجارب الثمينة ، حينئذ تداهمه دعوة الموت . . ولقد أكدت إحصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين ٤٥ – ٦٥ سنة من أعمارهم ، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنيه في السنة ، وفي ذلك الوقت الثمين – فجأة – تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء ، أو ذات صباح ، فيرحلون إلى عالم مجهول ، تاركين تجارتهم الممتدة إلى ما وراء البحار . .

يقول الأستاذ وينوود ريد ((Winwood Reade) :

« إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الإله ؟ هل هناك عالم غير عالمنا هذا ؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم ؟ إن هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب ، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العملية أيضاً . إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة ؛ فحياتنا الراهنة قصيرة جداً ، أفراحها عادية مرقوتة ، إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به ، يفاجئنا الموت ، ولو استطعنا الاهتداء إلى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية ، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا(١) » .

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسي الكبير من أجل أمور لا وزن لها ولا قيمة ؛ فهو يقول : « إن هذه العقيدة كانت معقولة جداً حين كنا لا نبحث جوانبها بعمق وجد . . ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف ، ويمكن إثبات سخافته بسهولة ، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسئولية خطاياه ، وسيدخل الجنة ، ولكن العباقرة مثل (جوته) ، و (روسو) ، سوف يحترقون في نار الجحيم ؛ فلأن يخلق الإنسان محروم العقل خير له من أن يكون من أمثال جوته وروسو !! إن هذا الكلام تافه وسخيف(٢) » .

وما أشبه هذا الموقف بالذي اتخذه (اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمي الذي قام به (ماكسويل) ؛ فقد زعم اللورد أنه لا يستطيع أن يفهم نظرية ما إلا بعد وضع نموذجها الميكانيكي ، وبناء على هذا الفرض أنكر نظرية ماكسويل عن البرق والمغناطيس ، لأنها

---

(١) Martyrdom of Man, p. 414.

(٢) Ibid, p. 415.

لم تحل فى أحد نماذج اللورد المادية ! إن مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية أصبحت غريبة فى عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العالم الكبير (سوليفان) :

« كيف يروق لأحد أن يدعى أن الطبيعة لابد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع عشر فى معمله[1] ؟ »

وسوف أوجه هذا الكلام إلى الأستاذ (وينوود) :

« كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى : أن يكون الكون الخارجى ، فى حقيقة الأمر مطابقاً لما يزعمه هو ؟ » .

إن كاتبنا لم يستطع أن يفهم أمراً فى غاية البساطة : هو أن الحقيقة لا تحتاج إلى الواقع الخارجى ، وإنما الواقع الخارجى هو الذى يكون فى حاجة إلى « الحقيقة » . . فالحقيقة أن لهذا الكون إلهاً ، وسوف نمثل أمامه يوم الحساب . فلابد لكل منا — سواء أكان روسو أم كان مواطناً عادياً — أن يكون وفياً ومطيعاً لإلهه ؛ فنجاتنا لن يحققها جحودنا ، بل هى تكمن فى إيماننا وطاعتنا . . والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب (جوته) و (روسو) أن يسلكا مسلك الحق ، وإنما طالب الحق بالتغير ! ولما لم يطع الحق راح ينكره ! ! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العسكرية ، الذى يكرم أحياناً جندياً بسيطاً ، ويعدم عالماً ممتازاً ، مثل « روزنبيرج وعقيلته الحسناء » بالكرسى الكهربائى ! !

• • •

إنه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر فى (الغد) غير الإنسان . فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره فى المستقبل ، وجهاده المتواصل ، وسعيه الدائب فى سبيل تحسين أحواله . ولا شك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها ؛ كالنمل الذى يدخر غذاءه للشتاء القادم ، والطيور التى تصنع أعشاشاً يسكنها أولادها بعد فقسهم ، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر « غرزياً » ، فهو صادر عن غير شعور بالمسئولية ؛ إنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد ، وإنما تأتى بها طبيعياً ، ومن ثم تنتفع بها فى المستقبل فالتفكير فى المستقبل يتطلب فكراً مدركاً واعياً ، وهو من ميزات الإنسان فحسب ، ولا يتمتع به شئ من الحيوانات غيره .

هذا الفرق الكبير بين الإنسان والحيوان يؤكد أنه لابد أن تكون للإنسان مواقع أكثر بالنسبة إلى أى نوع آخر للانتفاع بها ، فحياة الحيوانات هى ما تسمى « حياة اليوم » ، ففكرة الغد لا توجد عندها ، ولكن مطالعة حياة الإنسان تقتضى « غداً » ، ولو أنكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة .

---

(١) JWN Sullivan, The Limitations of Science, p. 9.

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الإنسان فى حياته الراهنة هى التى تجعله يفكر فى حياة أفضل ، وهم يرون أن هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للإنسان مجتمع رفاهى كامل . فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء . . ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الإنسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر ، إلى أن تقضى نهائياً على نظرية « العالم الآخر » .

ولكن تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة — التى ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا — يكذب هذا التوقع ؛ فإن أول ما هيأ التقدم التكنولوجى للإنسان أنه أتاح له وسائل عديدة ، احتكرتها أيد محدودة ، قامت بدورها باستغلالها ، وقضت على صغار العمال والحرفيين ، وحولت تيار الثروات إلى كنوزها ، وخزائنها ، وجعلت من الشعب عمالا فقراء معوزين ، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة التى جاءت نتيجة للتقدم التكنولوجى ، فى كتاب كارل ماركس « رأس المال » ، الذى يعتبر ضجيجاً للطبقة العمالية التى عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف ، ثم بدأت ردود فعل هذا الضجيج ، وتبعه كفاح طويل ، قامت به المنظمات العمالية ، حتى تحسنت الأحوال إلى حد ما . ولكننى أرى أن التغير الذى طرأ على أحوال العمال ليس إلا ظاهرياً ؛ فعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس ، أما السعادة الحقة ، فإنه أكثر افتقاداً لها من سلفه . . ذلك أن النظام التكنولوجى لم يعط الإنسان أكثر من مظاهر مادية ، فهو لا يملك القيم الروحية ، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمأنينة القلبية ، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blake) عن إنسان الحضارة الحديثة :

A mark in every face I meet
Marks of weakness, marks of woe.

« كل وجه ترى عليه سمات فيه ضعف ، وفيه ذل وحقد »

لقد اعترف « برتراند راسل » قائلا : « إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح ، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها فى عالمنا الحديث[1] » . واليوم ، كما يقول راسل ، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة : السعادة[2] ! !

إنك عندما تزور نيويورك ، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة « إمباير ستيت » ، التى تتكون من ١٠٢ طابقاً ، وهى عالية جداً ، حتى إن درجة الحرارة فى أدوارها العليا تكون منخفضة جداً بالنسبة إلى أدوارها السفلى ، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع

---

(١) Conquest of Happiness, p. 11.

(٢) Ibid, p. 93.

فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق الذى يرتفع ١٢٥٠ قدماً فوق سطح الأرض ، ولا يستغرق المصعد الكهربائى للصعود من أسفلها إلى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق ! ! وبعد مشاهدة هذه العمارات والمظاهر تذهب إلى النوادى وتشاهد الرجال والنساء يرقصون ملتصقين . . وتفكر : « ما أسعد هؤلاء الناس ! » ، ثم تأوى إلى مقعد تشاهد الرقص المثير ، ولن تقضى وقتاً طويلا حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم ، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك ، إنها تبدو كئيبة ، فتسألك دون مقدمات :

— أيها السائح ، هل أنا قبيحة المنظر ؟

— إننى لا أرى ذلك . .

— ولكننى أفهم أننى فقدت « روعة الجمال » ، أليس كذلك ؟

— لا . . فى رأيى أنك تملكين الكثير من الفتنة وروعة الجمال .

— شكراً أيها السائح الكريم ! ولكن الشبان لا يبالون بى ، ولا يواعدوننى . لقد أصبحت الحياة بالنسبة إلى مملة موحشة . .

إن ما رأيته فى نيويورك لم يكن إلا منظراً مقتضباً من مسرحية الإنسان فى العصر الحديث .

لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شامخة ، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها ، بها أقامت مصانع تتحرك بآلات هائلة ، ولكنها حرمت عمالها الراحة التى يطمحون إليها ، وهذه هى نتيجة التاريخ العلمى والتكنولوجى . فكيف بنا إذن نطمح ونتوقع عالماً يسوده السلام والسعادة ، من « صنع التكنولوجيا ؟! »

• • •

(ب) الضرورة الأخلاقية :

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الأخلاقية نرى أنه لابد من « الآخرة » ، فإن التاريخ الإنسانى لن يكون له أى معنى بدونها .

إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر ، والصالح والطالح ، والظلم والعدل ، وهذه الفطرة هى التى تميز الإنسان عما سواه ، ولكن ها هو ذا الإنسان الذى كرمه ربه ، يهدر فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها ؛ إنه يظلم بنى جنسه ؛ يقتلهم ويشردهم ، ويوجه إليهم كل شر مستطاع . .

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها ، فالأسد ليس فى الأسود أسداً ، والنمر ليس فى العرين نمراً . . ولكن الإنسان أصبح يفترس إخوانه ، حتى الأقربين منهم ، مما لا يوجد له مثيل فى قانون الغابة . .

ولا مرية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة فى التاريخ الإنسانى ، وأننا نقدرها حق قدرها ، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان . إن المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماماً مع الضمير الإنسانى .

ولنقتبس هنا بعض الأقوال :

فولتير : « إن التاريخ الإنسانى ليس إلا صورة للجرائم والمصائب[1] » .

هربرت سبنسر : « إن التاريخ تهريج ، وكلام فارغ لا جدوى منه » .

نابليون : « إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعنى شيئاً » .

إدوارد جين : « إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلا للجرائم ، والحماقة ، وخيبة الأمل » .

هيكل : « إن الدرس الوحيد الذى تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئاً[2] » .

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهى إلى كارثة أليمة ؟ إن فطرتنا تقول : لا . . فدواعى العدالة والإنصاف فى الضمير الإنسانى تقتضى عدم حدوث هذا الإمكان ، لابد من يوم يميز بين الحق والباطل ، و لابد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما ، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان .

إن هذا الفراغ الشاسع الذى يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضى ما يشغله ؛ فإن المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغى أن يحدث) تدل على أن مسرحاً آخر قد أعد للحياة ، وأنه لابد من ظهوره . فهذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل الحياة . وإنى لأتحير عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائى الإنجليزى « هاردى » القائلة : بأن العالم مكان للظلم والوحشية ، ولكننى أصاب بحيرة أكبر عندما أرى أن هذه الحالة البالغة السوء لا تقودهم إلى الإيمان بأن : ما ليس بموجود اليوم ويقتضيه العقل ، لابد من حدوثه غداً .

« إذا لم تكن هنالك قيامة فمن ذا الذى سوف يكسر رووس هؤلاء الطواغيت الطغاة ؟ » — كلمة كثيراً ما تخرج من شفتى مصحوبة بأنين مرير ، عندما أطالع الجرائد ، فجرائدنا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم على الأرض ، والصورة التى تحملها الجرائد إلينا رهيبة . . إنها تتكلم عن الاغتيالات ، والخطف ، والنهب ، والاتهامات الكاذبة ، والتجارة السياسية ، والدعايات الباطلة التى تتلعب بالألفاظ . إن هذه الجرائد تخبرنا كيف نكل الحاكم الفلانى بمعارضيه الضعفاء ، باسم مصالح الأمة ، ودواعى الأمن القومى ؟! وكيف سيطر ذلك الشعب

(١) Story of Philosophy, Will Durant, p. 220.

(٢) Western Civilisation, E. Mcnall Burns, p. 871.

على أرض لم يملكها طيلة التاريخ بقوة السلاح !! وليست هذه الجرائد إلا حكايات لمأساة الضعيف والقوى ، والسلطان والرعاع !!

إن الأحداث التى وقعت فى بلادى أخيراً ، وبخاصة تلك الاغتيالات الجماعية ، وعمليات النهب والحرق المخططة التى جرت فى مناطق جبل بور ، وجمشيد پور ، وراوْركيلا ، وكلكتا — يبدو بعدها أن المرء لا ينبغى أن يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض ، سواء أمكنه تصورها أم لا !! فإن قوماً يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنف) يستطيعون — فى نفس الوقت — أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية ، وأشنع ألوان الدكتاتورية ، وأسوأ صور العنف ، كما لم يشهده التاريخ . وكل هذه الجرائم البشعة — التى تأسى لحدوثها السباع المفترسة ، والذئاب الكاسرة ، والخنازير الوحشية — قد جرت فى عهد زعيم أطلق عليه لقب : « معلم الإنسانية ورسول السلام[1] » !! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد ، فلقد ارتكبت فى هذا العصر الذى ازدهر فيه النشر والإذاعة ، جرائم شنيعة ، وأحداث مروعة ، من نهب ، وقتل ، وإحراق أقوام بأسرهم ؛ ودامت المأساة أشهراً طويلة ، بل سنين عديدة ، فى بلاد شاسعة جداً من الهند ، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئاً ما ، وقد امحت تماماً هذه الجرائم من صفحات التاريخ ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب !!

هل خلق هذا العالم ليكون مسرحاً للمآسى ، والشيطنة ، والهمجية والقرصنة ، ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءهما ؟! إن عالماً — من هذا القبيل — إعلان فى حد ذاته عن أنه ناقص ، وهذا النقص فى ذاته يقتضى ما يكمله .

(ج) مشكلة السلوك :

ولندرس هذا من ناحية أخرى . لقد شغلت مسألة هامة الذهن الإنسانى من أقدم العصور ، وهى كيفية إجبار الناس على سلوك طريق الحق ، فإذا افترضنا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الهدف ، فمن الممكن أن يمتنع الرعايا خوفاً من العذاب . ولكن ما الذى يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل والإنصاف ؟ ولو أننا استنجدنا القانون ، واستصرخنا المحكمة ، فكيف إذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأماكن والجوانب التى لا تخضع للشرطة والقانون ؟ ولو أننا خضنا معارك الدعاية ، وناشدنا أهل الشر أن يكفوا عن الجرائم ، فمن ذا الذى ينصت إلينا ؟ ويتخلى عن فائدة يجنيها دون كلفة ؟ إن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح فى قمع انحرافات الإنسان ؛ فنحن جميعاً

---

(١) الإشارة إلى جواهر لال نهرو ، وقد جرت الأحداث البشعة التى أشار إليها المؤلف خلال الأعوام ١٩٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ولم ينشر عنها شىء بفعل التآمر العالمى (المراجع) .

نعرف أن الكذب ، والرشوة ، والمحسوبية ، واستغلال النفوذ ، وما إلى ذلك من الوسائل المعروفة ، سوف تحول دون أى إمكان للعقاب .

إنه لن يفلح شئ فى قمع الجرائم غير الدافع المنبعث من داخل قلب الإنسان — الضمير . الضمير الذى لو دخل إرادة الإنسان فلن يسقطه عامل خارجى أياً كان ، وهذه الميزة غير متاحة إلا فى عقيدة الآخرة . فإن دافعاً قوياً يكمن فى هذه العقيدة ، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل إنسان . إنها مصلحة يهتم بها الجميع . فالكل رئيساً كان أم مرءوساً ، فى الظلام كان أو فى الضوء — ينطلق يفكر فى أنه لابد من يوم للقاء الله ، والكل يشعر بأن الله يراه ، وسوف يحاسبه حساباً عسيراً . وهذه الأهمية الكبرى فى عقيدة الآخرة هى التى جعلت القاضى ماتيوهالوس (Mathew Halos) ، وهو من كبار قضاة القرن السابع عشر يقول :

« إن القول بأن الدين خدعة ، هو بمثابة إبطال لجميع المسئوليات التى تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعى[1] » .

ألا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة !!

وإنا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيراً من علمائنا الملحدين ، الذين لايعتقدون أن الآخرة أمر واقع ، قد اضطروا — بناء على تجارب التاريخ — إلى القول بأنه لا يوجد شئ غير « الآخرة » لمراقبة الإنسان ، وإخضاعه لسلوك طريق الحق والعدل فى جميع الظروف .

لقد أنكر الفيلسوف الألمانى « كانت » فكرة (الإله) ، قائلا : (إنه لا يجد أدلة شافية على وجوده) . فهو ينكر « الصواب النظرى » فى الدين ، ولكنه ، فى نفس الوقت ، يضطر إلى أن يسلم « بالصواب العملى » فى الدين ، من الناحية الأخلاقية[2] .

و « فولتير » أيضاً لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة ، ولكنه يرى :

« أن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً ، حيث إنهما أساسان لإقامة « المبادئ الأخلاقية » . وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقى أفضل للمجتمع . ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعاً للعمل الطيب ، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعى[3] »

---

(١) Religion without Revelation, p. 115

(٢) Story of Philosophy, N.Y., 1954, p. 279

(٣) Windelband, History of Philosophy, p. 496

إن الذين يرون أن « الآخرة » فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا : كيف أصبحت فكرة خيالية ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى واقع حياتنا ؟

لماذا لا نستطيع بدونها إقامة نظام اجتماعى سليم ؟

ولماذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة ؟

هل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية الكبرى فى الحياة ؟

هل وجدتم مثالا ما فى الكون لفكرة خيالية غير كائنة ، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقية فى الحياة ، رغم أنها لا علاقة لها بواقعنا ؟!

إن حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة ، وإقامتها على أسس عادلة حقيقية ، هى – فى حد ذاتها – تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون ، ولست أبالغ إذا قلت : إن هذا الجانب المنطقى من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية ، على مستوى التحقيق المعملى العلمى . .

• • •

(د) الضرورة الكونية :

ولننظر إلى هذه القضية من جهة ثالثة ، تلك التى أسميها : « الضرورة الكونية » . لقد تكلمت فى الصفحات الماضية عن وجود الإله فى الكون ، وقد ثبت جلياً أن الدراسة العلمية والفكرية هى التى تدعونا إلى القول بوجود إله لهذا الكون . وبقى أن نسأل : لو كانت هناك علاقة بين الإله والإنسان لما كان بد من ظهورها ، فمتى ستظهر هذه العلاقة جلياً ؟

أما بالنسبة إلى عالم اليوم ، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد ، فالرجل الذى لا يؤمن بالإله ، يصيح قائلا : « إننى لا أخاف من الله » ، ثم هو لا يصاب بأذى ، بل قد يحصل على الزعامة ، ويتسلم مقاليد الحكم !!

أما الذين يبلغون رسالات الله ، فإن السلطات توقف نشاطهم بحجة أنه « غير شرعى » . وهنالك أيضاً مكاتب ومؤسسات تشغلها – ليل نهار – الدعاية لأولئك الذين يقولون : « لقد ذهب صاروخنا إلى القمر ولم يتشرف بلقاء الحكم ! » ، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات ، فإذا ما نهض أصحاب الدعوات برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين : إنكم رجعيون تتخبطون فى الظلمات !

يولد الأطفال ، ثم يشبون ، ويموتون .

تصل الشعوب إلى أوج مجدها ، ثم تنقرض .

تقع الثورات ، ثم تزول .

نشرق الشمس وتغرب ، ولكن لا تظهر آيات وجود الله .

وفى هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالإيمان بوجود الله ، أو إنكار هذا الوجود . فلو آثرنا الإيمان بالله ، فلا مناص لنا من الإيمان بالآخرة . فليست هناك طريق أخرى لتبيين علاقة الإنسان بالإله .

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون « خالقاً » ، ولكن « تفسير الحياة » الذى قدمه لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق ومخلوقه ، كما أنه لا يحس بالحاجة إلى « نهاية » لهذا الكون ، حاجة تدفعه إلى تقرير هذا الربط ، ولست أدرى كيف سيملأ (داروين) هذا الفراغ الكبير فى نظريته البيولوجية ؟ إن عقلى يستنكر إلهاً لا علاقة له بأمور الكون ، ولا يشهده عباده فى مظهر الخالق أبداً . وما أعجب « خالق داروين » — هذا الذى يأتى بكون عملاق هكذا ، ثم ينهيه ، دون إبداء الأسباب التى دفعته إلى هذا الخلق ، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة ! !

إننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئاً من تفكيرنا ، فسوف نجد قلوبنا تصرخ : « **إن الساعة آتية لا ريب فيها . .** »[1] .

بل إننا لو تأملنا فسنراها مسرعة إلينا ، سوف نراها ثقيلة ، وشيكة الانفجار ، كأنها الوليد فى بطن الحامل . وما أقرب ما تفتك بنا — فجأة — ذات عشية أو ضحاها :

« **يسئلونك عن الساعة أيان مرسىها . قل إنما علمها عند ربى . لا يجليها لوقتها إلا هو . ثقلت فى السموات والأرض . لا تأتيكم إلا بغتة**[2] » .

رابعاً — الشهادة التجريبية :

نواصل الآن بحثنا فى الجانب الآخر من هذا الموضوع : (الآخرة) ، وهو : هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت ؟

إن أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى فى حد ذاتها ؛ فإن للذين ينكرون الحياة الثانية يقرون ، بداهة ، الحياة الأولى . والحياة ، تلك التى ظهرت مرة واحدة ، كيف تعجز عن إعادة نفس العملية مرة أخرى ؟ هذه التجربة التى نعيشها نحن اليوم ، كيف يستحيل حدوثها ثانية ؟؟ إنه لا شئ أكثر عداء للمنطق والعقل الإنسانى من أن نسلم بوقوع حادث فى « الحال » ، وننكره فى « المستقبل » ! !

يا له من تناقض عجيب . . إن الإنسان يدعى أن « الآلهة » التى اخترعها هو بقدراته

---

(١) غافر / ٥٩ .
(٢) الأعراف / ١٨٧ .

الخارقة لتفسير الكون تستطيع إعادة وقائع الكون مرة أخرى ، ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين ، ويعبر « السير جيمس جينز » عن نظرية هؤلاء القوم قائلا :

« لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث . وإذا بقى كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة) ، فلا نستبعد حدوث أى شئ يمكننا قياسه على الأرض[1] » .

وترى نظرية النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائى واحد ، وأنها ارتقت إلى ما هى عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة . وبناء على هذا التفسير الذى قام بوضعه « داروين » — صاحب هذه الفكرة — فإن « الزراف » ، الموجود حالياً ، كان فى بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف ، ولكن هذا الحيوان ، من خلال العمليات الطويلة التى أعقبت التوالد والتناسل ، والتغيرات والفوارق الصغيرة التى طرأت على الجنس الحيوانى ، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادى ، الذى نشهده اليوم . .

يقول « داروين » موضحاً نظريته فى الباب التاسع من كتابه :

« ومن الأمور الحتمية عندى أنه — إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل ، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذى ظلف عادى حيواناً مثل الزراف[2] » . .

وهكذا اضطر جميع العلماء ، الذين حاولوا شرح الكون والحياة ، بطريق طبيعية ، إلى أن يسلموا بأنه لو هيئت نفس الأحوال — التى ساعدت فى خلق الحياة الأولى — فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى . إن إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى — نظرياً — من إمكان الحياة الأولى ، الذى قد وقع فعلا ، وأى شئ نسلم به أنه خلق الحياة — مهما كان هذا الخالق — فلابد لنا من الإقرار بصفة بدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد إعادة نفس الحوادث التي أنشأها للمرة الأولى ، ولابد لنا من هذا الاعتراف ، اللهم إلا إذا أنكرنا الحياة الأولى (الموجودة الآن) . . فنحن نفقد جميع الأسس التى قد نبنى عليها دعائم إنكارنا للحياة الأخرى ، عندما نسلم بوجود الحياة الأولى !

• • •

---

(١) Modern Scientific Thought, p. 3.

(٢) Origin of Species, p. 169.

خامساً — البحث النفسي :

لقد أثبت البحث النفسي ، الذى ذكرناه آنفاً ، أن جميع أفكار الإنسان — أو بعبارة أخرى : جميع خلايا مخه — تبقى بصفة دائمة . وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الإنسان ليس بجزء من جسمه ، فإن جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيراً كاملا فى بضعة أعوام ، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أى تغير أو مغالطة أو شبهة على رغم مرور مئات السنين . ولو كان هذا السجل الحافظ كائناً فى الجسم فلا أدرى أين مكانه منه ؟ وفى أى جزء يكمن على وجه الخصوص ؟ ولو كان فى أحد أجزاء هذا الجسم ، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة ؟ ما أعجب هذا السجل الذى تتحطم جميع لوحاته تلقائياً ، ولكنه لايفنى ولايزول ! ؟

إن هذه البحوث الجديدة فى علم النفس تؤكد ، بصفة قاطعة ، أن الوجود الإنسانى لا تنحصر حقيقته فى ذلك الجسم المادى الذى يخضع دوماً لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء ، بل هو شئ آخر ، غير هذا كله ، وهو لا يفنى ، بل يبقى مستقلا ، ولا يزول .

ويعلم من هذا أيضاً أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها إلا فى عالمنا هذا ، ولو كان هناك عالم آخر ، يبدأ عند فناء جسمنا المادى ، فهو يخلو تماماً من هذه الحواجز والقوانين . إن كل ما نباشره من الأعمال والأفعال الشعورية يخرج فى نطاق هذه القوانين والحواجز . ولو كانت هناك « حياة عقلية أخرى » — كما يعتقد فرويد — فمعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفنى أبداً ، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت ، وسوف نكون على قيد الحياة ، فإن هذا الموت لم يكن إلا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية . أما وجودنا الحقيقى — وهو اللاشعور ، كما يقول فرويد — فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين ، ولا يطرأ عليه الموت ، بل يأتى (الموت) على الجسد العنصرى المادى ، ويبقى اللاشعور — وهو الإنسان الحقيقى — كما هو . . ومثاله أن حادثاً وقع قبل ربع قرن ، أو فكراً خطر ببالى قبل عشرين سنة ، وقد نسيت كليهما قاطبة ، ومع ذلك فإنى أراهما فى أحلامى اليوم . وتفسير ذلك عند علماء النفس هو أنهما كانا محفوظين فى « اللاشعور » بأكمل صورهما وجزئياتهما ، كأنما حدثا بالأمس ! !

وقد نتساءل هنا : وأين هذا اللاشعور ؟ فلو كان منقوشاً على الخلايا — كالصوت مسجلا على الاسطوانات — فإن تلك الخلايا ، التى سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرن ، أو هذه الفكرة قبل عشرين سنة ، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة ، ولا علاقة لها ، فى أى صورة ، بجسدى الموجود الآن . فأين هذا الفكر من جسدى ؟ تلك شهادة تجريبية تثبت — قطعياً —

أن هناك عالماً آخر خارج أجسامنا المادية ، مستقلا بذاته ، ولايفنى بفناء الجسم ، أو جزء من أجزائه .

• • •

سادساً — البحوث الروحية

أثبتت « البحوث الروحية» Psychical Researches الحياة بعد الموت ،على المستوى التجريبي والعملى . إن الأمر الذى يدفعنا إلى إبداء مزيد من الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت « بقاءاً محضا » لروح ما ، بل إنها تثبت أيضا بقاء الشخصيات التى كنا نعرفها بذاتها ، قبل أن تموت ! !

إن هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الإنسان من قديم الأزمان ؛ ولكنا لم نلق الضوء عليها إلا حديثا . ومن هذه الخصائص : « الرؤيا » ، التى تعد من أقدم مميزات الجنس البشرى . والحقائق المثيرة التى تعد من أقدم مميزات الجنس البشرى . والحقائق المثيرة التى كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بها .

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيراً ، وأجرينا بحوثا وإحصاءات فى مختلف أنحاء العالم حولها ، وجاءت البحوث بنتائج غاية فى الأهمية .

ومن هذه البحوث ما نسميه « بالبحوث الروحية » .. وهى فرع من علم النفس الحديث ، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الإنسانية غير العادية ، وقد أقيم أول معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام ١٨٨٢ م فى انجلترا . وبدأ علماء المعهد عملهم سنة ١٨٨٩ م ، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على ١٧ ألفا من المواطنين ، ولا يزال هذا المعهد موجودا باسم « جمعية البحوث الروحية » . وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة فى مختلف بلدان العالم . وأثبتت هذه المعاهد ، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق ، أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادى ، فى صورة غريبة ..

كان وكيل متنقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه . جالسا فى حجرته فى فندق سانت جوزيف ، بولاية ميسورى ، فإذا به يشعر أن أحدا يجلس عن يمينه . ويقول الرجل : « فحولت وجهى بسرعة فوجدت أنها أختى ! » .

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين .. وبعد برهة اختفى وجه أخته . وكان الوكيل قد أفزعه هذا الحادث ، لدرجة أنه بدلا من أن يستأنف جولته ، قرر مغادرة (ميسورى) إلى بيته فى بلدة (سانت لويس) . وفى البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه ، وعندما وصل أثناء كلامه إلى هذه الجملة : « وشاهدت على خدها الأيمن جرحا واضحا أحمر اللون » . . فإذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة ، وهى تقول : « إننى أنا السبب فى ذلك

الجرح الذى رأيته ، وقد حدث ذلك عن غير قصد منّى ، وقد ندمت لذلك الحادث وآلمنى المنظر ، فأزلت كل آثار الجرح ، ووضعت فى مكانه شيئا من البودرة ! » وأضافت الأم قائلة :

« ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر إلى أحد أبدا »(١)

إن هذه الوقائع وأمثالها لا تختص بأمريكا وأوروبا ، وإنما تحدث بكثرة فى كل منطقة من العالم . ولكن حيث إن أكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت فى تلك المنطقة من العالم ، فلابد لنا أن نأتى بالشهادات التجريبية من تلك المنـــاطق أيضا . ولو كان عند بعض علمائنا شئ من الطموح والثقة بالنفس ، وبدءوا هذا العمل فى مناطقهم ، فمن الممكن أن نجمع شهادات لا حصر لها فى بلادنا الآسيوية والإفريقية . وأنا شخصيا على علم بكثير من وقائع مماثلة تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة ، ولكنا بكل أسف تعوزنا الهمم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية ، وما يلزمها من قدرة على الإنفاق ، وبذل الوقت المطلوب .

* * *

إن هناك وقائع لا تحصى من هذا القبيل ، وهى تؤكد وجود « شخصيات معروفة » بعد موتها . ولا سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق : « أوهاما وخيالات » ، كما اعتاد بعض الناس القول ببساطة فى مثل هذه المسائل ، فإن سر الجرح على خد الفتاة الأيمن — وقد ماتت منذ حقبة من الزمن — لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها . .

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت ، وهى وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم : « بالمتحركين آليا » Automatists (٢). ويطلق هذا الاسم على الذين تصدر عنهم أفعال رغم إرادتهم الذاتية ، وهذه الوقائع تدل على أن أرواحا ـ لأشخاص قد ماتوا ـ تسكن فى أجسام هؤلاء الأحياء . ويكشف هؤلاء الناس أثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها إلا الموتى ، أصحاب الأرواح .. ثم يظهر بعد شهور وسنين أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية . .

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون فى آن واحد ، ولا يكون للمكتوب أية علاقة بالقول ، كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب ، إلا بعد الاطلاع على ما كتبه ، « وهذا الواقع يثبت أن روحا — غير روحه الشخصية — تسكن فى جسده ، وهى التى تجعله يكتب(٣)

* * *

(١) Human Personality and its Survival of Bodily Death, FWH Myers, N.Y., 1903, Vol. II, pp. 27-30.

(٢) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارجة بأنهم : (ركبهم الجن) ، فهم مسلوبو الإرادة ، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريت . (المراجع)

(٣) A Philosophical Scrutiny of Religion, pp. 407-10.

إن كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون فى قبول هذا الاستدلال ، كما يقول « براد » .

« إن أى فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد إمكان الحياة بعد الموت ، اللهم إلا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية »(1)

بيد أن الاستدلال يشبه عندى أن أقول : « إن « التفكير » استثناء مشتبه فى أمره ، لأن أحدا من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدق هذه الظاهرة غير الإنسان ! ! »

• • •

إن بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس ، لكونه مسألة نفسية بحتة . فلا تصلح دراسته إلا فى علم النفس ، أما أن نبحث عنه فى أقسام أخرى من العلوم . فهو بمثابة أن نطالب علمى (النبات) و (الفلزات) بإثبات ظاهرة التفكير . ولا نستطيع — أيضا — أن نجعل دراستنا داخل الجسم الإنسانى حكماً فى هذه المسألة الخطيرة ، وسببه أن الجزء الذى ندعى بقاءه واستمراره فى الحياة — وهو الروح — لا يوجد فى هذا الجزء المادى ، بل فى جسم آخر سواه .

وهذا هو الأمر الذى دفع الكثيرين من علمائنا إلى الاعتراف بأن « الحياة بعد الموت » واقع حقيقى ، بعد أن قاموا بأبحاث علمية طويلة غير منحازة . وقد ألقى (« البروفسور دوكاس » ، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون ، ضوءا على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت ، فى الباب السابع عشر من كتابه . والدكتور دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية ، وإنما وجد — أثناء بحوثه — شواهد كثيرة ، اضطر — على أثرها — أن يؤمن بالحياة الآخرة ، مجردة عن قضايا الدين . وهو يكتب فى آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلا :

« لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة ، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة ، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة « بقاء الروح » نظرية معقولة ، وممكنة الحدوث .. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلا على هذا النحو . ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر : الأساتذة ألفريد راسل واليس ، والسير وليام كروكس ، وف . و . هـ مايرز ، وسيزار لومبرازو ، وكميل فلاماريون ، والسير أوليفر لوج ، والدكتور رينشارد هوجسن ، والمستر هنرى سيدويك ، والبروفيسور هيسلوب » .

ويستطرد الدكتور دوكاس قائلا :

« ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت — التى يؤمن بها الكثيرون منا كعقيدة

---

(1) Religion, Philosophy & Physical Researches, London, 1953, p. 235.

دينية — ليس من الممكن أن تكون واقعا فحسب ، وإنما لعلها هي الوحيدة ، من عقائد الدين الكثيرة ، التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي . ولو صح هذا فمن الممكن أيضا أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع ، بغض النظر عن الأفكار التي افترضها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت ، ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية[1] .

ويكاد الدكتور دوكاس — بعد الوصول إلى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت ، ثم الجحود بوجهتها الدينية — أن يكون مثله مثل الفلاح الذي يصر على أنه لا سبيل إلى الحديث بينه وبين أحد أقربائه ، الذي يسكن في بلدة نائية .. فإذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا في البلدة النائية ، وأعطيته السماعة .. إذا به يقول لك ، بعد فراغه من الكلام : « ليس من الضروري أنه كان صوت قريبي ، فمن الممكن أنه كان يخرج من إحدى الماكينات ! » .

• • •

---

(١) A Philosophical Scrutiny of Religion, p. 412.

الباب السادس

إثبات الرسالة

من العقائد الهامة في الدين ، بعد الإيمان بالله ، عقيدة الإيمان بالرسالة ، أو الوحي والإلهام ومعناها : أن الله تعالى ينزل كلامه على إنسان يختاره من بين الناس ، ليخبر الناس بما يرضى الله تعالى . .

وحين عجزنا عن رؤية أى خط اتصال ساخن ، بين الله سبحانه وبين الرسول ، أنكرناه . ولكنا اليوم نستطيع أن نفهم هذه المسألة بسهولة تامة بفضل الحقائق المعلومة .

إن هناك وقائع كثيرة جداً تجرى من حولنا فى كل لحظة ، ونحن نعجز عن إدراكها ، أو سماعها ، أو الإحساس بها بوساطة أجهزتنا العصبية ، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعناها . وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال ، وكأنه يطير عند أذنك !

ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية فى الفضاء !!

لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك كثير جداً من الأحداث التى لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية .

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة ، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضاً . ومما لا شك فيه أن جهاز سماع الإنسان محدود جداً ، ولكن أجهزة بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف ، فالكلب ، مثلا ، يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذى مرمن الطريق ، ومن ثم استغلت الكلاب فى البحث عن الجرائم والمجرمين . . فالقفل الذى كسره اللص يشمه الكلب المدرب ، ثم ينطلق مقتفياً أثر الرائحة المعينة التى وجدها عند القفل المكسور ، وفجأة تراه يمسك باللص من بين الألوف .

وهناك حيوانات كثيرة تسمع أصواتاً تخرج عن نطاق أسماعنا ، ولقد أثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقرة « الإشراق « Telepathy . فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) ، أو (العثة) ، وهى حشرة مجنحة – على نافذة مفتوحة ، فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جداً ، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضاً بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » ، يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريق غير عادية ، ويسمع على مبعدة نصف ميل ، وهو يحرك فى هذه العملية ستمائة طن من الهواء ، ليدعو زوجه ، وهذه الزوج ترسل أيضاً وهى ساكنة بلا حراك جواباً لا نعرفه ، وإنما يعرفه الجندب الذكر ، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضاً أن « أبو النطيط » العادى Grasshoper لديه قدرة خارقة على السماع ، حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التى تحدث فى نصف قطر من ذرة الهيدروجين !

وهناك أمثلة أخرى كثيرة ، تؤكد إمكان وجود وسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما وجه الغرابة فى ادعاء إنسان أنه يسمع صوتاً من لدن ربه ، لا يدركه عامة الناس (؟) مادام من الممكن أن توجد فى هذا العالم حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان ، ولكن تسجلها الآلات ؟ ومادامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى ؟

ما هو جانب التعجب والاستبعاد ؟

إن الله تعالى – لحكمة يعلمها – يرسل رسائله بوسائل خافتة خفية إلى الإنسان المختار للرسالة ، بعد أن يودع فيه صلاحية التقاطها وفهمها . فليس هناك من تصادم فى الحقيقة ، بين مشاهداتنا وتجاربنا العلمية ، فهو واقع من الوقائع الكثيرة التى نشاهدها ونجربها فى أمكنة وطرق مختلفة ، فالوحى إمكان ، وجدناه فى شكل الواقع بعد التجربة .

• • •

وقد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات ، وإنما توجد فى الإنسان « بالقوة » ، يقول الدكتور إليكسيس كيريل[1] : « إن حدود الفرد فى إطار الزمان والمكان هى مجرد افتراض[2] » . فيستطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام ، وتضحك ، أو تبكى ، كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر ، لست على علم بها . إنها عملية لاتستعمل فيها أية وسائل ولا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه .

(١) Man the Unknown. p. 244.

(٢) أى لا نهاية لهذه الحدود من حيث الإمكان . (المعرب)

كيف يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه ؟ إننا بعد الإيمان بالله ، والإطلاع على هذه التجارب الكثيرة بما فى ذلك الإشراق ، لا نجد أساساً لإنكار الوحى والإلهام .

• • •

وقد حدث سنة ١٩٥٠ أن المسئولين فى « بافاريا » رفعوا قضية ضد أحد المنسويين ، واسمه (فرنتر ستروبيل) : بتهمة التدخل فى برامج الإذاعة عن طريق الإشراق .

وكان فرنتر ستروبيل يستعرض أعماله فى فندق ريجنا ، بميونيخ ، عندما ناول أوراق لعب الكوتشينه إلى أحد المتفرجين ، وطلب إليه اختيار ورقة ما . وادعى أنه سوف ينقل اسم تلك الورقة واسم الفندق مع ترتيبهما ، كما هما فى ذهن المتفرج ، إلى المذيع الذى كان يقرأ الأخبار من إذاعة ميونيخ المحلية ، ذلك دون أن يعرف المذيع نفسه شيئاً من هذا ! !

بعد ثوان سمع الناس صوت مذيع مرتعش ، هو يقول : « فندق ريجنا — بنت البستونى » وكان الترتيب واسم الورقة صحيحين ، كما أراد المتفرج .

وكان الارتعاش والرهبة واضحين فى صوت المذيع ، ولكنه واصل قراءة الأخبار . استغرب الكثيرون من المستمعين من سكان ميونيخ ، واتصل مئات منهم تليفونياً بالإذاعة يستفسرون عن السر الغامض . فكان من الصعب عليهم إدراك علاقة الأخبار « بفندق ريجنا — بنت البستونى » : وحضر طبيب الإذاعة للكشف على المذيع ، فوجده فى حالة اضطراب خطيرة ، وأدلى المذيع ببيانه قائلا : « إنى شعرت بصداع شديد فى رأسى ، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك ! »

• • •

وقد عرض العلماء نظريات عديدة لشرح هذه الصور من عملية الإشراق ، ومنها أن أمواجاً تصدر من المخ وتنتشر فى العالم أجمع بسرعة فائقة ، ولذلك سموها بنظرية الموجة المخية Brain Wave Theory [1] .

ونحن نقول : إنه لما كان الإنسان يستطيع تحويل الأفكار بأكملها إلى إنسان آخر ، على بعد غير عادى ، وبدون استعمال أى واسطة مادية ظاهرية ، فلماذا تستحيل نفس العملية بين الإله وعباده ؟ إن هذا المظهر من كفاءة قوى الإنسان — وأمثلته كثيرة لا تحصى — ليس إلا قرينة تجريبية تجعلنا نفهم علاقة الألفاظ والمعانى التى تربط العبد بالإله عندما يرسل رسالاته .

---

(١) Religion, Philosophy an dPhysical Research, C.D. Broad, pp. 47-48; Man the Unknown, pp. 244-49.

إن الإشراق أمر معروف لدى الناس ، وهو يدلنا على فهم ذلك النظام الإشراقي العظيم بين الإله والعباد ، والذى يكون فى أكمل صوره حين يبلغ درجة « الوحى » ، وهذا الوحى لا يعدو أن يكون « إشراقاً كونياً » ، من نوع الإشراقات التى عهدناها فى حياتنا على مستويات محدودة .

• • •

أولا – ضرورة الرسالة :

وينبغى – بعد وضوح إمكان الوحى والإلهام – أن نبحث عما إذا كان « ضرورياً » أن يخاطب الله إنساناً ، ليبلغ كلامه إلى الناس ؟

إن أكبر دليل على هذه الضرورة هو أن الأمر الذى يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التى تتعلق بحياة الإنسان ومصيره ، والإنسان لا يستطيع أن يصل إلى تلك الحقائق بجهوده الشخصية ، إنه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كى يفهم أسرار بدء الحيـــاة ونهايتهـا ، وحقائق الشر والخير ، وكيفية صوغ الإنسان من أجل الإنسانية ، وتنظيم أجهزة الحياة حتى تستطيع الإنسانية أن تسير قدماً فى طريق الخير والرفاهية . ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا . فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول ، وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد قصير ، ولكننا عاجزون عن كشف « علم الإنسان » ، رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم ، ولم تستطع ، حتى الآن ، تحديد مبادئه وأسسه . إن هذا هو أكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى هدى الله من أجل أن يعرف نفسه !

• • •

ومن المسلم عند الإنسان الجديد أنه لم يفلح بعد فى كشف لغز الحياة ، ولكنه على كل حال يأمل فى أن يساعده القدر يوماً لرفع القناع عن هذا السر المعقد ، ولا ريب أن عجز مجتمع العلم والصناعة عن إشباع الحاجات النفسية للإنسان يؤكد الفكرة التى تقول : « إننا أعطينا أهمية غير عادية للعلوم المادية ، على حين تركنا العلوم الإنسانية فى مراحلها البدائية » ، أما الذين دفع بهم طموحهم الجارف إلى العمل فى هذا المجال ، مجال (العلوم الإنسانية) فهم كذلك لم يستطيعوا كشف شئ ما ، بل لجوا فى ضلالهم يعمهون ، يقـــول الدكتور ألكسيس كيريل (الحائز على جائزة نوبل للعلوم) :

« إن مبادئ الثورة الفرنسية ، وأفكار ماركس ، ولينين ، لا تنطبق إلا على الإنسان العقلى المثالى . ومن الواجب أن نشعر بصراحة تامة بأن قوانين العلاقات الإنسانية لم تكشف بعد .

أما الاجتماع والاقتصاد وما أشبههما ، فهي علوم افتراضية محضة ، بدون أدلة يمكن إثباتها بهـا[1] » .

ولا شك أن علومنا الجديدة قد فتحت مجالات أمام الإنسان ، ولكنها في نفس الوقت جعلت المسألة أكثر تعقيداً ، ولم تساعد في حل الأزمة في أية مرحلة .

ويقول الأستاذ ج.و.ن.سوليفان :

« إن الكون الذي كشفه العلم الحديث هو أكثر غموضاً وإبهاماً من التاريخ الفكري بأكمله ، ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة من أي عصر مضى ، ولكن هذه المعلومات كلها غير مقنعة ، فنحن نواجه اليوم الإبهام والمتناقضات في كل ناحية[2] » .

هذه الكارثة المؤسفة التي نقف أمامها ، بعد بحث طويل في العلوم المادية عن سر الحياة ، تدلنا على أن إدراك سر الحياة لن يتاح للإنسان[3] .

إن أحوالنا تحتم علينا معرفة سر الحياة ، إذ أننا لا نستطيع مواصلة الحياة في أكمل صورها دون معرفته ، ولذلك كان خير ما نتمنى بقلوبنا أن ندركه ، ولا يرضى أسمى جزء من شخصيتنا ، وهو العقل ، أن يطمئن بدونه . فحياتنا مبعثرة لفقداننا هذه الحقيقة

سر الحياة هو ضرورتنا الكبرى ، هذا من ناحية ، ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نستطيع أن نظفر به بجهودنا وحدها

هذه الحالة وحدها تكفي لتبين حاجتنا الشديدة إلى « الوحي » ، فأهمية سر الحياة . ثم خروج هذا السر عن دائرة قوى الإنسان ، يدل على أنه لابد أن تأتي المعرفة من الخارج أيضاً ، كالضوء والحرارة اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان ، ولكنهما هيئا من الخارج[4] .

• • •

إن مهمتنا ، بعد التسليم بإمكان الوحي وضرورته ، هي أن نبحث عن الإنسان الذي يدعي أنه نبي . . هل هو صاحب الوحي في الحقيقة ؟ . . لقد نصت العقيدة الدينية على مجيء عدد كبير من الأنبياء ، ولكننا سوف نبحث في هذا الباب عن نبوة رسول الإسلام : سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فإن نبوة سائر الأنبياء من قبله تثبت تلقائياً لو ثبتت

---

(1) Man the Unknown, p. 37.

(2) Limitations of Science, p. 1.

(3) أنظر التفصيل كتاب الدكتور كيريل ، ص ١٦ — ١٩

(4) سوف نبحث هذه المسألة بتوضيح أكثر في الفصول القادمة .

نبوته ، لكونه آخر الأنبياء ، ولأنه يصدقهم ولا ينكرهم ، ولأن نجاة البشرية ، أو هلاكها فى معركة الحياة رهن بإيمانها بهذا النبى ، أو تكذيبها إياه .

• • •

لقد ولد الطفل بمكة صبيحة يوم ٢٩ أغسطس من عام ٥٧٠ م ، وعندما بلغ الأربعين من عمره ، أعلن أن الله تعالى أرسله خاتماً للنبيين ، وكلفه بإبلاغ رسالته إلى جميع فئات الجنس البشرى ، وأن من اتبعه نجا فى الحياة الآخرة ، ومن كذبه فهو فى خسران مبين .

إن أصداء هذا الصوت تمر فوق رؤوسنا اليوم بأشد قوتها ، وهو ليس بصوت عادى تتجاهله الآذان . . فهو أكبر نداء فى تاريخنا يدعونا إلى تفكير دقيق ، وعلينا أن ندرسه بدقة ، فإما قبلناه وهو صادق ، وإما رفضناه لو وجدناه كاذباً . . . وهيهات .

• • •

ثانياً ــ مقياس الرسالة :

كل فكر يمر بثلاث مراحل ، حتى يصبح حقيقة علمية :

المرحلة الأولى : الفرض Hypothesis

المرحلة الثانية : الملاحظة Observation

المرحلة الثالثة : التحقق Verification

والمرحلة الأولى من الحقائق هى أن نفترضها ، ثم نشاهدها وندرسها ، لنتبين صدقها أو كذبها ، فإن وجدناها صحيحة فى ضوء الدراسة ، قبلناها ؛ لتصبح حقيقة علمية ، وقد ينقلب هذا الوضع ، فإننا فى بعض الأحيان نشاهد أشياء نتوصل بها إلى نظرية ، ثم نبدأ البحث فى ضوئها .

وبناء على هذا الأساس فإن دعوى النبوة (فرض) . وعلينا أن نفتش عما إذا كانت (الملاحظات) تؤيد هذا الفرض ؟ فإذا أيدته المشاهدات أصبح (حقيقة) مصدقة ، يلزمنا قبولها . .

ولكن ما الملاحظات التى نحتاج إليها لاختبار هذا الفرض ؟

وما المظاهر الخارجية التى تؤيد كون محمد (صلى الله عليه وسلم) نبياً حقاً ؟

وما الخصائص والميزات التى اجتمعت فى الرسول ، ولا نجد لها تفسيراً إلا إذا قلنا : إنه كان نبياً !.

فى رأيى أنه لابد من مقياسين لاختبار الأنبياء :

أولا : أن يكون رجلا مثالياً بصورة غير عادية ، فإن الذى يصطفى ليكون كليم الله ،

وليكشف للإنسان برنامج الحياة وسرها ، لابد أن يكون أسمى شخصية فى النوع الإنسانى ، كما لابد أن يكون حاملا مثل الحياة العليا . فإذا كانت حياته الذاتية متصفة بهذه الصفات فهى أكبر دليل على ما يقول ، إذ لو كانت دعواه باطلة لما كان ممكناً أن تتجلى هذه الحقيقة الكبرى فى حياته الذاتية ، حتى تسمو به فوق سائر الإنسانية ، خلقاً وشمائل .

ثانياً : أن يكون كلامه ورسالته مملوئين بجوانب يستحيل حصولها للإنسان العادى ، ولا تؤمل إلا ممن ظفر بمعرفة رب الكون ، بحيث لا يمكن للعامة محاكاة ما جاء به النبى من وحى الله .

إننا سوف نبحث عن الرسول فى ضوء هذين المقياسين .

• • •

لقد شهد التاريخ بكل قطعية أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بسيرة غير عادية ، ومن الممكن للمتعصبين إنكار أية حقيقة ، مهما كانت واضحة ، كما أن من الممكن للمنكرين ادعاء أى شئ فى سبيل الاستغلال ، إذا كانوا غير راضين بالنتيجة ، مهما كانت صادقة وبدهية ! وحسبنا أن نذكر على ذلك موقفاً من حياتنا الحديثة ! فقد شاهدنا منذ سنين قليلة مثالا ساخراً لهذا المبدأ ، عندما هاجمت الصين الشعبية حـــدود الهند الدولية ، وأخذت الصين إزاء احتجاج الهند تتهم الهند نفسها بالعدوان ! !

وفى الخطاب الذى أرسله رئيس وزراء الصين إلى الهند ، والذى أذيع نصه بدلهى فى يناير عام ١٩٦٠ ، ادعت الصين أن لها حقاً فى أراض هندية تبلغ مساحتها ٢٢٠,٠٠٠ كم مربعاً ! ! ويقول رئيس وزراء الصين : إن القوات الصينية لم تتقدم إلا لتدفع بالقوات الهندية المحتلة إلى الوراء ! !

أليس هذا منطق التعصب والاستغلال ! !

أما الذى لا يشكو من داء التعصب ، ويهيئ عقله لمطالعة الحقائق بقلب مفتوح واع ، فإنه سيسلم بعد دراسته بأن حياة محمد صلى الله عليه وسلم كانت أرقى ، وأحلى حياة شهدها البشر .

• • •

لقد أخبر محمد بن عبد الله بالنبوة ، وهو فى الأربعين من عمره ، وكان قد اشتهر قبل هذا بدور أخلاق ممتاز ، حتى لقبه الناس « بالصادق الأمين » ، وكانت قريش قد أجمعت على أنه يستحيل أن يكذب ، أو يخون الأمانة .

ومن الأحداث التى جرت قبل إعلانه النبوة بخمس سنين أن أهل مكة أرادوا بناء الكعبة من جديد ، وكانت قريش هى صاحبة الأمر . فاختلفت فيمن سيضع الحجر الأسود فى

مكانه ، واستمر الخلاف أربعة أيام أو خمسة ، وأوشكت السيوف أن تبرز ، وكاد القوم أن يتناحروا ، ثم اتفقوا على أن يكون الفيصل في هذه القضية أول من يدخل البيت الحرام صباح غد ، وفي اليوم التالي شاهدوا أن الإنسان الأول الذي دخل البيت كان محمداً ، فنادوه قائلين : « هذا الأمين ، رضينا[1] » .

إننا لا نعرف شخصية في التاريخ الإنساني تمتعت بهذا الإجلال والتكريم والتقدير ، وبهذه السيرة غير العادية ، ثم أصبحت موضع نزاع بعد مضي أربعين سنة من عمرها .

• • •

وعندما نزل عليه الوحي لأول مرة ، وهو في غار حراء ، اعتبره حادثاً غريباً لم يعهده من قبل ، فرجع إلى بيته يرجف فؤاده ، وقص كل ما حدث على زوجه : خديجة التي كانت أكبر منه سناً ، فقالت : « يا أبا القاسم والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وكان أبو طالب عم النبي ، قد أبى أن يؤمن ، ولكنه حين علم أن ابنه « علياً » أسلم ، قال له : أي بني : ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟ فقال : يا أبت ، آمنت بالله ، وبرسول الله، صليت معه واتبعته ، فقال أبو طالب : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه[2] » .

وعندما جمع الناس لأول مرة بعد النبوة في رحاب « جبل الصفا » ، سألهم : « يا بطون قريش ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ » فعلت الأصوات من كل الحناجر ، وهي تقول : « نعم ، ما جربنا عليك كذباً ! »

إن هذا السجل التاريخي الممتاز لحياة الرسول قبل إعلان النبوة ، ليس له مثيل في العالم ، ولم يسبق أن أحرز مثله أي شاعر ، أو فيلسوف ، أو مفكر ، أو كاتب ! !

• • •

وعندما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) النبوة ، لم يكن صدقه موضع شك ، أو بحث مطلقاً لدى أهل مكة ؛ فإنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة ، ولذلك لم يرمه أحد بتهمة الكذب أو الاحتيال ، بل ذهبوا يدعون أنه فقد وعيه ، أو أنه شاعر أو ساحر ، أو أن الجن استولت على أعصابه ، وما إلى ذلك من الدعاوى التي تحفل بذكرها الكتب التاريخية ؛ ولكن

---

(١) صحيح البخاري ، باب ما ذكر في الحجر الأسود .

(٢) Ideal Prophet, P. 58. ، وانظر سيرة ابن هشام ١ / ٢٦٥ .

هذه الكتب لا تشير إلى أية محاولة جرؤ صاحبها على النيل من أمانته وصدقه . بل يسجل التاريخ أنه : « ليس بمكة أحد عنده شئ يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته[1] » .

وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة ، صمم بعض شبان قريش على قتله ، وحاصروا بيته لاغتياله ؛ وفى تلك الساعة الخطرة الحرجة قرر الهجرة إلى يثرب ، ولكنه أوصى ابن عمه (علياً) أن يرد جميع الأمانات إلى أصحابها فى الصباح !

وهذا النضر بن الحارث ، وقد كان من أكبر المعارضين للنبي ، وكان يعد من الخبراء المحنكين بمكة — وقف يوماً ، فألقى خطبة فى جمع من قريش ، وقال :

« يا معشر قريش ، إنه ، والله قــد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم : كاهن ، لا والله ، ما هو بكاهن ؛ قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ، لا والله ، ما هو بشاعر ؛ قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ، لا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش ؛ فانظروا فى شأنكم ، فإنه ، والله ، لقد نزل بكم أمر عظيم » .

« وكان هذا النضر من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة[2] » .

وكان أبو لهب عم النبي من ألد أعدائه ، وقال له ذات مرة : « يا محمد ، إنى لا أقول : إنك كاذب ، ولكن الأمر الذى تقوم بتبليغه باطل[3] » .

• • •

إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت عامة لسائر أهل الأرض ، غير مقصورة على الجزيرة العربية ، ولذلك أرسل كتابات إلى ملوك البلاد القريبة ، وقد تلقى إمبراطور الروم « هرقل » كتاباً من الرسول ، يدعوه إلى اعتناق الدين الجديد ، فأمر رجاله بإحضار رجل من قوم الرسول فى ديوانه[4] . وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية فى بلاد

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٣١٩ .

(٣) الترمذى .

(٤) كان قيصر الروم هرقل حينئذ فى بيت المقدس يشكر الله لغلبته على الفرس ، وقد تلقى هذا الكتاب هناك .

الشام ، فجيء بهم إلى ديوان القيصر ، وسألهم هرقل عمن كان أقربهم نسباً بالرسول ، فأجاب أبو سفيان : « أنا أقربهم نسباً » . ثم جرى حديث تاريخي هام بين هرقل وأبي سفيان ، نقتبس هنا منه شيئاً :

« هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

فقال هرقل : قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وعندما دار هذا الحديث لم يكن أبو سفيان قد آمن بالرسول بعد ، بل كان من خصومه ، الذين ألبوا عليه العرب ، وشنوا ضده الحروب ، وقال ، وهو يروي هذا الحادث : « والله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه(١) » .

إن التاريخ على طوله لم يشهد رجلا أدلى خصومه بآراء مثالية عن سيرته وحياته مثلما أدلى به خصوم رسول الإسلام .

إن هـذا الواقع هو الآخر دليل في حد ذاته على حقيقة دعوة النبي العربي . وسوف أنقل هنا ما قاله الدكتور ليتز عن الرسول :

« إنني لأجرؤ بكل أدب أن أقول : إن الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها ، لو كان يوحي إلى عباده فدين محمد هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الإيثار ، والأمانة ، والاعتقاد الراسخ القوي ، ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام ، فرسالة محمد هي هذا الإلهام(٢) » .

• • •

لقد عاني محمد (صلى الله عليه وسلم) ، من صنوف الأذى ، وضروب العنت والاضطهاد عندما بدأ دعوته ؛ وحاربه قومه أشد الحرب وأقساها ، فوضعوا في طريق مروره الأشواك ، وصبوا على جسمه الطاهر أكواماً من النحاسة . . بل ووجدناه ذات مرة بينما كان يؤدي صلاته ، وإذا (عقبة بن أبي معيط) يلببه بردائه بشدة حتى وقع النبي على الأرض . . .

ولكن هذه الاستفزازات لم تؤثر في مهمة النبي ، فاتبعوا معه أسلوباً آخر ، وذلك حين قاطعوه هو وعشيرته من بني هاشم ،وأجبروهم على أن يعتزلوا الناس ، فلجأوا إلى شعب بني

---

(١) صحيح البخاري : كيف كان بدء الوحي .

(٢) Life of Mohammad, by Abul Fadl.

هاشم ، ومنعوا عنهم الطعام ، وحرموا التعامل معهم ، ومضى على هذه المقاطعة والحصار التاريخي ثلاث سنين ، وهم يأكلون أوراق شجر (الطلح) الجبلية المرة ، لسد حاجة البطن إلى الطعام . ويروى أحد الصحابة فى هذا الحصار أنه حصل مرة على قطعة جافة من الجلد ، فغسله بالماء ووضعه على النار ، ثم بلله بالماء ثانية وأكله .

وبعد الخروج من هذا الحصار ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الطائف ، وكانت تبعد أربعين ميلا عن مكة ، وكان يقطنها الأعيان والأثرياء من ثقيف ، واستخدم هؤلاء لغة بالغة السوء مع الرسول . وذهب أحدهم يقول متحدياً : « هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة ، إن كان الله أرسلك » ، وقال الآخر : « أما وجد الله أحداً يرسله غيرك » . وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله، كما تقول، لأنت أعظم خطراً من ان أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك » .

ولم يكتف هؤلاء بهذا الاستهزاء ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يرمونه بالأحجار ، إلى أن سقط على صخرة مثخناً بالجراح ، وحين جلس ليستريح من الجراح والعنت ، رموه حتى نهض مبتعداً عنهم ، وهم يتابعونه بالسب والإيذاء والتصفيق . . ولم يزل هذا المشهد حتى أقبل المساء ، وأوى الرسول إلى حائط لعتبة بن ربيعة ، فجلس فى ظل كرمة ، وهو جريح ملطخ بالدماء . وهذا هو الواقع الذى كان الرسول يذكره للسيدة عائشة فى قوله :

« لقد لقيت من قومك ما لقيت ؛ وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[1] » .

• • •

وعلى الرغم من هذا الأذى الشديد ، فقد ظل الرسول يدعو إلى الحق . حتى اجتمعت قريش على أنه لا سبيل إلى التخلص منه إلا بالقتل . وبناء على مؤامرة دبروها ، أحاط عدد من رؤسائهم وشيبتهم ببيت الرسول ، وفى أيديهم سيوفهم المسلولة ، استعداداً لاغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم . عندما يخرج من بيته لتأدية صلاة الصبح ، ولكنه بإذن من الله ، خرج من البيت دون أن يصاب بأذى ، وهاجر إلى المدينة المنورة .

ثم أعلنت قريش قتالا منظما ضد النبي وأعوانه ، وجروه إلى الحرب ، وورطوه فى

---

(١) نص هذا الحديث : قالت عائشة : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذا عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق إلابقرن الثعالب . فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال . . . إلخ — المراجع .

هذه الحروب زهاء عشر سنين ، وقد سقطت فى معاركها أسنانه الكريمة ، وكسرت رباعيته ، كما استشهد عدد كبير من صحابته ، وعانى مع أصحابه كل ما تعانيه الشعوب الضعيفة بعد إعلان الحرب عليها .

وهكذا دارت رحى التاريخ خلال ثلاثة وعشرين عاما من الكفاح ، وقبيل نهاية رسالته بعامين فتحت مكة ، ويومها وقف أمامه ألد خصومه ، لا يجدون نصيرا ولا معينا .. فهم يعرفون كيف يعامل المنتصر المغلوبين ، ولكن الذى لقبه ربه بأنه « رحمة للعالمين » سألهم :

ــ « يامعشر قريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ »

ــ فقالوا : « خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » .

ــ فأعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ذلكم ، ولاشك ، أعظم مثل للرحمة والعفو ، وهو معجزة من معجزات التاريخ الإنسانى. ولو كان هذا الحدث من أحداث ما قبل التاريخ ، أو لم يكن مسلما به تاريخيا ، لكذبه المكذبون الذين فى قلوبهم زيغ ، وقالوا : إنها أسطورة من أساطير التاريخ ، فلم يخلق إنسان بهذه الشيم !

وما أصدق ما قاله البروفيسور بورسورث سميث :

« عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفاته وبطولاته ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة ، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا ــ أجده أقدس الناس ، وأعلاهم مرتبة ، حتى إن الإنسانية لم تعرف له مثيلا[1] .

إن المثل الأعلى الذى ضربه النبى فى حياته الكاملة ، من الأخلاق العالية ، والزهد فى الأموال والملذات ، شىء لا مثيل له فى التاريخ .

لقد كان تاجرا ناجحا فى مكة ، وكانت زوجه السيدة خديجة من أثرى نساء العرب ، ولكن كل تجارته ، وثراء زوجته ، ذهبا فى سبيل الدعوة ، ثم ابتلى ببلاء شديد ، حتى إنه قال مرة :

« لقد أخفت فى الله ، وما يخاف أحد (أى مثل ما أخفت) ، ولقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين ليلة ويوم ، وما لى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا شئ يواريه إبط بلال »[2].

---

(١) Mohammad & Mohammadanism, p. 340.

(٢) الترمذى عن أنس رضى الله عنه .

وما عانى النبي كل هذا إلا لأجل دعوته ، لقد كان من الممكن أن يعيش حياة أخرى ، تختلف كل الاختلافُ عن الحياة البائسة التى عاشها فى سبيل رسالته ، ولقد عرضت عليه ، حين كان بمكة ، عروض مغرية تكفل له العيش الرخى ، والمجد السنى ، فأوفد إليه رؤساء قريش « عتبة بن ربيعة » ، الذى جاء ليقول له :

« يا ابن أخى ، إنك منا ، حيث قد علمت من السطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ؛ فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال له : قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخى : إن كنت إنما تريد ، بما جئت به من هذا الأمر ، مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا : وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه » . حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ، قال نعم ، قال :

فاستمع منى ، فقال : أفعل .. فقرأ عليه الآيات الأولى من سورة (فصلت) ، فلما وصل إلى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم أن يكف(١) » .

• • •

وفى المدينة المنورة ، كان النبي صلى الله عليه وسلم رئيسا لدولة المسلمين ، وكان يتمتع بمساعدين مثاليين ، يبذلون حياتهم لأجله ، ولم يعرف لهم نظراء على مدى التاريخ ، ولكن الوقائع التاريخية أثبتت أنه — حتى فى آخر أيام حياته ، حين أظلت رايته الجزيرة العربية كلها — بقى رجلا عاديا ، غير ملتفت إلى شهوات الدنيا ومغرياتها ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

وقد روى سيدنا عمر بن الخطاب أنه دخل حجرة النبي صلى الله عليه وسلم : « فإذا هو مضطجع على رمال حصير ، ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمل بجنبه ، متكئا على وسادة حشوها ليف .. قلت : يارسول الله أدع الله ، فليوسع على أمتك ، فإن فارس والروم قد وسع عليهم ، وهم لا يعبدون الله . فقال : أو فى هذا أنت ، يا ابن الخطاب ؟ أولئك عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، وفى رواية ، أما ترضى عن أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة(٢) » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١ — ٣١٤

(٢) متفق عليـه .

ومما تحكي السيدة عائشة أنه « كان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما توقد فى أبيات الرسول صلى الله عليه وسلم نار ؛ فسألها عروة بن الزبير : فما كانت معيشتكم ، ياخالة ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء . وقالت : وكان لنا جيران من الأنصار ، لهم ربائب يسقوننا من لبنها ، جزاهم الله خيرا . » . وقد جاء فى حديث آخر : أنها ذكرت « أن آل محمد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بر ، حتى مضى النبي صلى الله عليه وسلم ، لسبيله[1] » .

* * *

لقد عاش النبي هذه الحياة القاسية ، رغم كونه قادرا ، كل القدرة ، على أن يعيش حياة النعيم والترف . وعندما انتقل إلى رحمة الله لم يورث أهله شيئا ، لا دراهم ولا دنانير ، ولا غنما ولا إبلا ، حتى إنه لم يكتب أية وصية . بل إن النبي العظيم ، الذى كان على معرفة تامة بأن حدود دولته الإسلامية سوف تمتد عابرة إفريقية وآسيا ، حتى تصل إلى قلب أوروبا — قال : « نحن معاشر الأنبياء ، لا نورث ؛ ما تركنا صدقة » .

* * *

إن هذه الوقائع التى أوردناها ، من الإيثار ، والإخلاص ، وسمو الأخلاق ، ليست حوادث استثنائية فى حياة الرسول ، وإنما هى حياته بأكلها ، بل هى بالحرى ، صورة مصغرة وموجزة عن الوقائع التى كانت تحدث فى حياته المثالية ، لقد ارتفع بالإنسانية إلى أسمى قمة تحلم بها ، حتى إنه لو لم يوجد ، لاضطر المؤرخون إلى القول : بأنه لم يوجد إنسان من هذا الطراز ، ولن يوجد فى التاريخ .

* * *

فليس غريبا ، مطلقا ، أن يقال : إنه كان نبي الله ، ولكن الغريب أن ينكره أحد منا عنادا وغروراً .

ونحن عندما نسلم بدعواه يمكننا أن نفسر سر حياته المعجزة .

أما إذا أنكرنا نبوته ، فسنفقد أى أساس لتفسير منبع أوصافه العجيبة ، التى لم نجد لها مثيلا فى التاريخ .. وقد اعترف البروفيسور « بوسورث سميث » بهذه الحقائق ، حتى إنه ليدعو البشرية كلها إلى الإيمان برسالة النبي :

« لقد ادعى محمد لنفسه فى آخر حياته نفس ما ادعاه فى بداية رسالته . وإنى لأجدنى مدفوعا

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٤٠٠ وما بعدها .

إلى الاعتقاد بأن كلا من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران ، يوما ما ، إلى التسليم بأنه كان نبياً .. نبيا صادقا من عند الله[1]

• • •

أما الناحية الأخرى فى قضية إثبات الرسالة المحمدية ، فهى ذلك الكتاب الذى جاء به صاحب الرسالة ، مدعيا أنه منزل من عند الله تعالى .

وهذا الكتاب يفيض بخصائص ومزايا تدل صراحة على أنه كلام غير إنسانى ، وأنه من عند الله . ولما كان البحث فى هذه الناحية ذا طبيعة خطيرة — نظرا لأهميته — فقد قدرنا أن ندرسه فى باب مستقل ..

---

(١) Mohammad & Mohammadanism, p. 344.

الباب السابع

القرآن صوت الله

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أنى أكثرهم تابعاً يوم القيامة[1] » . .

إن هذا الحديث النبوى يعين جوانب بحثنا الصحيحة ، فهو يقول : إن أهم وسائلنا لمعرفة النبي هو الكتاب الذى جاء به ، مدعيا أنه من عند الله ، والقرآن هو ، رسالة الرسول بين ظهرانينا ، كما أنه يبرهن على صدقه .

فما الخصائص التى تبرهن على أن القرآن من عند الله ؟

إنها متعددة الجوانب كثيرة ، نستطيع أن نلخصها فى الفصول التالية :

أولا — إعجاز القرآن :

أول خاصة يتنبه إليها الباحث فى العلوم القرآنية هى ذلك التحدى الصريح الذى وجهه القرآن إلى الناس كافة ، منذ أربعة عشر قرناً ، وبخاصة أولئك الذين ينكرون رسالة القرآن ، ولم يستطع أحد من عباقرة البشر أن يرد التحدى إلى الآن . لقد أعلن القرآن ، بصوت عال ، لا إبهام فيه ولا غموض :

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين[2] » .

إنه أغرب تحد فى التاريخ ، وأكثره إثارة للدهشة ، فلم يجرؤ أحد من الكتاب فى التاريخ الإنسانى — وهو بكامل عقله ووعيه — أن يقدم تحديا مماثلا ، فإن مؤلفا ما لا يمكن أن يضع

---

(١) صحيح البخارى : الاعتصام .

(٢) سورة البقرة : ٢٣ .

كتاباً ، يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله ، أو خيراً منه .. فمن الممكن إصدار مثيل من أى عمل إنسانى فى أى مجال ، ولكن حين يدعى أن هناك كلاما ليس فى إمكان البشر الإتيان بمثله ، ثم تخفق البشرية على مدى التاريخ فى مواجهة هذا التحدى ، حينئذ يثبت تلقائيا أنه كلام غير إنسانى ، وأنها كلمات صدرت عن صميم المنبع الإلهى Divineorigin ، وكل ما يخرج من المنبع الإلهى لا يمكن مواجهة تحدياته .

• • •

وفى صفحات التاريخ بعض الوقائع ، غر أصحابها الغرور ، فانطلقوا يواجهون هذا التحدى .

وأولى هذه الوقائع ما حدث من الشاعر العربى لبيد بن ربيعة ، الشهير ببلاغة منطقه ، وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره . فعندما سمع أن محمداً يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات ردا على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة ، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار شعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة فى اليوم التالى ، ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية ، حتى إنه صرخ من فوره قائلا : (والله ما هذا بقول بشر ، وأنا من المسلمين)(١) .

---

(١) هذا الخبر عن لبيد أورده المؤرخ ج. ساروار فى كتابه Mohammad The Holy Prophet ص ٤٨٨ – كراتشى ، وهو على هذا النحو غير مسلم ، لأن لبيداً لم يسلم إلا فى السنة التاسعة للهجرة ، حين وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ضمن وفد كلاب (أنظر : الطبقات الكبرى ٣٣/٦ ، وأيضاً ٣٠٠/١ – ط بيروت ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٥/١ – تحقيق الشيخ أحمد شاكر) . وإنما كان الذى حدث قريبا من هذا الذى ذكره المؤلف مع استبعاد رواية إسلامه ، فقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١٠٣/١ أن عثمان بن مظعون رضى الله عنه كان فى أول الإسلام يعيش فى جوار الوليد بن المغيرة ، فلما رأى ما يحدث لإخوانه من أذى المشركين عز عليه أن يعذبوا دونه ، فرد جوار الوليد ، ثم مضى إلى الكعبة فوجد لبيد بن ربيعة فى المجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد وهو ينشدهم :

(ألا كل شىء ما خلا الله باطل) . . .

فقال عثمان : صدقت . فقال :

(وكل نعيم لا محالة زائل)

فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث فيكم هذا ؟ إلى آخر الخبر ، ومفهوم هذا أن لبيداً قد بقى على جاهليته حتى أسلم سنة تسع ، ويذكر ابنه قتيبة أنه لم يقل فى إسلامه غير بيت واحد هو :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى   حتى كسانى من الإسلام سربالا

وقيل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح   (المراجع)

وكان من نتيجة تأثر هذا الشاعر العربي العملاق ببلاغة القرآن أنه هجر الشعر ، وقد قال له عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما : يا أبا عقيل : أنشدنى شيئا من شعرك ، فقرأ سورة البقرة، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران(١) .

وأما الحادث الثانى فهو أغرب من الأول ، وهو عن ابن المقفع ، أورده المستشرق (ولاستن) فى كتابه ، وعلق عليه قائلا :

« ... إن اعتداد محمد بالإعجاز الأدبى للقرآن لم يكن على غير أساس ، بل يؤيده حادث وقع بعد قرن من قيام دعوة الإسلام(٢) » .

والحادث كما جاء عن لسان المستشرق ، هو أن جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لإتمام خطتهم بعبد الله بن المقفع (٧٢٧م) ، وكان أديبا كبيرا ، وكاتبا ذكيا . يعتد بكفاءته فقبل الدعوة للقيام بهذه المهمة .. وأخبرهم أن هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكفلوا بكل ما يحتاج إليه خلال هذه المدة ..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام ، عادوا إليه ، وبهم تطلع إلى معرفة ما حققه أديبهم لمواجهة تحدى رسول الإسلام ، وحين دخلوا غرفة الأديب الفارسى الأصل ، وجدوه جالسا والقلم فى يده ، وهو مستغرق فى تفكير عميق ، وأوراق الكتابة متناثرة أمامه على الأرض ، بينما امتلأت غرفته بأوراق كثيرة ، كتبها ثم مزقها .

لقد حاول هذا الكاتب العبقرى أن يبذل كل مجهود ، عساه أن يبلغ هدفه ، وهو الرد على تحدى القرآن المجيد .. ولكنه أصيب بإخفاق شديد فى محاولته هذه ، حتى اعترف أمام أصحابه ، والخجل والضيق يملكان عليه نفسه ، أنه ، على الرغم من مضى ستة أشهر ، حاول خلالها أن يجيب على التحدى ، فإنه لم يفلح فى أن يأتى بآية واحدة من طراز القرآن ! وعندئذ تخلى ابن المقفع عن مهمته ، مغلوبا مستخذيا ..(٣)

• • •

---

(١) أنظر فى هذا الخبر : الشعر والشعراء لابن قتيبة السابق .

(٢) Mohammad : His life & Doctrine, p. 143.

(٣) وردت فى التاريخ أمثلة أخرى حاول أصحابها مواجهة هذا التحدى ، غير أنهم أخفقوا إخفاقا ذريعاً ، ومن هؤلاء : مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وطليحة بن خويلد الأسدى ، والنضر بن الحارث ، وأبو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الروانذى ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، صاحب كتاب « الفصول والغايات فى مجاراة السور والآيات » ، أنظر للتفصيل كتاب الرافعى : إعجاز القرآن — المترجم .

وهكذا لا يزال تحدى القرآن الكريم قائما ومستمرا على مر القرون والأجيال ، وهى خاصة عظيمة ورائعة فى صالح القرآن ، تثبت ، دون مرية ، أنه كلام من هو فوق الطبيعة . وأى إنسان يتمتع بكفاءة التفكير والإمعان ، فى حقيقة الأمر ، يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب .

ومما لا شك فيه أن العرب — وهم الذين لم يعرف لهم مثيل فى التاريخ : فى البلاغة والبيان ، حتى أطلقوا على غيرهم اسم « العجم » لشدة اعتزازهم ببيانهم — قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن ، معترفين بعجزهم عن الإتيان بمثله ، فلزمتهم بذلك الحجة ..

ومما جاء فى كتب الحديث عن ابن عباس أن (ضمادا) قدم مكة . وكان من ازد شنوءة . وكان يرقى(١) من هذه الريح (الجنون ومس الجن) . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمدا مجنون . فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدى . قال : فلقيه ؛ فقال : يا محمد ! إنى أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء ، فهل لك ؟ فقال رسول الله : « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . » قال : فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : فقال : « لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر (قعره الأقصى(٢)) .

إن هناك عدداً لا يحصى من الاعترافات التى أدلى بها أرباب الشعر والأدب والفكر ، فى شأن القرآن الكريم ، سطرت فى صفحات التاريخ القديم ، كما أنها توجد بكثرة فى تاريخ العصر الحاضر .

---

(١) من الرقية ، وهى العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة .

(٢) صحيح مسلم ٥٩٣/٢ — حديث رقم ٨٦٨ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى . وبقية الحديث كما فى الصحيح : قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام ، قال : فبايعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وعلى قومك » ، قال : وعلى قومى . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقومه ، فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئاً ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة ، فقال : ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد .

وتفسير (ناعوس البحر) بأنه : قعره الأقصى — منقول عن صحيح مسلم ، من إضافة شارحه ، وهى كلمة غير معروفة من كلام العرب ، قال ابن الأثير فى (النهاية فى غريب الحديث ٨١/٥) عن أبى موسى : « هكذا وقع فى صحيح مسلم ، وفى سائر الروايات : (قاموس البحر) أى : وسطه ولجته » . أقول : ولعلها لجبة ضماد . (المراجع)

ثانياً – نبوءات القرآن :

الجانب الثانى من عظمة القرآن الكريم يتجلى فى تنبوءاته المختلفة ، التى ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة .

إن عددا كبيرا من أذكياء الناس . ومن العباقرة . قد جرؤوا على أن يتنبأوا عن أنفسهم أو عن غيرهم . ولكننا نعرف أن الزمان لم يصدق هذه التنبوءات مطلقا ، بل جاء يكذبها بكل قسوة . ولقد تحفز الفرص المواتية ، والأحوال المساعدة . والكفاءات العالية ، وكثرة الأعوان والأنصار . والنجاح الخارق فى البداية الكثيرين – وهم يرون أنهم يسيرون تجاه نتائج مرضية – أن يتنبأوا بنتيجة معينة بكل يقين . ولكن الزمن يبطل هذه الدعاوى ويكذبها دائما . . والزمن نفسه هو الذى أثبت صحة ماجاء فى القرآن من التنبوءات فى حين أنها جميعا جاءت فى أحوال غير مواتية، إن هذه التنبوءات – وقد وقعت فعلا على ما يحدثنا التاريخ – تجعل علومنا المادية حائرة عند تفسيرها . ومـا دمنا ندرسها فى ضوء علومنا المادية . فلن نستطيع إدراك حقائقها . إلا أن ننسبها إلى مصدر غير بشرى .

• • •

كان نابليون بونابرت من أعظم قواد الجيوش فى عصره . وقد دلت فتوحاته الأولى على أنه سوف يكون ندا لقيصر ، والإسكندر المقدونى . وترتب على ذلك أن وجد الغرور منفذه إلى رأس نابليون ، فأصبح يتوهم أنه هو مالك القدر . وازداد هذا الشعور لديه . حتى إنه ترك مستشاريه ، وادعى أنه لم يكتب فى قدره غير الغلبة الكاملة على من فى الأرض . ولكنا جميعا نعرف النهاية التى كتبت له فى لوح القدر .

سار نابليون من باريس يوم ١٢ من يونيه ، سنة ١٨١٥ ، مع جحفله العظيم ، ليقضى على أعدائه وهم فى الطريق . ولم تمض غير ستة أيام حتى ألحق « دوق ولنجتون » شر هزيمة بجيش نابليون الجبار ، فى « ووترلو » بأراضى بلجيكا . وكان (الدوق) يقود جنود انجلترا وألمانيا وهولندا . ولما يئس نابليون ، وأيقن من مصيره المحتوم ، فر هاربا من القيادة الفرنسية متوجها إلى أمريكاولم يكد يصل إلى الشاطئ ، حتى ألقت شرطة السواحل القبض عليه ، وأرغمته على ركوب سفينة تابعة للبحرية البريطانية ، وانتهى به القدر إلى أن أرسل إلى جزيرة غير معمورة بجنوب الأطلنطى ، هى جزيرة « سانت هيلينا » ، ومات القائد العسكرى فى هذه الجزيرة بعد سنوات طويلة من البؤس والشقاء والوحدة ، فى ٥ مايو سنة ١٨٢١ .

• • •

والبيان الشيوعى المعروف ، الذى صدر سنة ١٨٤٨ ، تنبأ بأن أول البلاد التى ستقود الثورة الشيوعية هى(ألمانيا) ، ولكن ألمانيا ، على الرغم من مضى مائة وعشرين عاما من هذه النبوءة ، لا تزال صفحات تاريخها خالية من مثل هذه الثورة .

ولقد كتب كارل ماركس فى مايو سنة ١٨٤٩ قائلا : « إن الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء باريس ! » ورغم أنه قد مر على هذه النبوءة أكثر من قرن ، فإن شمس الجمهورية الحمراء البازغة لم تشرق على أهالى باريس !

• • •

وقد قال أدولف هتلر فى خطابه الشهير الذى ألقاه بميونيخ فى ١٤ من مارس سنة ١٩٣١ :

« إننى سائر فى طريقى ، واثقاً تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لى[1] » . والعالم بأجمعه يعرف اليوم أن الذى كتب فى قدر الجنرال الألمانى العظيم كان هو الهزيمة والانتحار . .

• • •

وقد شاهدنا وقائع عديدة من هذه النبوءات المضحكة فى « الهند » . . فقد أعلن زعيم الشيوعيين : س . ب . جوشى ، فى المؤتمر الثالث للحزب الشيوعى الهندى ، الذى انعقد فى (مدوزاى) بجنوب الهند ، فى يناير سنة ١٩٥٤ ، بأن الحزب الشيوعى سوف يحكم ، مستقلا بنفسه ، فى الانتخابات العامة القادمة ، فى ولايات : ترارنكو ــ كوتشين (كيرالا) ، ومدراس ، وآندهرا ، والبنغال الغربية ، وآســام . وقد أجريت ثلاثة انتخابات عامة (وانتخابات تكميلية أخرى) فى هذه المدة الطويلة ، ولم يستطع الحزب الشيوعى تأليف وزارة مستقلة فى أية ولاية من ولايات الهند[2].

• • •

وسط هذه الجحافل من المتنبئين والنبوءات ، لا نجد غير « القرآن » الذى تحققت نبوءاته حرفاً حرفاً . وهذا الواقع يكفى فى ذاته لإثبات أن هذا الكلام صادر من عقل وراء الطبيعة يمسك بزمام الأحوال والحوادث ، وهو على معرفة بكل ما سيحدث منذ الأزل إلى الأبد ،

وسوف نورد هنا خبرين من التنبوءات الكثيرة التى أدلى بها رسول الإسلام ، وتحققت بكاملها . والشهادتان اللتان سنذكرهما ، تتعلق إحداهما بغلبة الإسلام نفسه ، على حين تتعلق بغلبة الروم مرة أخرى . .

• • •

(أ) عندما بدأ النبى صلى الله عليه وسلم دعوته وقفت الجزيرة العربية كلها ضده ، وكان على النبى مواجهة ثلاث جبهات فى وقت واحد :

---

(١) A Study of History (Abridgment) p. 447.

(٢) تمكن الحزب الشيوعى من تأليف وزارة ائتلافية فى كيرالا فى الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، كما تمكنت « الجبهة المتحدة » فى البنغال الغربية من تأليف وزارة ائتلافية فى الانتخابات التكميلية التى أجريت فى الولاية فى ١٩٦٩ ، وكان الشيوعيون يتمتعون بالأغلبية فى الجهة المتحدة . (المترجم)

أولاها : القبائل المشركة ، بعد أن أصبحوا أعداء حياته .

وثانيها : الرأسمالية اليهودية .

وثالثها : أولئك المنافقون الذين تسربوا داخل المسلمين للقضاء على حركتهم ، من داخل معاقلهم .

وكان الرسول يجاهد فى سبيل رسالته السامية على كل هذه الجبهات : قوة المشركين ، والرأسمالية اليهودية ، والطابور الخامس . وقد وقف أمام هذا الطوفان الطاغى وقفات رائعة لا مثيل لها ، ولم يسانده فى مواقفه غير حفنة من المهاجرين والأنصار ، وجماعة أسلمت من العبيد . ومما لا شك فيه أنه قد انضم إليه بعض كبار قريش ، ولكن سرعان ما انقطعوا عن أهلهم وذويهم ، وعادتهم قريش كمعاداتها للنبى .

وقد سارت هذه الحركة بمكة قدما ، تكافح وتناضل ، حتى أصبحت الأمور غاية فى السوء ، واضطر النبى وأصحابه أن يهاجروا إلى جهات مختلفة ، حتى اجتمع شملهم فى المدينة المنورة ، وهم فى أشد حالات العوز والفقر ، بعد ما تركوا ثرواتهم فى مكة — موطنهم الأصلى . ويمكن قياس بؤس هؤلاء المهاجرين بتلك الجماعة التى عاشت فى المسجد النبوى ، حيث لم تكن لديهم بيوت ، وكانوا ينامون على « صفة » فى فناء المسجد النبوى ، فأطلق عليهم : « أهل الصفة » . ومما روى فى كتب التاريخ أن تعداد هؤلاء الصحابة الكرام ، الذين عاشوا على « الصفة » ، بلغ فى بعض الأحيان أربعمائة صحابى .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون فى ثوب ، فنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من هو أسفل من ذلك ؛ فإذا ركع أحدهم قبض عليه ، مخافة أن تبدو عورته . .

وعنه (أبى هريرة) رضى الله عنه أنه قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ، فيقول الناس : إنه مجنون ، وما بى جنون ، ما بى إلا الجوع ! » .

• • •

وفى هذه الحالة البائسة ، حيث كان المسلمون فى أسوأ أحوالهم ؛ مكشوفين فى عراء المدينة المنورة ، خائفين ، يترقبون الأعداء من كل جانب ، مخافة أن يتخطفوهم فى أى وقت ؛ فى هذه الحالة نجد القرآن يبشرهم مرة بعد أخرى :

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى[1] »

---

(١) المجادلة / ٢١ .

وقال أيضا :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون [1] ».

ولم تمض على هذه البشرى أيام طويلة ، حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم ؛ فقد انتصرت أقلية ضئيلة لا تملك الخيول ولا الأسلحة ، على أعداء يملكون الجيوش الكبيرة ، والعدة ، والعتاد .

وليس بوسعنا تفسير هذه التنبؤات فى ضوء المصطلحات المادية ، إلا أن نسلم بأن صاحب هذا الإخبار بالغيب لم يأت به من عند نفسه ، وإنما كان خليفة عن الله ، فلو أنه كان إنساناً عادياً لاستحال كل الاستحالة أن تصنع كلماته أقدار التاريخ . وكما قال البروفيسور (ستوبارت) « إنه لا يوجد مثال واحد فى التاريخ الإنسانى بأكمله يقارب شخصية محمد . » .
وهو يضيف قائلا :

« ألا . . ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية ، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة ، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية ، فلن نجد فيه اسماً منيراً هذا النور ، وواضحاً هذا الوضوح ، غير اسم النبى العربى[2] » .

إن هذا الأمر هو أعظم دليل على كونه صلى الله عليه وسلم مرسلا من لدن الحق تبارك وتعالى . وقد اعترف السير وليام ميور ، ذلك العدو اللدود للإسلام ، بهذا الأمر بطريقة غير مباشرة ، حين قال :

« لقد دفن محمد مؤامرات أعدائه فى التراب ، وكان يثق بانتصاره ليل نهار ، مع حفنة من الأنصار والأعوان ، رغم أنه كان مكشوفاً عسكرياً من كل ناحية ، وبعبارة أخرى : كان يعيش فى عرين الأسد ، ولكنه أظهر عزيمة جبارة ، لا نجد لها نظيرا غير ما ذكر فى الإنجيل ، من أن نبياً قال لله تعالى : « لم يبق من قومى إلا أنا[3] ! » .

* * *

(ب) أما النبوءة الثانية التى وردت فى القرآن ، فهى الإخبار بغلبة الروم على الفرس . وقد جاء فى أول سورة الروم قوله تعالى :

---

(١) الصف / ٨ و ٩ .
(٢) Islam & Its Founder, p. 228.
(٣) Life of Mohammad, p. 228. – وربما يذكرنا هذا الاقتباس بقول القرآن حكاية على لسان موسى عليه السلام : « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى – المائدة / ٢٥ (المراجع) .

« بسم الله الرحمن الرحيم . ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »

كانت الامبراطورية الفارسية تقع شرقى الجزيرة العربية ، على الساحل الآخر للخليج العربى ، على حين كانت الامبراطورية الرومانية تمتد من غربى الجزيرة على ساحل البحر الأحمر إلى ما فوق البحر الأسود . وقد سميت الأولى – أيضا – بالامبراطورية الساسانية ، والأخرى بالبيزنطية . وكانت حدود الامبراطوريتين تصل إلى الفرات ودجلة ، فى شمال الجزيرة العربية . وكانتا أقوى حكومتين شهدهما ذلك العصر .

ويبدأ تاريخ الامبراطورية الرومانية – كما يرى المؤرخ « جبن » – فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وكانت تتمتع حينئذ بمكانتها كأرقى دولة حضارية فى العالم .

وقد شغل المؤرخين تاريخ زوال الروم ، كما لم يشغلهم زوال أية حضارة أخرى(١). وليس يغنى كتاب من الكتب التى ألفت حول هذا الموضوع عن الكتب الأخرى ، ولكن يمكن اعتبار كتاب المؤرخ « إدوارد جبن » : « تاريخ سقوط وانحدار الامبراطورية الرومانية »(٢) أكثرها تفصيلا وثقة ، وقد ذكر المؤرخ فى الجزء الخامس من كتابه الوقائع المتعلقة ببحثنا هنا .

* * *

اعتنق الملك « قسطنطين » الدين المسيحى عام ٣٢٥ م ، وجعله ديانة البلاد الرسمية ، فآمنت بها أكثرية رعايا الروم . وعلى الجانب الآخر ، رفض الفرس – عباد الشمس – هذه الدعوة .

وكان الملك الذى تولى زمام الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن السابع الميلادى هو « موريس » ، وكان ملكاً غافلا عن شئون البلاد والسياسة ، ولذلك قاد جيشه ثورة ضده ، بقيادة « فوكاس Phocas . وأصبح فوكاس ملك الروم ، بعد نجاح الثورة ، والقضاء على العائلة الملكية بطريقة وحشية ؛ وأرسل سفيراً له إلى امبراطور إيران « كسرى أبرويز الثانى » ، وهو ابن « أنو شيروان » العادل .

وكان « كسرى » هذا مخلصاً للملك « موريس » ، إذ كان قد لجأ إليه عام ٥٩٠ – ٥٩١م ، بسبب مؤامرة داخلية فى الامبراطورية الفارسية ، وقد عاونه « موريس » بجنوده لاستعادة العرش . ومما يروى أيضاً أن « كسرى » تزوج بنت « موريس » ، أثناء إقامته ببلاد الروم ، ولذلك كان يدعوه « بالأب » .

---

(١) Western Civilization, p. 210.

(٢) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, by Edward Gibbon.

ولما عرف بأخبار انقلاب الروم ، غضب غضباً شديداً ، وأمر بسجن السفير الرومى ، وأعلن عدم اعترافه بشرعية حكومة الروم الجديدة .

وأغار « كسرى أبرويز » على بلاد الروم ، وزحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام . ولم يتمكن « فوكاس » من مقاومة جيوش الفرس التى استولت على مدينتى « أنطاكية والقدس » ، فاتسعت حدود الامبراطورية الفارسية فجأة إلى وادى النيل . وكانت بعض الفرق المسيحية — كالنسطورية واليعقوبية — حاقدة على النظام الجديد فى روما ، فناصرت الفاتحين الجدد ، وتبعها اليهود ، مما سهل غلبة الفرس .

* * *

وأرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومى فى المستعمرات الإفريقية ، يناشدونه إنقاذ الامبراطورية ، فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه الشاب « هرقل » ، فسار بجيشه فى الطريق البحرية ، بسرية تامة . . حتى إن « فوكاس » لم يدر بمجيئهم إلا عندما شاهد الأساطيل ، وهى تقترب من السواحل الرومانية ، واستطاع هرقل — دون مقاومة تذكر — أن يستولى على الامبراطورية ، وقتل « فوكاس » الخائن .

بيد أن هرقل لم يتمكن — برغم استيلائه على الامبراطورية ، وقتله « فوكاس » — من إيقاف طوفان الفرس . . فضاع من الروم كل ما ملكوا من البلاد فى شرق العاصمة وجنوبيها . لم يعد العلم الصليبى يرفرف على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، بل علتها راية الفرس : « درفش كاويانى » ! ! وتقلصت الامبراطورية الرومانية فى عاصمتها ، وسدت جميع الطرق فى حصار اقتصادى قاس ؛ وعم القحط ؛ وفشت الأمراض الوبائية ؛ ولم يبق من الامبراطورية غير جذور شجرها العملاق . وكان الشعب فى العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة ، ودخولهم فيها ؛ وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق ، وكسدت التجارة ، وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة .

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية . . فبدءوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة ، ودمروا الكنائس ، وأراقوا دماء ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من المسيحيين المسالمين ، وأقاموا بيوت عبادة النار فى كل مكان ، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار ، واغتصبوا الصليب المقدس وأرسلوه إلى « المدائن » .

ويقول المؤرخ « جبن » فى المجلد الخامس من كتابه :

« ولو كانت نوايا « كسرى » طيبة فى حقيقة الأمر ، لكان اصطلح مع الروم ، بعد قتلهم « فوكاس » ، ولاستقبل « هرقل » كخير صديق أخذ بثأر حليفه وصاحب نعمته « موريس » ، بأحسن طريقة ، ولكنه أبان عن نواياه الحقيقية عندما قرر مواصلة الحرب . »[1]

---

(١) كتاب جبن / مجلد / ٥ ص ٧٤ .

ويمكن قياس الهوة الكبرى التي حدثت بين الروم والفرس من خطاب وجهه « كسرى » إلى « هرقل » ، من بيت المقدس ، قائلا :

« من لدن الإله كسرى ، الذى هو أكبر الآلهة ، وملك الأرض كلها ، إلى عبده اللئيم الغافل : هرقل : إنك تقول : إنك تثق فى إلهك ! فلماذا لا ينقذ إلهك القدس من يدى ؟ ! » .

واستبد اليأس والقنوط بهرقل من هذه الأحوال السيئة ، وقرر العودة إلى قصره الواقع فى « قرطاجنة » على الساحل الإفريقى . . فلم يعد يهمه أن يدافع عن الامبراطورية ، بل كان شغله الشاغل إنقاذ نفسه . وأرسلت السفن الملكية إلى البحر ، وخرج « هرقل » فى طريقه ليستقل إحدى هذه السفن إلى منفاه الاختيارى .

وفى هذه الساعة الحرجة تحايل كبير أساقفة الروم باسم الدين والمسيح ، ونجح فى إقناع « هرقل » بالبقاء ، وذهب « هرقل » مع الأسقف إلى قربان « سانت صوفيا » يعاهد الله تعالى على أنه لن يعيش أو يموت إلا مع الشعب الذى اختاره الله له .

وبإشارة من الجنرال الإيرانى سين (Sain) أرسل « هرقل » سفيراً إلى « كسرى » طالباً منه الصلح ، ولكن لم يكد القاصد الرومى يصل إلى القصر ، حتى صاح « كسرى » فى غضب شديد : « لا أريد هذا القاصد ! وإنما أريد « هرقل » مكبلا بالأغلال تحت عرشى ؛ ولن أصالح « الرومى » حتى يهجر إلهه ، الصليبى ، ويعبد الشمس إلهتنا ! »[1].

* * *

وبعد مضى ستة أعوام على الحرب ، رضى الامبراطور الإيرانى أن يصالح « هرقل » على شروط معينة ، هى أن يدفع ملك الروم :

« ألف تالنت[2] من الذهب ، وألف تالنت من الفضة ، وألف ثوب[3] من الحرير ، وألف جواد ، وألف فتاة عذراء » .

ويصف « جبن » هذه الشروط بأنها « مخزية » دون شك ، وكان من الممكن أن يقبلها « هرقل » ، لولا المدة القصيرة التى أتيحت له لدفعها من المملكة المنهوبة ، والمحدودة الأرجاء ، ولذلك آثر أن يستعمل هذه الثروة كمحاولة أخيرة ، ضد أعدائه .

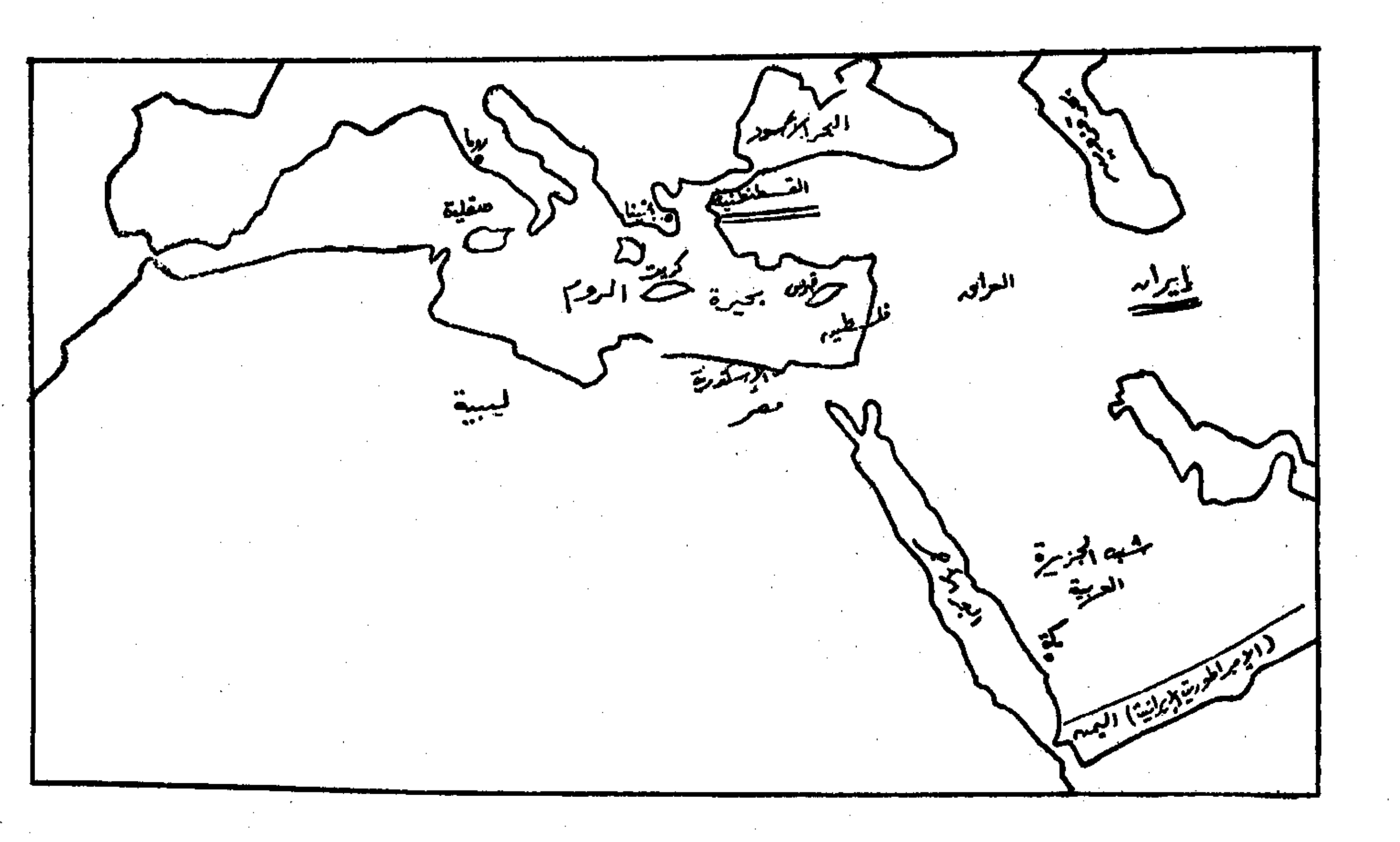
* * *

---

(١) (ص – ٧٦ – ج ٥).

(٢) Talent ، ميزان يونانى قديم ، حوالى ستة وعشرين كيلو جراماً ، لدى الأثينيين ، وقد يطلق على كمية النقود الذهبية أو الفضية التى تزنه – المراجع .

(٣) الثوب : ثلاثون متراً من القماش تقريبا – المراجع .



خريطة الأمبراطوريتين : الفارسية والرومانية

وبينما سيطرت على العاصمتين الفارسية والرومية هذه الأحداث ، فقد سيطرت على شعب العاصمة المركزية فى شبه الجزيرة العربية — وهى « مكة » المكرمة — مشكلة مماثلة : كان الفرس مجوساً من عباد الشمس والنار ، وكان الروم من المؤمنين بالمسيح ، وبالوحى ، وبالرسالة ، وبالله تعالى . وكان المسلمون مع الروم — نفسياً — يرجون غلبهم على الكفار والمشركين ، كما كان كفار مكة مع الفرس ، لكونهم من عباد المظاهر المادية . وأصبح الصراع بين الفرس والروم رمزاً خارجياً للصراع الذى كان يدور بين أهل الإسلام وأهل الشرك فى « مكة » . وبطريقة نفسية كانت كل من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع الخارجى هى نفس مآل صراعهما الداخلى . فلما انتصر الفرس على الروم عام ٦١٦م . واستولوا على جميع المناطق الشرقية من دولة الروم ، انتهزها المشركون فرصة للسخرية من المسلمين ، قائلين : لقد غلب إخواننا على إخوانكم ، وكذلك سوف نقضى عليكم ، إذا لم تصطلحوا معنا تاركين دينكم الجديد ! ! وكان المسلمون بمكة فى أضعف وأسوأ أحوالهم المادية ، وفى تلك الحالة البائسة ، صدرت كلمات من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . — الروم : ١ — ٦ .

وتعليقاً على هذه النبوءة يكتب « جبن » :

« فى ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا ، لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة « هرقل » كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية[1] » .

ولكن من المعلوم أن هذه النبوءة جاءت من لدن من هو مهيمن على كل الوسائل والأحوال ، ومن بيده قلوب الناس وأقدارهم ، ولم يكد جبريل يبشر النبى بهذه البشرى ، حتى أخذ انقلاب يظهر على شاشة الإمبراطورية الرومانية ! !

ويرويه « جبن » على النحو التالى :

« إنها من أبرز البطولات التاريخية ، تلك التى نراها فى « هرقل » . فقد ظهر هذا الإمبراطور غاية فى الكسل والتمتع بالملذات وعبادة الأوهام فى السنين الأولى والأخيرة من حكومته ، كان يبدو كما لو كان متفرجاً أبله ، استسلم لمصائب شعبه ، ولكن الضباب

---

(١) ص — ٧٤ ، المجلد ٥ .

الذى يسود السماء ساعتى الصباح والمساء ، يغيب حينا من الوقت لشدة شمس الظهيرة ؛ وهذا هو ما حدث بالنسبة إلى هرقل ، فقد تحول « أرقاديوس[1] القصور » إلى « قيصر ميدان الحرب[2] » فجأة ، واستطاع أن يستعيد مجد الروم خلال ست حروب شجاعة شنها ضد الفرس . وكان من واجب المؤرخين الروم أن يزيحوا الستار عن الحقيقة ، تبيانا لأسرار هذه اليقظة والنوم ، وبعد هذه القرون التى مضت يمكننا الحكم بأنه لم تكن هناك دوافع سياسية وراء هذه البطولة ، بل كانت نتيجة غريزة هرقل الذاتية ، فقد انقطع عن كافة الملذات ، حتى إنه هجر ابنة أخته « مارتينا » — التى تزوجها لشدة هيامه بها ، رغم أنها كانت محرمة عليه[3] » .

• • •

هرقل — ذلك الملك الغافل الفاقد العزيمة — وضع خطة عظيمة لقهر الفرس ، وبدأ فى تجهيز العدة والعتاد ، ولكن رغم ذلك كله ، عندما خرج هرقل مع جنوده ، بدا لكثيرين من سكان « القسطنطينية » أنهم يرون آخر جيش فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية .

وكان هرقل يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة ، ولذلك أعد بحريته للإغارة على الفرس من الخلف . وسار بجيوشه عن طريق البحر الأسود إلى « أرمينيا » ، وشن على الفرس هجوما مفاجئا فى نفس الميدان الذى هزم فيه الإسكندر جيوش الفرس ، لما زحف على أراضى مصر والشام . ولم يستطع الفرس مقاومة هذه الغارة المفاجئة ، فلاذوا بالفرار .

وكان الفرس يملكون جيشا كبيراً فى « آسيا الصغرى » ، ولكن « هرقل » فاجأهم بأساطيله مرة أخرى ، وأنزل بهم هزيمة فادحة ، وبعد إحراز هذا النصر الكبير عاد « هرقل » إلى عاصمته « القسطنطينية » عن طريق البحر ، وعقد معاهدة مع الأفاريين (Avars) ، واستطاع بنصرتهم أن يسد سيل الفرس عند عاصمتهم .

وبعد الحربين اللتين مر ذكرهما شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس فى سنوات ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ م . واستطاع أن ينفذ إلى أراضى العراق القديم (ميسو بوتانيا) عن طريق البحر الأسود ، واضطر الفرس إلى الانسحاب من جميع الأراضى الرومية ، نتيجة هذه الحروب ، وأصبح « هرقل » فى مركز يسمح له بالتوغل فى قلب الإمبراطورية

---

(١) أرقاديوس (٣٧٧ — ٤٠٨ م) ، أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الأكبر لتيودوس الأول ، تولى العرش سنة ٣٩٥ م . واشتهر بالجبن — المراجع .

(٢) قيصر أو « سيراز » (١٤٤ — ١٠١ ق . م .) قائد وسياسى رومى عظيم .

(٣) ص — ٧٦ — ٧٧ ، المجلد الخامس .

الفارسية ، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية – تلك الحرب التى خاضها الفريقان فى « نينوا » على ضفاف « دجلة » فى ديسمبر عام ٦٢٧ م .

* * *

ولما لم يستطع « كسرى أبرويز » مقاومة سيل الروم ، حاول الفرار من قصره الحبيب « دستكرد » ، ولكن ثورة داخلية نشبت فى الإمبراطورية ، واعتقله ابنه « شيرويه وزج به فى سجن داخل القصر الملكى ، حيث لقى حتفه ، لسوء الأحوال فى اليوم الخامس من اعتقاله ، وقد قتل ابنه « شيرويه » ثمانى عشرة من أبناء أبيه (كسرى) أمام عينيه .

ولكن « شيرويه » هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر ، حيث قتله أحد أشقائه ، وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكى ، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم فى غضون أربعة أعوام . ولم يكن من الممكن ، أو المعقول فى هذه الأحوال السيئة ، أن يواصل الفرس حربهم ضد الروم . . . فأرسل « قباد الثانى » ابن كسرى أبرويز الثانى يرجو الصلح ، وأعلن تنازله عن الأراضى الرومية ، كما أعاد الصليب المقدس ، ورجع « هرقل » إلى عاصمته « القسطنطينية » فى مارس عام ٦٢٨ م ، فى احتفال رائع ، حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال ، واستقبله آلاف مؤلفة من الجماهير ، خارج العاصمة ، وفى أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون[1] ! !

* * *

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم فى مدته المقررة ، أى فى أقل من عشر سنين ، كما هو المراد فى لغة العرب من كلمة : « بضع » !

وقد أبدى « جبن » حيرته وإعجابه بهذه النبوءة ، ولكنه كى يقلل من أهميتها ربطها برسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى « كسرى » .

يقول جبن :

« وعندما أتم الإمبراطور الفارسى نصره على الروم وصلته رسالة من مواطن خامل الذكر ، من « مكة » دعاه إلى الإيمان بمحمد ، رسول الله ، ولكنه رفض هذه الدعوة ومزق الرسالة ؛ وعندما بلغ هذا الخبر رسول العرب ، قال : سوف يمزق الله دولته تمزيقا ، وسوف يقضى على قوته .

« ومحمد ، الذى جلس فى الشرق على حاشية الإمبراطوريتين العظيمتين ، طار فرحا ، مما سمع عن تصارع الإمبراطوريتين وقتالهما ، وجرؤ فى إبان الفتوحات الفارسية وبلوغها القمة

---

(١) جبن : ص – ٩٤ ، ج – ٥ .

أن يتنبأ بأن الغلبة تكون لراية الروم بعد بضع سنين . وفى ذلك الوقت ، حين ساق الرجل هذه النبوءة ، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعا ، لأن الأعوام الاثنى عشر الأولى من حكومة هرقل كانت تشى بنهاية الإمبراطورية الرومانية[1] . »

بيد أن جميع مؤرخى الإسلام يعرفون معرفة تامة أن هذه النبوءة لا علاقة لها بالرسالة التى وجهها النبى إلى « كسرى أبرويز » ، لأن تلك الرسالة إنما أرسلت فى العـــام السابع من الهجرة ، بعد صلح الحديبية ، أى عام ٦٢٨ م ، فى حين أن آية النبوءة المذكورة نزلت بمـــكة عام ٦١٦ م ، أى قبل الهجـــرة بوقت طـــويل ، فبين الحدثين فاصل يبلـــغ اثنى عشر عاما[2] .

* * *

ثالثاً : القرآن والكشوف الحديثة :

والميزة الثالثة التى سوف أدرسها فى هذا الباب للإبانة عن صدق القرآن وحقيته : هى أنه رغم نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة ، لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه ، ولو أنه كان كلاما بشريا لكان هذا ضربا من المستحيل .

* * *

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس بجامعة كاليفورنيا منذ بضع سنين ، وقد ذهب اثنا عشر من هؤلاء الطلبة إلى كاهن « كنيسة بركلى » طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحى فى أيام الأحد ، وقالوا له بكل صراحة : إننا غير راغبين فى اعتناق المسيحية ، ولـكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية ، واختار القسيس عالمـــا فى الرياضة والفلك ، هو البروفيسور « بيتر و . ستونر » ، للتدريس لهؤلاء الشبان . وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحى ! !

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش ، فلنسمعها من الأستاذ نفسه :

« لقد كان الســـؤال الأول أمامى : ماذا أقول لهم عن الدين ؟ إنهم لا يؤمنون بالإنجيل إطلاقا ، وتدريس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتى بفائدة ما ، وفى ذلك الوقت تذكرت أنى أثناء دراستى كنت ألاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين فى الإنجيل ، ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب .

« وكنا — أنا والطلبة — نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء فى هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب قبل آلاف السنين من كشوف العلـــوم الحديثة عن الأرض والسماء ، وكنا نشعر

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) أنظر : Encyclopaedia of Religion and Ethics جـ ١٠/٥٤٠-٥٤٥ .

كذلك أن أفكار الناس فى زمن موسى ستبدو لغواً باطلا ، لو درسناها فى ضوء معلومات العصر الحاضر .

« وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس فى سفر التكوين ، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء فى هذا السفر ، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد فى مكتبة الجامعة . وعند انتهاء الشتاء أخبرنى القسيس أن الطلبة حضروا إليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية ، وقد أقروا أنه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله[1] . »

• • •

وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض فى بداية الأمر :

« لقد غشى على الأسوار ظلام »[2]

وهذا هو أحسن تصوير لحالة التى وجدت فى الأرض فى ذلك الوقت ، كما عرفناها من العلوم الحديثة ، فكان سطح الأرض حارا جــدا ، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة ، ولم يصل النور إلى سطح الأرض ، لأن مياه بحارنا كانت معلقة فى صورة سحب كثيفة ، فى الفضاء ، وكان ظلام حالك يسود الأرض .

• • •

إننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية ، مثل القرآن الكريم ، ولذلك توجد فيهما قبسات من العلم الإلهى ، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت ، وطرأ فارق كبير بين الإنجيل الحقيقى وإنجيل هذا العصر ، بعد مضى ألفى عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى ، ثم بأعمال التحريف البشرى Human Interpolation الذى أصاب النسخة الإلهية أكثر ما أصاب ، على حد تعبير العالم الأمريكى « كريسى موريسون[3] » .

ولمــا كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها ، بنتيجة لمــا حدث ، فقد أرسل الله تعالى « طبعة جــديدة » من كتابه إلى البشر ، وهــذا الكتاب هو « القرآن الكــريم » وهو يحمل ، من أجل صحته وكماله ، كل الميزات والخصــائص التى لاتوجد منها سوى لمحات فى الكتب القديمــة .

---

(١) The Evidence of God, pp. 137-38.

(٢) تقول الترجمة العربية للتوراة (المنقولة عن اليونانية) : « وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة . » الإصحاح : ١ – (المراجع)

(٣) Man Does not Stand Alone, p. 120. ، ومن الثابت أن الأناجيل لم تكتب فى حياة المسيح ، ولا حتى بعــد وفاته بنصف قرن كما أن التوراة آخر ما كتب من عصر السبى البابلى (٥٨٦ – ٥٣٨ ق . م . (المراجع)

وسوف أستعرض هنا هذه الخاصة دليلا ثالثا من أدلتي على صدق القرآن الكريم ، ولقد أنزل القرآن قبل عصر النهضة ، ولكن أحدا من الناس لم يستطع إبطـال شئ مما جـاء به ، ولو كان هذا القرآن من كلام البشر ، لعد ذلك ضربا من ضروب الإحالة .

• • •

نزل القرآن فى عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا القليل النـادر ، وكانوا يرون أن الأمطـار تنزل من السماء ، وأن الأرض مستوية ، كالفراش ، وأن السماء سقف الأرض ، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة فى قبة السماء ، أو أنها قناديل معلقة فى الفضاء ! وكان أهل الهنـد الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرنى « البقرة الأم » ، وهى حين تقـوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحـدث زلـزال على البسيطة[1]. وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك ، وأن الأرض تدور حولها ، إلى أن جاء (كوبرنيك » (١٤٧٣/١٥٤٣ م) ، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس .

• • •

وهكذا تقدم العلم رويدا رويدا ، إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان ، فكشف عن أسرار كثيرة . والآن لا نجد جزءاً مـا من معلوماتنا عن أجزاء الجسم ، وشعب العلم المختلفة ، إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية ، وثبت بطلان عقـائد العصر القديم .

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنسانى تدوم صحته كليا . . . لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلـوم فى عصره ، إنه سوف يسرد ما وجده فى زمنه ، سواء وقع كلامه فى دائرة الشعور أو اللاشعور . ولذلك لا نجد كتـابا مضى عليه حين من الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه ، نظراً إلى الكشوف الجديدة فى كل الميـادين .

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية ! فهو حق وصادق فى كل ما قال ، كما كان فى القرون الغابرة . ولم يطـرأ على مقاله أى تغير رغم مضى قرون وعصور طويلة . وهذا فى نفسه دليل على أن منبعه عقل جبـار يحيط بالأزل وبالأبد علمـا ، وهو يعلم سائر الحقائق فى صورها النهائية والحقيقية ، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال . ولو كان هذا الكلام صادرا عن بشر محدودى النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة ، كما يحدث لكل كلام إنسانى فى مستقبله .

---

(١) شاعت هذه العقيدة الخرافية كذلك فى أوساط العوام وأشباه المتعلمين فى شرقنا العربى ، وإن كان تيار المعرفة العامة الآن يقضى على مثل هذه الخرافات — (المراجع) .

إن المحور الحقيقى لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية ، فهو بذلك لا يدخل فى دائرة أى من علومنا وفنوننا الحديثة . ولكن حيث إنه يخاطب « الإنسان » فى حقيقة الأمر ، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان ، وهى مسألة دقيقة ، وموقف جد خطير . . لأن المرء حين يكون جاهلا ، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما ، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة — ولو إجمالا — فلابد أن يكبو فى حديثه ، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق !

وعلى سبيل المثال : قال أرسطو استدلالا على أسبقية الرجل على المرأة : إن فم المرأة يحوى أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل !! ومن المعروف أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام ، بل هو يدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم ، فإن عدد الأسنان سواء لدى الرجل والمرأة . ولكن من المدهش حقاً أن القرآن — حتى فيما يمس أكثر العلوم الحديثة من ناحية أو أخرى — لا يحتوى كلمة ما أثبت العلم فيما بعد ، أنها من صنع رجل جاهل بذلك الموضوع ، وهذا يوضح صراحة أنه كلام موجود فوق الطبيعة ؛ وهو على معرفة تامة بكل شئ على حين لم يكن أحد يعلم شيئاً ، وهو يعلم أيضاً كل ما يجهله البشر فى هذا العصر ، مع تقدم العلوم . .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التى تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التى لم تعرف إلا فى عصرنا هذا ، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها .

ويجب أن أقول ، تمهيداً لهذا البحث : إن مطابقة كلمات « القرآن » وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث ، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية فى ذلك الموضوع . ولو أن دراسة المستقبل فى موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدق القرآن ، بل معناه أن المفسر أخطأ فى محاولته لتفسير إشارة مجملة فى القرآن ، وإننى لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لإشارات القرآن ، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة .

* * *

تقسيم لآيات القرآن :

ونستطيع أن نقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين :

الأول : ما عرف عنه الإنسان — حتى ذلك العصر — أموراً جانبية وسطحية .

والثانى : ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئاً ، مطلقاً .

إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية ؛ وكانت معرفتهم هذه ناقصة جداً بالنسبة إلى المعرفة التى أتيحت للإنسان اليوم ، بفضل الاختراعات الحديثة . وقد واجه القرآن فى هذا الصدد مشكلة كبرى ، فهو لم يكن كتاباً فى العلوم والهندسة ، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء فى القرآن ، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقى من نزول القرآن ، وهو إصلاح العقل الإنسانى وتزكيته . فمن إعجاز القرآن أنه تكلم فى لغة العلم ، قبل كشفه ، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم ، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث !

* * *

النوع الأول :

(ا) ذكر القرآن الكريم قانوناً خاصاً بالماء فى سورتين : هما الفرقان والرحمن . وجاء فى السورة الأولى :

« وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج . وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا[1] » .

وأما الآية التى وردت فى السورة الأخرى فهى تقول :

« مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان »[2].

إن الظاهرة الطبيعية التى يذكرها القرآن فى هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور ؛ وهى أنه إذا ما التقى نهران فى ممر مائى واحد فماء أحدهما لا يدخل (أى لا يذوب) فى الآخر . وهناك ، على سبيل المثال ، نهران يسيران فى « تشاتغام » بباكستان الشرقية إلى مدينة « أركان » ، فى « بورما » ، ويمكن مشاهدة النهرين ، مستقلا أحدهما عن الآخر ، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما ، حداً فاصلا ؛ والماء عذب فى جانب ، وملح فى جانب آخر . وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل ، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث « المد البحرى » ، ولكنهما لا يختلطان ، ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج . وهكذا شاهدت عند ملتقى نهرى الكنج والجامونا ، فى مدينة « الله آباد » ، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما ، ويبدو أن خيطاً فاصلا يميز أحدهما من الآخر[3] .

إن هذه الظاهرة ، كما قلت ، كانت معروفة لدى الإنسان القديم . . ولكنا لم نكشف

---

(١) الفرقان / ٥٣ .

(٢) الرحمن / ٢٠ - ٢١ .

(٣) وهو ما كان يشاهد عند التقاء النيل بالبحر الأبيض ، قبل بناء السد العالى - **(المراجع)** .

قانونها إلا منذ بضع عشرات من السنين . فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة ، يسمى « قانون المط السطحى » Surface Tension ، وهو يفصل بين السائلين ؛ لأن « تجاذب » الجزئيات يختلف من سائل لآخر ، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله فى مجاله . وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون ، الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه : « بينهما برزخ لا يبغيان » . وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء ، كما لم تتعارض مع المشاهدة الحديثة ، ونستطيع ، بكل ثقة ، أن نقول : إن المراد من « البرزخ » إنما هو « المط أو التمدد السطحى » ، الذى يوجد فى الماءين ، والذى يفصل أحدهما عن الآخر .

ويمكن فهم هذا المط السطحى بمثال بسيط ، وهو : أنك لو ملأت كوباً بالماء ، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معيناً . . والسبب فى ذلك أن « جزئيات » السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب ، تتحول إلى ما هو تحتها ، وعندئذ توجد « غشاوة مرنة » Elastic Film على سطح الماء ؛ وهذه الغشاوة هى التى تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة ، وهى غشاوة قوية لدرجة أنك لو وضعت عليها إبرة من حديد فإنها لن تغوص ! وهذه الظاهرة هى ما يسمى بالمط السطحى ، الذى يحول دون اختلاط الماء والزيت ، والذى يفصل بين الماء العذب والملح .

• • •

(ب) وجاءت فى القرآن بيانات مماثلة ، وعلى سبيل المثال :

« الله الذى رفع السموات ، بغير عمد ترونها »

وهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم ؛ فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته فى الفضاء ، مكوناً من الشمس والقمر والنجوم ، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة ، والرجل الجديد يجد فى هذه الآية تفسيراً لمشاهدته ، التى تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد فى الفضاء اللانهائى ، بيد أن هنالك « عمداً غير مرئية » ؛ تتمثل فى قانون « الجاذبية » Gravitation Pull ؛ وهى التى تساعد كل هذه الأجرام على البقاء فى أمكنتها المحددة .

• • •

(جـ) وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم :

« وكل فى فلك يسبحون »

وكان الإنسان فى العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت

---

(١) الرعد / ٢.
(٢) يس / ٤٠ .

معين . ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآنى موضع دهشتهم واستغرابهم ، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوباً جديداً ؛ فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من « السباحة » لدوران الأجرام السماوية فى الفضاء البسيط اللطيف !

* * *

(د) وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار :

« يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثاً »

إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجئ الليل بعد النهار . . ولكنها تحوى إشارة رائعة إلى دوران الأرض محورياً ، وهو الدوران الذى يعتبر سبب مجئ الليل والنهار ، طبقاً لمعلوماتنا الحديثة .

وسوف أذكر القراء — هنا — بأن من بين المشاهدات التى أدلى بها رجل الفضاء الروسى « جاجارين » ، بعد دورانه فى الفضاء حول الأرض : أنه شاهد « تعاقبة سريعاً » Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحورى حول الشمس.

وهناك بيانات كثيرة جداً من هذا القبيل فى القرآن الكريم . .

* * *

النوع الثانى من الآيات :

وأما النوع الثانى من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئاً ما على الإطلاق . وقد تناول القرآن تلك الموضوعات ، كاشفاً الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ، ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة ، وسوف أعرض فى الصفحات التالية بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة .

* * *

أولا : علم الفلك :

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومحدودة المعالم حول بداية الكون المادى ونهايته ، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الإنسان الجديد قبل قرن من الزمان . . أما الإنسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها ، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء فى القرآن الكريم .

---

(١) الأعراف / ٥٤ .

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالى :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما[1] » .

أما عن نهاية الكون ، فهو يقول :

« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب »[2] .

فالكون ، بناء على تفسير هذه الآيات كان منضماً ومتماسكاً (الرتق : منضم الأجزاء) ، ثم بدأ يتمدد فى الفضاء ، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى فى حيز صغير .

وهذه هى الفكرة العلمية الجديدة عن الكون ؛ فقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون ، إلى أن « المادة » كانت جامدة وساكنة فى أول الأمر ؛ وكانت فى صورة غاز ساخن ، كثيف ، متماسك . وقد حدث انفجار شديد فى هذه المادة قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل ، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها . ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمراً حتمياً ، لابد من استمراره ، طبقاً لقوانين الطبيعة ، التى تقول : إن قوة « الجاذبية » فى هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها (ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة) .

ويعتقد العلماء أن دائرة المادة كانت ١,٠٠٠ مليون سنة ضوئية ، فى أول الأمر . وقد أصبحت هذه الدائرة الآن ، كما يقول البروفيسور « إيدنجتون » : عشرة أمثال بالنسبة إلى الدائرة الحقيقية . وهذه العملية من التوسع والامتداد مستمرة دون ما توقف . وكما يقول البروفيسور « إيدنجتون » :

« إن مثال النجوم والمجرات : كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط ، وهو ينتفخ باستمرار ؛ وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية ، فى عملية التوسع الكونى[3] » .

وأما الأمر الآخر ، فقد ثبت لنا صدقه ، كما ورد فى القرآن . فكان الإنسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأى العين ؛ ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض وهى فى حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية .

ولم يقف الأمر بنا عند هذا الحد ، بل عرفنا أيضاً أن تلك الأجسام والأجرام التى كنا نشاهدها فى قديم الزمن ، وكنا نحسبها كاملة وسالمة ، أكثرها يحتوى على فضاء خال .

---

(١) الأنبياء / ٣٠ .

(٢) السابقة / ١٠٤ .

(٣) The Limitations of Science, p. 20.

وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له ، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم وسارات كثيرة . ومن أمثلته نظام « الذرة » . فنحن نشاهد الفضاء الخالي في « النظام الشمسي » ، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء « النظام النووي » لصغر حجمه المتناهي . . حتى إنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام[1] . ومعنى ذلك أن كل شيء حتى لو بدا متماسكاً — يحوي حيزاً من الفضاء في داخله . ومثاله : أننا لو جردنا الفضاء أو المكان Space من الذرات المادية في الجسم الإنساني ، ذات الستة الأمتار ، فلن نجد إلا كمية قليلة جداً من المادة ، تكاد تكون متناهية الوجود .

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro-Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكاناً ، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفاً من حجم الشمس ! ! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي .

* * *

٣ — لقد توصل العلماء ، خلال أبحاثهم ، إلى أنه لابد في المستقبل القريب — وطبقاً لقانون دوران الأجرام السماوية — أن يقترب القمر من الأرض ، حتى ينشق من شدة الجاذبية ، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء[2] . وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار . فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء ، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠,٠٠٠ ميلا ، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يومياً ، حيث ترتفع فيها أحياناً أمواج يبلغ طولها ستين متراً ، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات ! !

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماماً لصالح أهل الأرض . ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفاً من الأميال — على سبيل المثال — فسوف يحدث طوفان شديد في البحار ، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة ، وسوف يغرق كل شيء ، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار ، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية ! !

ويرى علماء الفلك أيضاً أن الأرض قد مرت بكل هذه الأدوار أثناء عملية التكوين ، حتى وصلت إلى بعدها الحالي من القمر ، بناء على قانون الفلك ، وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى . . ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل

---

(١) أنظر التفصيلات عن « الذرة » في الباب الرابع من هذا الكتاب .

(٢) Man Does not Stand Alone, p. 24.

بليون سنة[1] . وعندئذ سوف ينشق القمر ، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض فى صورة حلقة .

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة فى القرآن الكريم ، حول انشقاق القمر ، حين تقترب القيامة[2] ؟

اقرأوا قوله تعالى :

« اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر[3] » .

* * *

ثانياً – علم طبقات الأرض :

١ – جاء فى القرآن الكريم ، غير مرة ، أن الجبال أرسيت فى الأرض حفاظاً على توازنها ، ومن ذلك قوله تعالى :

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم[4] » .

ولقد ظل العلم جاهلا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية ، ولكن دارسى الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم « قانون التوازن » Isostasy . ولا يزال العلم الحديث فى مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون ، ويقول الأستاذ إنجان :

---

(١) هذا مجرد تعبير عن الإمكان العلمى ، وحدوده الزمنية . وليس ببعيد أن تقع هذه الظاهرة فى وقت أقل مما حدده الفلكيون ، وكلامهم لا ينفى هذا .

(٢) رويت معجزة « انشقاق القمر » فى الصحيحين وكتب الحديث الأخرى ، بروايات صحيحة الإسناد ، ومنها ما رواه عبد الله بن مسعود (رضى الله تعالى عنه) ، وهو من الشهود العيان لذلك الحادث الخارق ، وبرغم ذلك لا تزال مسألة « انشقاق القمر » موضع خلاف شديد بين المفسرين والعلماء . فيرى الجمهور أنه قد حدث فعلا ، « ... وقال بعض المفسرين : سينشق » كما يرى صاحب التفسير « الكبير » ، ومن القائلين به الإمام الحسن البصرى ، وقد نقل عنه أبو حيان الأندلسى القول التالى : « إن المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية » . البحر المحيط ، ج – ٨ ، ص – ١٧٣ وهناك فئة ثالثة من العلماء تؤثر « التوفيق » بين الرأيين ، فهم يرون أن معجزة شق القمر ، التى جاء ذكرها فى الأحاديث وقعت أمام جمع من المسلمين والمشركين « بمنى » فى مكة المكرمة . ويرى الإمام الغزالى والشاه ولى الله الدهلوى أنها وقعت « بتصرف البصر » . ومن الممكن أن تكون قد حدثت فعلا نتيجة انشقاق فلكى . وهكذا ستكون الواقعة الأولى آية أولية للأحداث التى سوف يجرى وقوعها قرب القيامة . وفيها يقول المفسر الهندى الكبير العلامة شبير أحمد العثمانى فى تفسيره للقرآن :

« لقد كانت معجزة شق القمر مثالا على أن كل شئ سينشق هكذا عند اقتراب القيـــامة » .

(٣) القمر / ١ و ٢ .

(٤) لقمان / ١٠ .

« من المفهوم الآن أن المادة – الأقل وزناً – ارتفعت على سطح الأرض ، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية ، وهي التي نراها الآن في شكل البحار . وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض(1) » .

ويرى عالم آخر من باحثي الجغرافيا :

« وفي البحار ، أيضاً ، توجد وديان مثل وديان البر . ولكن وديان البحر أكثر غوراً وأبعد عمقاً من تلك التي توجد في البر ؛ كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان . ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار . (ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر ؛ وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعاً . ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحياناً أنه لو وضعت فيها قمة « إيفرست » ، من سلسلة جبال « الهملايا » ، والتي يبلغ طولها ٢٩,٠٠٢ ، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل) !

« ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدل أن توجد في أعالي البحار . ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل ، الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار . ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية . . وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة) . ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل . وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في هذه الوديان ، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب . ولهذا من الممكن – بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية – أن تبرز جبال جديدة في أي وقت ، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر ، ومما يؤكد ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية .

وعلى كل حال ، لا توجد نظرية – في ضوء المعلومات الحالية للإنسان – لتقوم بتفسير الوديان البحرية ، وهذه المغارات الدائمة البرودة ، والتي توجد في ظلام حالك ، وتحت ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة – لا زال ذلك كله لغزاً أمام الإنسان ، كألغاز البحر الأخرى(2) !! »

٢ – وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله ؛ قال تعالى :

---

(١) C.R. Von Anglen, Geomovphology, pp. 26-27, (N.Y., 1948)

(٢) The World We Live In, N.Y., 1955.

« والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها[1] » .

وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية ؛ وهو : « نظرية تباعد القارات» أو انتشارها (Theory of Drifting Continents) . ومغزى هذه النظرية : أن جميع القارات كانت فى وقت من الأوقات أجزاء متصلة ، ثم انشقت وبدأت « تنقذف » ، أو تنتشر من تلقاء نفسها ، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة .

وقد طرحت هذه النظرية فى العالم عام ١٩١٥ ، لأول مرة ، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألمانى الأستاذ « الفريد واجنر » أنه لو قربت القارات جميعاً ، فسوف تتماسك بعضها ، كما يحدث فى ألعاب الألغاز التى تسمى Jigsaw Puzzle . ويمكن مشاهدتها فى الأشكال الثلاثة ، التى تبين هذه النظرية « انظر ص ١٥٠ » .

* * *

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة ، كأن نجد جبالا متماثلة عمرها الأرضى (واحد) ؛ وكأن نجد فيها دواب وأسماكاً ونباتات متماثلة أيضاً ! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور رونالد جود (Rand Good) فى كتابه : جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants) – إلى أن تقول :

« لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة فى مختلف قارات العالم إلا إذا سلمنا بأن أجزاء الأرض هذه كانت متصلا بعضها ببعض فى وقت من الأوقات » .

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماماً بعد تصديق « الجاذبية الحجرية » لها (Fossil Magnetism) ، فإن العلماء اليوم – بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة – يستطيعون تحديد موقع أى بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة فى الزمن القديم ، وقد أكدت هذه الدراسة فى « الجاذبية الأرضية » أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة فى القديم بالأمكنة التى توجد بها اليوم ، وإنما كانت فى ذلك المكان الذى تحدده « نظرية تباعد القارات ، وفى هذا الأمر يقول البروفيسور بلاكيت[2] :

« إن دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد فى جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة ؛ وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب إفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبى قبل ثلاثمائة مليون سنة[3] » .

* * *

---

(١) النازعات / ٣٠ – ٣١ .

(٢) P.M.S. Blacket ، أستاذ (الطبيعة) فى الكلية الملكية بلندن – المعرب .

(٣) أنظر لتفصيل : ريدرز دايجست ، عدد يونيه (حزيران) من عام ١٩٦١ .



الشكل الأول : يبيّن حالة الأرض في بداية أمرها ، قبل ثلاثمائة مليون سنة



الشكل الثاني : يبين حالة الأرض أثناء عملية انتشار وتباعد قاراتها .
وقد بدأت هذه العملية قبل خمسين مليون سنة



الشكل الثالث : يبين حالة الأرض بعد أن استقر أمرها ، قبل مليون سنة

لقد ورد فى الآية المذكورة آنفاً لفظة « الدحو » ، ومعناه تسوية الشئ ونثره ، كما يقال : « دحا المطر الحصى عن وجه الأرض » ، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية : «Drift » التى استخدمت فى التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة .

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد فى الماضى البعيد ، وما اكتشف بالأمس القريب — إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضى ، والحال ، والمستقبل ، على السواء .

* * *

ثالثا ـ علم الأغذية :

إن قائمة الأغذية التى يقررها لنا القرآن الكريم تحرم (الدم) ، وكان الإنسان غافلا عن أهمية هذا التحريم ، ولكن التحليلات التى أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنيا على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة . فالتحليل يثبت أن (الدم) يحتوى كمية كبيرة من « حمض البوليك » Uric Acid ، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء . وهذا هو السر فى الطريقة الخاصة التى أمر بها القرآن فى ذبح الحيوانات . والمراد من « الذبح » فى المصطلح الإسلامى هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان ، وهى أن نقطع الوريد الرئيسى . الذى يوجد فى العنق ، فقط . وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى ، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان ، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التى وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية ، كالدماغ ، أو القلب ، أو الكبد ، والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد فى العروق ، وتسرى إلى أجزاء الجسم ، لو مات الحيوان فى الحال—على إثر صدمة عنيفة—وهكذا يتسمم اللحم كله ، نتيجة سريان «حمض البوليك» فى أنحائه .

ولقد حرم القرآن لحم (الخنزير) ، ولم يعرف الإنسان فى الماضى شيئا عن أسرار هذا التحريم ، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضا كثيرة ، لأنه يحتوى أكبر كمية من « حمض البوليك » بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض ، أما الحيوانات الأخرى ، غير الخنزير ، فهى تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول . وجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة (الكليتين) . ولكن الخنزير لايتمكن من إخراج «حمض البوليك» إلا بنسبة اثنين فى المائة (٢٪) ، والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل ، والذين يأكلون لحمه ، هم الآخرون ، يشكون من آلام المفاصل ، والروماتيزم(١) ،

---

(١) ليكن مفهوما هنا أنه عند وصف تأثير أى غذاء ، لا يمكن إلا بيان تأثيره الذاتى من المنافع والمضار ، وليس معناه أن تأثير ذلك الغذاء سوف يكون واحداً لدى كل إنسان يأكله . والسبب فى ذلك أن الإنسان لا يأكل شيئاً بمفرده ، وإنما يتناوله مع مأكولات من أنواع عديدة ، ولذلك قد ينقص تأثير ذلك الغذاء ، أو يزول فى بعض الأحايين ، نتيجة ردود الفعل والأغذية المضادة لتأثير ذلك الغذاء ، وعلى رغم ذلك كله فلا يمكننا وصف تأثير أى شئ إلا بما عرف عنه بصفته الفردية .

وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة(١).

• • •

إن الباحث فى القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها من هذا القبيل الذى أشرنا إلى بعضه فى الصفحات الماضية ، وهى دليل قطعى على أن القرآن صادر عن عقل غير إنسانى. وتؤكد البحوث التى اضطلع بها العلماء فى العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوءة التى وردت فى القرآن الكريم :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق(٢) » .

• • •

وسوف أختم هذا الباب بواقعة رواها العالم الهندى المغفور له الدكتور عناية الله المشرقى ، وهو يقول :

« كان ذلك يوم أحد ، من أيام سنة ١٩٠٩ ، وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز – الأستاذ بجامعة كمبردج – ذاهبا إلى الكنيسة ، والإنجيل والشمسية تحت إبطه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فسلمت عليه مرة أخرى ، فسألنى : « ماذا تريد منى ؟ » فقلت له : « أمرين ، يا سيدى ! الأول هو : أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر ! » فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور . فقلت له : « وأما الأمر الآخر فهو : ما الذى يدفع رجلا ذائع الصيت فى العالم – مثلك – أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ » وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ، ثم قال : « عليك اليوم أن تأخذ شاى المساء عندى » . وعندما وصلت إلى داره فى المساء ، خرجت « ليدى جيمس » فى تمام الساعة الرابعة ، بالضبط ، وأخبرتنى أن السير جيمس ينتظرنى . وعندما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاى . وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره . وعندما شعر بوجودى ، سألنى : «ماذا كان سؤالك ؟ » ، ودون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ، ونظامها المدهش ، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية ، وطرقها ، ومداراتها وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها المذهلة ، حتى إننى شعرت بقلبى يهتز بهيبة الله وجلاله . وأما (السير جيمس)

---

(١) لعل العلة الأخرى فى تحريم الخنزير أساساً أنه حيوان قذر ، يأكل النجاسات ، فإلى جانب التحريم القطعى النصى له ، يمكن أن نلحظ فيه علة تحريم (الجلالة) التى تأكل النجاسة ، فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكلها أو شرب ألبانها . أنظر : بداية المجتهد لابن رشد – ٤٨١/٢ (المراجع) .

(٢) فصلت / ٥٣ .

فوجدت شعر رأسه قائما ، والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله ، وتوقف فجأة . ثم بدأ يقول : « يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى ، وعندما أركع أمام الله وأقول له : « إنك لعظيم ! » أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء ، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين . وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت ، ياعناية الله خان ، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟».

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا فى عقلى ، وقلت له : « ياسيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى ، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى المقدس ، فلوسمحتم لى ، لقرأتها عليكم» ، فهز رأسه قائلا : «بكل سرور» ، فقرأت عليه الآية التالية :

« ومن الجبال جدد بيض وحمر ، مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » ..[1]

فصرخ السير جيمس قائلا :

ماذا قلت ؟ – إنما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مدهش ! وغريب ، وعجيب جدا ! ! إن الأمر الذى كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة ، من أنبأ محمدا به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحى من عند الله .

ويستطرد السير جيمس جينز قائلا :

لقد كان محمد أميا ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن « الله » هو الذى أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! وغريب ، وعجيب جدا[2] ! ! »

---

(١) فـاطر ٥٣ .

(٢) مجلة «نقوش» الباكستانية ، العدد الخاص بالشخصيات العالمية ، شخصية (المرحوم– العلامة عناية الله المشرق ص – ١٢٠٨ – ٩) .

– والعلامة « المشرق » هذا من أعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ، ويتمتع بشهرة كبيرة فى الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة ، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية ، غير أنه ترك الميدان العلمى ، فخاض غمار السياسة نظراً لسوء حالة المسلمين فى الهند (كان ذلك قبل الاستقلال) فأسس « حزب الخدام الإلهيين » Khaaksar Party ، وكان رجاله (المتطرفون) يؤمنون بوجوب إقامة الفرائض الدينية بالقوة ، واتخذوا من « المعول » شعارا لحركتهم . ومن أهم مؤلفات العلامة : « التكلة » (لرسالة الإسلام) ! ، وقد طلبت منه « لجنة جائزة نوبل » أن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية لإعطائه جائزة العلم ، ولكن العلامة رفض الفكرة بشدة قائلا :

« لست فى حاجة إلى جائزة لاتعترف لجنتها باللغة الأردية العظيمة ! » – المعرب .

الباب الثامن

الديـن ومشكلات الحضارة

التشريع

السؤال الأساسي الذى يفرض نفسه عند البحث فى المشكلات الحضارية يكون دائماً عن التشريع أو الدستور . فهذه المشكلات تنشأ عن علاقة الفرد بغيره ؛ والتشريع هو الذى يحدد هذه العلاقة على أساس من العدل والإنصاف . ولكن من المذهل أن أقول : إن الإنسان لم يفلح إلى الآن فى الكشف عن دستور حياته ! صحيح أن جميع الدول فى العالم قائمة على أسس الدستور ؛ ولكن هذه الدساتير مخفقة تماماً فى الوصول إلى أهدافها ، بل لا يوجد هناك ما يسوغ وجود هذه الدساتير سوى أنها تنفذ بالقوة والإجبار .

ومن الحقائق المعروفة لرجال القانون أن جميع الدساتير الرائجة فى هذا العصر تفقد أية أسس علمية أو نظرية تجيز بقاءها . ويرى الأستاذ « فولر » L.L. Fuller أن « القانون لم يكشف عن نفسه بعد ! » . . وفولر هذا هو الذى وضع كتاباً أسماه : « القانون يبحث عن نفسه The Law in Quest of Itself » .

• • •

وقد وضعت كتب لا حصر لها حول هذا الموضوع بالذات ، وبذلت عقول جبارة من علمائنا أوقاتها فى سبيل البحث عن مقومات القانون . وكما يرى محرر « موسوعة تشامبرز » « لقد أعطى القانون أهمية علم هام ، حتى رفع من شأنه إلى أقصى الحدود » . ولكن كل هذه الجهود لم توفق فى الحصول على صورة متفق عليها من القانون . وقد تشعبت بهم السبل ، حتى قال خبير فى التشريع : « لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون ، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جواباً ! ! »

وقد انقسم خبراء التشريع إلى مدارس فكرية كثيرة ؛ ولكننا — رغم تعدد هذه المدارس — قد لا نجد لبعض كبار علماء القانون فيها مكاناً ! يقول البروفيسور

« باتون » G.W. Paton عن « جون آستين » : « إنه لايصلح لأى من الأقسام العريضة Broad Divisions للقانون[1] » :

وأما السبب وراء هذا الاختلاف بين خبراء التشريع ، فهو عدم توصلهم إلى أساس صحيح يمكن إقامة صرح التشريع عليه . إنهم يجدون أن القيم التى يحاولون جمعها فى هيكل الدستور يستحيل وضعها فى ميزان واحد . ومثل رجل القانون فى محاولته هذه كمثل الرجل الذى يزن مجموعة من الضفادع بمجموعة أخرى مماثلة ، فكلما وضع مجموعة فى كفة وجد أن ضفادع الكفة الثانية قد وثبت إلى الماء مرة أخرى ! !

ومن ثم باءت كل الجهود — التى استهدفت الحصول على الدستور المثالى — بالفشل الذريع .

ويعبر الأستاذ « و. فريدمان » عن هذه المشكلة قائلا :

« . . وإنها لحقيقة : أن الحضارة الغربية لم تجد حلا لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر ، من نهاية إلى نهاية أخرى[2] ! »

• • •

وقد لاحظ « جون آستين » أن الدستور — أى دستور — لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا كانت تسنده قوة من ورائه ، فعرف « القانون » فى كتابه ، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٦١ ، على النحو التالى :

« القانون هو الحكم الذى أصدره « رجل رفيع المنزلة سياسياً لمن هو أدنى منه فى المرتبة السياسية[3] » .

وقد أصبح التشريع بناء على هذا التعريف « مرسوماً لصاحب السيادة[4] » ! ولذلك شن المحدثون من العلماء حملة شديدة على هذه الفكرة ، وقالوا : إنه لا يمكن منع انحرافات الحكام إلا إذا كان « رضا الشعب العام » دعامة أساسية فى التشريع . . وأنكروا أى قانون أو دستور لا يحرز رضا الجماهير ، وترتب على ذلك أن ضوابط كثيرة ، يجمع على صحتها وإفادتها جميع أهل العلم ومعلمى الأخلاق — لا يمكن تنفيذها ، لأن الشعب لا يوافق عليها . وعلى سبيل المثال لم يتمكن الأمريكيون من إدخال مشروع قرار يحرم الخمر ، لأن الشعب لم يرض عنه . . كما اضطر البريطانيون إلى إدخال تعديلات هامة فى قانون عقوبة القتل ،

---

(١) A Text Book of Jurisprudence, 1905, p. 5,

(٢) W. Friedman, Legal Theory, p. 18.

(٣) A Text Book of Jurisprudence, p. 56.

(٤) المرجع السابق — ص — ٤ .

واضطروا إلى إباحة أنواع محرمة من العلاقات الجنسية ، على الرغم من ضجيج المثقفين ، واحتجاج علماء القانون !

• • •

وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون قابل للتغير أو لا ؟

لقد لقيت نظرة « القانون الطبيعي » رواجاً كبيراً في القرون الوسطى ، وفي العصور التي تلتها ، ومؤداها أن الطبيعة البشرية هي المصدر الحقيقي للتشريع :

« فالطبيعة تطالب أن يكون حق السيطرة والحكومة لمطالبها الطبيعية ودعائمها الرائدة . وقد أعطت الطبيعة هذه الدعائم للإنسان في صورة « العقل » ، ولذلك لابد من إقامة حكومة بقوة العقل[1] » .

وقد أعطت هذه النظرية أساساً كونياً للمشرعين ، فقيل : إنه لابد من دستور موحد صالح لكل العصور . وهذه هي نظرية علماء القرنين السابع والثامن عشر حول القانون . ثم جاءت مدرسة أخرى ادعت استحالة معرفة الأسس الكونية للدستور . ويقول (كوهلير) في هذا :

« ليس هناك دستور أبدي ، وأي تشريع يصلح لعصر ما ليس — بالضرورة — صالحاً لعصر آخر . وليس لنا إلا أن نجهد أنفسنا في البحث عن دستور يلائم كل حضارة ، على حدة . فقد يكون دستور ما خيراً لطائفة من الناس ، ثم يسبب هلاك طائفة أخرى[2] » .

وقد قضت أفكار هذه المدرسة الأخيرة على تحكم القانون واستقراره ، فهي تدعو الإنسان إلى فكرة التغيير العمياء ، والنسبية Relativism ؛ وهي لن تنتهي إلى حد ما ؛ حيث إنها تفتقر إلى الأساس . وقد قلبت هذه الفكرة جميع القيم الإنسانية رأساً على عقب .

• • •

وهناك مدرسة أخرى تدعو إلى إحراز أكبر قدر من مقومات العدل في التشريع . ويكتب « اللورد رايت » Lord Wright معلقاً على فكرة « دين راسكو باوند » :

« إن راسكو باوند يدعو إلى فكرة — اطمأننت إلى صدقها بعد جميع تجاربي ودراستي في القانون — وهي أن الهدف الأساسي والابتدائي للتشريع هو « البحث عن العدل[3] » .

---

(١) Boden Liener, Jurisprudence, p. 164.

(٢) Philosophy of Law, p. 5.

(٣) Interpretation of Modern Legal Philosophies, N.Y. 1947, p. 794.

فإذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالا هاماً هو : «ماالعدل ؟» ؛ «وكيف يمكن تعيينه؟» ، وهكذا مرة أخرى ، نرجع إلى « جون آستين » !

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الإنسان لن يستطيع الكشف عن أساس واقعي للتشريع ؛ رغم الجهود الجبارة التي بذلت في هذا الحقل منذ مئات السنين ، ويزداد يوماً بعد يوم شعور بالمرارة وخيبة الأمل بين رجال التشريع ، لأن الفلسفة الحديثة قد فشلت في بحثها عن أهداف الدستور .

ويتساءل البروفيسور جورج وهيتكروس باتون قائلا :

« ما (المصالح) التي لابد للدستور المثالي أن يحافظ عليها ؟ إنه سؤال يتعلق « بالقيم » ، ويدخل في دائرة فلسفة التشريع . وما أكثر ما نرجو من الفلسفة أن تساعدنا ؛ ولكن ما أقل ما هي مستعدة لبذله في هذه السبيل . فقد فشلنا في الكشف عن « ميزان للقيم » يمكن قبوله لدى جميع الأطراف .

والحقيقة أنه ليس هناك من أساس لشيء من النظم إلا للدين ؛ ولكن الحقائق الدينية تصلح كعقيدة ووجدان ، ولا يمكن قبولها على أساس الاستدلال المنطقي(١) » .

وقد نقل البروفيسور « باتون » رأياً لبعض علماء التشريع – يقول : إن جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن « الأهداف » في فلسفة التشريع قد انتهت إلى غير ما نتيجة(٢) . ويتساءل « باتون » : أهناك حقاً « قيم مثالية » تحدد الأسس عند تطوير التشريعات ؟ لم يتمكن المشرعون من التوصل إلى هذه القيم حتى الآن ، غير أنها لابد منها » . ويستطرد قائلا :

« لقد استخرج أصحاب نظرية (القانون الطبيعي) القديمة أسسهم من الحقائق الإلهامية في الدين . ولكن إذا ما أردنا نحن أن نأتي بتشريع علماني ، فأين سنجد أساس القيم المتفق عليها(٣) ؟ »

وهذه التجربة المريرة تدعو الإنسان للعودة إلى الجهة التي انحرف عنها منذ قرون . فقد كان الدين يسهم إسهاماً فعالا في وضع دساتير الزمن القديم . . ويرى خبير القانون المعروف السير هنري مين : أنه « لا يوجد مثال واحد في القوانين ، التي تم تسجيلها كتابة ، من قانون الصين إلى بيرو ، إلا وكان ذا علاقة بالطقوس الدينية والعبادات منذ بداية أمره(٤)» .

* * *

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 104.

(٢) المصدر السابق : ص – ١٠٦ .

(٣) المصدر السابق – ١٠٩ .

(٤) Sir Henry Maine, Early Law & Custom, p. 5.

لقد آن الأوان أن نعترف بالحقيقة القائلة : بأن البشر لا يستطيعون وضع دستور لهم بدون هدى الله . وبدلا من المضى فى الجهود التى لا تأتى بنتائج مثمرة ، علينا أن نعترف بالواقع الذى يدعونا إليه « الدكتور فرويدمان » ، حين يقول :

« يتضح بعد دراسة هذه الجهود المختلفة أنه لابد من هداية الدين لتقييم المعيار الحقيق العدل . والأساس الذى يحمله الدين لإعطاء العدل صورة عملية ينفرد هو به فى حقيته وبساطته(1) » .

إننا نجد فى الدين جميع الأسس اللازمة التى يبحث عنها المشرعون لصياغة دستور مثالى ، ولكى يتضح صدق ما نقوله ، نأتى بالدراسة الوجيزة التالية فى أهم مشكلات التشريع الإنسانى :

أولا — مصدر التشريع

وأول الأسئلة وأهمها بالنسبة لأى تشريع هو البحث عن مصدر هذا التشريع : من الذى يضعه ! ومن ذا يعتمده حتى يصبح نافذ المفعول ؟

لم يصل خبراء التشريع إلى إجابة عن هذا السؤال حتى الآن . ولو أننا خولنا هذا الامتياز الحاكم ، لمجرد كونه حاكماً ، فليس هناك أساس نظرى وعلمى يجيز تمتعه — هو أو شركاؤه فى الحكم — بذلك الامتياز ، ثم إن هذا التحويل من ناحية أخرى لا يجدى نفعاً ؛ فإن إطلاق أيدى الحكام ليصدروا أى شئ لتنفيذه بوسيلة القوة — أمر لا تطيقه ولا تحتمله الجماهير .

ولو أننا خولنا سلطة التشريع لرجال المجتمع ، فهم أكثر جهالة وحمقاً ؛ لأن المجتمع — أى مجتمع — إذا نظرنا إليه ككل ، لا يتمتع بالعلم والعقل والتجربة ، وهى أمور لابد منها عند التشريع . فهذا العمل يتطلب مهارة فائقة وعلماً وخبرة ، وهو ما لا تستطيع العامة من الجماهير الحصول عليه ؛ كما أنها ، وإن أرادت ، لن تجد الوقت الكافى لدراسة المشكلات القانونية وفهمها .

وللخروج من هذه المشكلة توصل رجال القانون إلى حل وسط ، وهو أن يقوم (البالغون) من أفراد المجتمع بانتخاب ممثلين لهم ، وهؤلاء بدورهم يصدرون التشريعات باسم الشعب .

ومن الممكن أن ندرك حماقة هذا الحل الوسط ، حين نجد أن حزباً سياسياً لا يتمتع إلا بأغلبية ٥١٪ من مقاعد البرلمان يحكم على حزب الأقلية ، الذى يمثل ٤٩٪ من أفراد المجتمع البالغين . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن هذا الحل يحتوى على فراغ كبير جداً تنفذ

(1) Legal Theory, p. 450.

منه « أقلية » لتحكم على أغلبية السكان . وعلى سبيل المثال ، فإن الحكومة التى تحكم الهند الآن ، قد وصلت إلى مقاليد الحكم عن طريق الانتخابات العامة الخمسية الثالثة ، التى أجريت فى البلاد عام ١٩٦٢ . وقد فاز حزب « المؤتمر القومى » بنسبة ٧٠٪ من مقاعد البرلمان ، فى حين أن نواب هذا الحزب لم يحصلوا إلا على ٤٠٪ من أصوات الشعب ، فى الانتخابات . وهذا هو ما حدث فى الانتخابات الخمسية الأولى والثانية ، التى أجريت قبل سنة ١٩٦٢[1] ، وحصل حزب المؤتمر فى كلتيهما على أقل من ٥٠٪ من مجموع الأصوات ! ولكنه رغم ذلك كان له الحق فى تشكيل الحكومة ، لأن أصوات الناخبين الأخرى كانت موزعة بين نواب الأحزاب (المعارضة) . ولم تكن بطولة حزب المؤتمر إلا فى أنه أحرز أصواتاً أكثر من أى حزب آخر « على حدة » !

ولا أستثنى من هذه القاعدة إلا الانتخابات المزعومة ، التى تجرى فى الدول الشيوعية ، فيفوز زعماؤها بأرقام خيالية للأصوات !

وهكذا نقف مرة أخرى أمام ظاهرة البحث عن أساس القانون ومصدره .

والدين يستجيب لهذا التحدى الخطير ، الذى قد يدمر سعادة البشرية كلها . . إنه يقول : إن مصدر « التشريع » هو « الله » وحده ، خالق الأرض والكون ؛ فالذى أحكم قوانين

---

(١) أجريت الانتخابات العامة الأولى والثانية فى عامى ١٩٥١ — ٥٢ ، وعام ١٩٥٧ ، كما أن الانتخابات العامة الرابعة أجريت فى عام ١٩٦٧ ، أى بعد صدور هذا الكتاب ، وفى هذه الانتخابات « فقد المؤتمر ، لأول مرة فى تاريخه ثمانى ولايات : غلبت فيها أحزاب أو مجموعة نيابية ائتلافية . وقد سبق فى انتخابات سنة ١٩٦٢ (و ١٩٥٧) أن ألف الشيوعيون حكومة ائتلافية بالاستعانة ببعض الأحزاب السياسية فى ولاية (كيرالا) . أما فى انتخابات ١٩٦٧ فقد انهزم حزب المؤتمر هزيمة فادحة فى ولايات : كيرالا ، ومدراس ، وأوريسة ، وبيهار ، كما لم يتمكن من إحراز أكثرية مطلقة (تمكنه من تأليف الوزارة) فى ولايات : البنغال الغربية ، وأوتار براديش ، وراجستان وبنجاب . »

ومعناه : أن حزب المؤتمر فقد الحكم على نصف الولايات (البالغ عددها ست عشرة ولاية) ، ورغم ذلك تمكن هذا الحزب من تشكيل الحكومة الاتحادية (المركزية) ، لأن نوابه « الذين أحرزوا هذه المرة أقل من نصف مقاعد البرلمـــان ! » يمثلون الأغلبية بالنسبة إلى عشرات من الأحزاب الأخرى المتنازعة فيما بينها على المصالح والمناقشات الفقهية العقيمة ! ولو اتفقت هذه الأحزاب فيما بينها فكونت جبهة نيابيـــة ائتلافيـــة (كما فعلته بعض الأحزاب فى الولايات الإقليمية) لاحتلت مقـــاعد الحكم ولاضطر نواب حزب المؤتمر إلى الجلوس فى مقاعد « المعارضة » !

ويتضح من هذا جلياً : « كيف تنفذ أقلية فى الفراغ الدستوى الموجود فى تشريعاتنا فتحكم على الأغلبية ! » ـــ المعرب .

الطبيعة هو وحده الذى يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته . وليس هناك من أحد غيره سبحانه ، يمكن تحويله هذا الحق .

إن هذا الجواب معقول وبسيط للزنجة أنه يصرخ قائلا ، لو استطعنا أن نسمع نداءه : هل هناك أحد غير الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يسوى هذه المشكلة المصيرية ؟

لقد وصلت بنا هذه الإجابة إلى مكانها الحقيقى من التشريع والمشرع ؛ بعد أن استحال علينا المضى خطوة ما فى ظلام الضلالة عن الهدى الحقيقى .

إنه لا يمكن قبول إنسان حاكماً ومشرعاً للإنسان ؛ ولا يتمتع بهذا الحق إلا خالق الإنسان ، وحاكمه الطبيعى : الله

ثانياً — العناصر الاساسية للتشريع

ومن أهم الأسئلة لدى علماء القانون تحديد عناصر التشريع . . هل هى كلها إضافية ، أو أن هناك عنصراً أو عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى دستور عند تعديله ، أو تجديده ، أو تغييره ؟ . .

لم يستطع خبراء التشريع الوصول إلى اتفاق فى هذا الصدد ، رغم البحوث الطويلة التى أجريت فى هذا الباب . وهم يسلمون ، نظرياً ، بأنه لابد من عنصر فى التشريع يتمتع بالدوام والأبدية ، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة ، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة.

ويرون أيضاً أن افتقار الدستور إلى أحد العنصرين : « الأبدى والإضافى » سوف يكون مصدر شقاء دائم للبشرية . وقد عبر عن هذه الحالة أحد قضاة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو القاضى كاردوزو Cardozo على النحو التالى :

« من أهم ما يحتاج إليه التشريع اليوم : أن نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر ، وتغير عنصر آخر[1] » .

ويقول خبير آخر فى شئون القانون ، وهو البروفيسور « راسكو باوند » :

« لابد من عنصر التحكم فى التشريع ، ولكن هذا لا يعنى أن يصبح التشريع جامداً . ولذلك بذل الفلاسفة قصارى جهودهم للتوفيق بين مقومات التحكم والتغير فى هذا المجال[2] » .

والحق أنه لا يمكن التوصل إلى أساس يميز بين عناصر القانون الذى وضعه الإنسان ، بعضها وبعض ، فكل عنصر يدعى أنه صالح للدوام يلزمه أن يقدم دليلا على ذلك ؛ وهو

---

(١) The Growth of Law.

(٢) Interpretations of Legal History, p. 1.

عاجز تماماً عن الإتيان بذلك الدليل ؛ فقد نرى اليوم عنصراً من الدستور صالحاً للدوام ، ثم يأتى رجال الغد يعلنون الاستغناء عن ذلك العنصر من دستورهم ، ما دام الدستور يصاغ بناء على رغبات الشعب ، فقد لا يعجبهم ذلك ، أو يرونه قد فقد صلاحيته بمضى الزمن

• • •

أما الحل الوحيد لمشكلتنا فهو « الشرع الإلهى » الذى يمنحنا جميع العناصر الأساسية الضرورية ، فهذا الشرع يضع جوانب أساسية جذرية ، ثم يترك الباقى مفتوحاً للاجتهادات المختلفة ، بحسب الزمان والمكان .

إنه يحدد العناصر الأساسية وغير الأساسية بالنسبة إلى دستور ما . ثم هو إلى جانب ذلك يتصف ويتمتع بدليل الترجيح والتفضيل لصالحه ، حيث إنه من عند الله سبحانه وتعالى ومن ثم لابد لنا أن نعتبره حقاً ، وأن نعتده الكلام الأخير فى الموضوع ، الذى لا كلام بعده . وتلك ميزة هامة فى التشريع الإلهى ، لا يستطيع الإنسان أن يأتى ببديل عنها .

• • •

ثالثاً ــ تحديد مفهوم الجريمة

ومما لابد أن يتوفر لأى دستور أن يكون لديه دليل معقول يستند إليه ، لاعتبار عمل ما « جريمة » . ويقول الدستور الذى وضعه الإنسان : إن الجريمة هى : « كل عمل يضر بالأمن العام ، أو نظام الحكم القائم » ، والتشريع الإنسانى لا يجد أساساً غير هذا لاعتبار عمل ما جريمة . وقد دفع هذا الأساس القانون الجديد إلى إقرار أن جريمة « الزنا » ليست بجريمة ، إلا إذا تمت جبراً أو إكراهاً لأحد الطرفين . فالقانون الجديد لا يعتبر « الزنا » جريمة ، وإنما الجريمة الحقيقية عنده هى الجبر والإكراه الذى سبق « الزنا » .

إن الاستيلاء على أموال أحد المواطنين حرام ؛ وكذلك إهدار عصمتهم والنيل من عفتهم . ولكن أموال إنسان من الناس تصبح مباحة لرجل آخر ، إذا تم ذلك برضاء (الطرف الأول) ــ صاحب المال ! وكذلك يرى القانون أن عصمة أحد الطرفين تباح للثانى ما دام راضياً ، فعند رضا الجانبين يصبح القانون حامياً لهما ، ومدافعاً عنهما ؛ ولو حاول « طرف ثالث » التدخل فى الأمر ، فهو الذى سوف يعد مجرماً ، وليس الطرفان الأولان !

إن جريمة « الزنا » تفشى فساداً كبيراً فى المجتمع ، فهى تخلق مشكلات أطفال الحرام (غير الشرعيين) ، وتضعف روابط الزواج ؛ وهى كذلك تصدر عن عقلية تفضل اللذات السطحية فى الحياة ، وتربى عقلا خائناً ، وتخلق السرقة واللصوص ، وتروج الاغتيالات والانتحار والخطف ؛ ومن ثم تفسد المجتمع كله ، ولكن القانون ــ رغم ذلك ــ لا يستطيع تحريمها ، فهو لا يجد أساساً لتحريم « الزنا » الذى تم بالرضا المتبادل !!

• • •

ولم يستطع القانون الجديد أن يحرم « الخمر » ، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان ، وهو حر فى اقتناء كل ما يريد أن يأكله ويشربه ؛ وليس للقانون أن يتدخل فى حقوق الطبيعة ، ومن ثم لم يكن شرب الخمر والسكر الذى يتبعه جريمة فى الواقع ، إلا إذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين فى هذه الحالة من السكر ؛ أو خرج إلى الشارع وهو سكران ؛ فالجريمة ليست هى حالة السكر ، بل الاعتداء على الآخرين فى تلك الحالة !

والخمر تضر بالصحة ، وتبدد أموال الناس ، وتؤدى بمدمنيها إلى كوارث اقتصادية محققة ، وتضعف الشعور الأخلاقى ، حتى إن الإنسان يتحول إلى حيوان رويداً رويداً . والخمر خير مساعد للمجرمين ، فهى تشل الإحساسات اللطيفة ، حتى يستطيع الإنسان اقتراف أية جريمة من السرقة والقتل ، وهدر العصمة . ولكن القانون الإنسانى رغم هذه المعايب الشنيعة – لن يتمكن من تحريم الخمر ، لأنه لا يجد جواباً يسوغ تدخله فى حق من حقوق الإنسان الطبيعية ! !

ولن نجد حلا لهذه المشكلة إلا فى قانون الله ، إن قانونه يبين رضا حاكم الكون ؛ فإن كون أى قانون قانون الله يحمل معه أولوية تنفيذه ، ولا يحتاج بعد ذلك دليلا آخر . وهكذا يسد القانون الإلهى فجوة عميقة ، نتمكن بعدها من إحالة أى عمل إلى دائرة القانون .

• • •

رابعاً – القانون والاخلاق

لا يستطيع القانون أن يستقل بذاته فى أى وقت من الأوقات ، بل لابد له أن يقترن بالأخلاق . ولتوضيح هذه النقطة نقول :

١ – لو طرحت قضية أمام القانون – على سبيل المثال – وتعمد الفريقان وشهودهما الكذب فلم يتبين الصدق أمام القاضى ، فسوف يقضى على العدل ، ولن يتمكن القاضى من الحصول عليه مهما حاول . ولذلك كان لابد من قانون آخر « وراء القانون » ، يحرك الناس ، ويحملهم على الإدلاء بالبيانات الصادقة للوصول إلى العدل . وقد اعترفت جميع محاكم العالم بهذا المبدأ ، حتى إنها تلزم كل شاهد (أن يقسم بالله أن يقول الحق) قبل الإدلاء بشهادته .. وهو دليل واضح يؤكد أهمية العقائد الدينية لصون حرمة القانون . بيد أن المجتمع الجديد قد قضى على أهمية المعتقدات الدينية ، حتى أصبحت أيمان المحاكم أضحوكة ، وتقليدا لا يأتى بنفع ، أى نفع !

٢ – ومما لابد منه أن يكون أى « عمل » يعاقب عليه القانون (جريمة) فى نظر المجتمع أيضا ، وأى بند من قانون مكتوب لا يمكنه أن يخلق نفسية فى المجتمع ، ترى فى عمل ما جريمة ،

كما يراه القانون ؛ إذ لابد من أن يشعر مرتكب الجريمة بأنه « مذنب » ويعتبره المجتمع مذنبا . ويقبض عليه رجال الشرطة بكل اقتناع ، ثم يصدر قاضي المحكمة – وهو فى غاية الاطمئنان – حكما ضد ذلك الرجل . ولذلك كان لابد أن تكون كل جريمة « ذنبا » أيضا . وهذا هو ما يراه أصحاب المدرسة التاريخية من رجال القانون :

« إن أى تشريع لن يصيب هدفه إلا إذا كان مطابقا للاعتقادات السائدة عند المجتمع الذى وضع له ذلك القانون ، ولو لم يطابق التشريع اعتقادات المجتمع ، فلابد من فشله(١) »

هذا الرأى الذى عبرت عنه « المدرسة التاريخية » لرجال القانون غير صائب فى مغزاه الحقيقى الذى يرمى إليه إطلاقا ، ولكنه ذو صدق خارجي .

* * *

٣ – إن خوف الشرطة والمحكمة لا يكفى لدرء الجرائم ، وإنما لابد أن يكون هناك وازع فى المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم ، لأن الرشاوى ، والمحسوبيات ، وخدمات المحامين البارعين ، وشهود الزور – كل هذه العوامل تكفى لحماية المجرم من أية شرطة أو محكمة إنسانية ، والمجرم لا يرهب عقابا ، أى عقاب ، لو استطاع أن يفلت من أيدى القانون .

إن الشرع الإلهى يستوفى كل هذه الأمور ، فعقيدة « الآخرة » ، التى يحملها الشرع الإلهى ، هى خير وازع عن ارتكاب الجرائم ، وهى تكفى لتبقى إحساسا بالجريمة واللوم يعتمل فى قرارة ضمير الإنسان ، لو أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضى .

لقد أقيم فى فناء محكمة « ويسترن سركيت » نصب من حجر ، يذكر الناس ، بشاهد أدلى بشهادة زور فى فناء الدار ، ثم قال : « وإن كنت كاذبا ، فليمتنى الله ، هنا ، فى الحال ! ولم تكد هذه العبارة تخرج من فم الشاهد حتى سقط على ساحة الأرض ، ومات فى الحال(٢) !!

وهناك وقائع أخرى من هذا النوع حدثت لشدة إحساس أصحابها باللوم والذنب .

* * *

إن قرارات البرلمانات لن تخلق فى الجماهير شعورا بشناعة فعل ما ، إلا إذا كانت معتمدة من القانون الإلهى ، وراسخة فى معتقدات المجتمع .

والوازع الذى يمنع من ارتكاب الجرائم ليس هو الدين فى حد ذاته ، فإنه لا يقدم لنا تشريعا فحسب ، وإنما يخبرنا أن صاحب هذا التشريع يشاهد كل أعمالنا من خير وشر .. فنياتنا وأقوالنا وحركاتنا بأكملها تسجل بواسطة أجهزة هذا المشرع ، ولسوف نقف بعد الممات أمامه ، ولن نستطيع أن نفرض ستارا على أدنى أعمالنا .

---

(١) A Text Book of Jurisprudence, p. 16.

(٢) Sir Alfred Denning, The Changing Law, p. 103, (1953).

ولو أننا استطعنا الهروب من عقاب محكمة الدنيا ، فلن نتمكن بالتأكيد – من أن نفلت من عقاب صاحب التشريع السماوى .

ولو أننا حاولنا تفادى عقاب الدنيا . فسوف نذوق عذابا مضاعفا يوم القيامة ، يفوق عقاب الأرض ملايين المرات ، قسوة وعنفا .

• • •

خامساً - القانون والفرد

ورد فى التاريخ الإنجليزى أن الملك « **جيمس الاول** » أصدر مرسوما يقول بأنه (الملك) يستطيع أن يحكم البلاد مطلق العنان ، كما أن من حقه إصدار أحكام دون أن تخضع للمرافعة أو الاستئناف فى المحاكم .

وكان رئيس القضاة حينئذ هو القاضى الشهير « **اللورد كوك** » Coke وكان شديد التمسك بالدين حتى اعتاد أن يقضى ربع يومه فى الكنيسة وذهب اللورد كوك ليقول للملك « ليس من حقك أن تحكم فى أى شئ ولابد لجميع القضايا أن تذهب إلى المحكمة للنظر فيها . »

فقال له الملك : « إننى أرى – وهو ما سمعته – أن القوانين قد وضعت على أساس العقل ، فهل أنا أقل من قضاتك عقلا ؟ .

فأجابه رئيس القضاة : « إنه مما لا شك فيه أنكم تتمتعون بعلم وكفاءة مثاليين ، ولكن القانون يتطلب تجربة طويلة ودراسة عميقة . وفوق ذلك هو الميزان الذهبى الذى يزن حقوق الرعية ؛ وهو الذى يصون شخصيتكم . »

فغضب الملك بشدة وقال : « هل أنا أيضا أخضع للقانون ؟ إن هذا المقال بمثابة تمرد وخيانة ! »

وكان جواب « اللورد كوك » أن ذكر الملك برأى «براكتون» Bracton ، الذى قال :

« إن الملك لا يخضع لأحد من الناس ؛ ولكنه خاضع لله وللقانون[1] »

وهنا – لو جردنا القانون من « الله » ، فلن نجد أساسا معقولا للقول بأن : « الملك خاضع القانون » – لأن الذين صاغوا القانون ، وأصدروه بإرادتهم ، يستطيعون – فى الوقت نفسه – تعديله وتغييره إذا ما أرادوا ذلك ، فكيف – إذن – سيخضعون لذلك القانون[2] ؟..

---

(١) المرجع السابق : ص – ١١٧ – ١٨ .

(٢) ومن أمثلته ما حدث فى الهند عقب الانتخابات العامة لسنة ١٩٦٧ ، بعد أن أفلحت مجموعات نيابية ائتلافية فى الحصول على مقاليد الحكم فى كثير من الولايات الإقليميـة ، فحينئـذ أجرت الحكومة المركزية (التى يحكمها حزب المؤتمر) تعديلات هامة فى كثير من المجالات ، لتقييد حركة الحكومات (المعارضة) ، ومنها – على سبيل الذكر – منع تقديم الهبات والمعونات المالية =

إن الإنسان إذا كان هو المشرع ، فهل يحل محل القانون والإله معا ، وحينئذ يستحيل احتواؤه داخل دائرة القانون ، بأى صورة من الصور .

وقد أدى هذا العيب فى القوانين الحديثة إلى أنه — على الرغم من أن كل الجمهوريات تقر مبدأ المساواة المدنية — فإن هذه المساواة لا تنفذ فعلا فى أية دولة ، فلو أنك كنت تريد أن تحاكم رئيس جمهورية الهند ، أو أحد حكام الولايات ، فلن تستطيع ذلك ، كما تستطيع أن تحاكم المدنيين العاديين ، إذ كان لابد لك من الحصول على موافقة الدولة . قبل الذهاب إلى المحكمة ، فقد أضفى الدستور الهندى (فى المادة ٣٦١) على رئيس الجمهورية ونائبه وحكام الولايات هالة وامتيازا ، بحيث لا تمكن محاكمتهم إلا بعد موافقة البرلمان المركزى . وكذلك لابد من الحصول على موافقة الحكومة ، لمحاكمة الوزراء !

والأمر لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل تنص المادة ١٩٧ ، من (لوائح العقوبات الهندية) على : « أن قاضيا ، أو وكيلا للنيابة العامة ، أو أحد الموظفين الحكوميين (من الذين لا يجوز فصلهم من الخدمة إلا بعد موافقة الحكومة المركزية) لو اتهم أحدهم بارتكاب جريمة ما ، فليس من شأن المحاكم النظر فى قضية أحدهم ، إلا بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية أو المحلية . التى تتعلق بها وظيفة المتهم المطلوب محاكمته » ! !

= إلى الأحزاب السياسية.وكانت هذه المعونات المقدمة إلى الأحزاب السياسية معفاة من الضرائب، فضلا عن أن أصحابها كانوا يتمتعون بتسهيلات عديدة عند دفع الضرائب . وكان حزب المؤتمر ، كحزب حاكم يحصل على هذه الهبات بأكثر من ثمانين فى المائة ، بينما كانت الأحزاب الأخرى لا تتمتع إلا بنسب ضئيلة جدا من هذه المعونات ، ولكن بعد نجاح الأحزاب الأخرى فى الوصول إلى مقاعد الحكم فى كثير من الولايات تحولت مصالح الرأسماليين إلى الحكام الجدد فأغدقوا على أحزابهم المعونات ، مما آل بأضرار بالغة بالنسبة لحزب المؤتمر ، فمنعت الحكومة المركزية التسهيلات التى كانت تقدم إلى أصحاب الهبات ، وبالتالى حرمت الأحزاب الأخرى من جنى فوائد كبرى ! لقد أصبح نفس الشئ الذى كان مباحاً فى الماضى — محظوراً فى الحال ، لأن مصالح واضعى الدستور (الذين يتمتعون بأغلبية ضئيلة تمكنهم من فرض آرائهم على الأقلية الكبيرة) لم يعد لها وجود ، بسبب تصاريف الزمن !

ومنها كذلك أن « الجمعية التشريعية » فى ولاية (أوريسه) الهندية أصدرت قانوناً يحرم على المواطنين تغيير الديانة ، وهذا — كما هو واضح بكل جلاء — لمنع الهندوس ، وخصوصاً المنبوذين ، من قبول الإسلام ! ! وهذا البند المستحدث يتعارض تعارضاً كلياً ، بل يصادم الدستور الهندى الذى يعطى المواطنين الحرية الكاملة فى الشئون المماثلة . ولكن هذا التشريع الجديد جاء ليرضى الرجعيين الهنادك . وهؤلاء يشجعون « علانية » مثل هذه الحركات الشنيعة ، لمنع الأهالى من قبول الدعوة الإسلامية ، وهؤلاء الرجعيون هم المسئولون عن الاضطرابات الطائفية التى يذهب ضحيتها الكثيرون من المسلمين المسالمين ، ثم لا يقدم مثيرو الشغب والفساد إلى المحاكمة — إطلاقا — لتمتعهم بعطف ورعاية الرجعيين (المعرب) .

وبكلمة أخرى : لو أردت أن تحاكم سياسيا كبيرا ، أو أحد أعضاء السلطة التنفيذية العليا — فعليك أن تسأل هؤلاء أنفسهم : « هل تبيحون لنا محاكتكم ؟ » !

وليس هذا عيب الدستور الهندى بالمرة ، بل هو عيب القانون البشرى بعامة ، وهو عيب موجود . حيث يوجد هذا النوع من الدساتير الوضعية .

ليس من الممكن أن يتحقق العدل الكامل إلا فى ظل القانون الإلهى ، حيث يكون كل إنسان مساويا للآخرين أمام الدستور . وحيث تمكن مقاضاة أية سلطة سياسية وتنفيذية ، كما يحاكم ابن الشعب ، لأن الحاكم فى هذا القانون هو « الله » سبحانه وحده ، والمحكومون هم سائر أفراد المجتمع دون أدنى تمييز[1] . .

• • •

سادسا — القانون والعدل :

إن أهم وأكبر أساس فى هيكل القانون هو « العدل » ، الذى يبحث عنه خبراء القانون من قرون طويلة ، وهو موجود فى القانون الإلهى فى أتم الصور وأكملها . والقول بأن : عدم اهتداء الإنسان إلى أساس العدل يرجع إلى أن بحوثنا لازالت ناقصة ، وتتطلب المزيد من البحث — قول باطل . فهذا الكلام يثبت أنه ليس فى مستطاع الإنسان أن يحصل على هذا الأساس أبدا .

لقد قطعنا شوطا كبيرا فى مضمار البحوث الطبيعية بنتائج باهرة فى كل مجال ، ولكنا ، رغم جهودنا المضاعفة فى البحث عن القوانين المدنية ، لم نحرز نجاحا ، ولو بنسبة واحد فى المائة من الدرجة المطلوبة . وهذه الخيبة تؤكد أن إخفاقنا لا يرجع إلى نقص الجهود ، وإنما سببه الحقيقى أن هذا الأمر خارج — على الإطلاق — عن نطاق بحث الإنسان .

• • •

لقد صور الإنسان أول صورة فوتوغرافية فى عام ١٨٢٦ م . وقد بذل العالم الفرنسى ، الذى اخترع الجهاز ، ثمانى ساعات متواصلة لتصوير شرفة المنزل .. والآن تستطيع آلات

---

(١) لذلك أمثلة رائعة فى العصور الأولى لخلافتنا الإسلامية ، حين كان العاديون من أفراد الشعب يحتكون إلى القضاة ضد الخلفاء وعمال الأقاليم وكبار رجال الدولة . بل وهناك أمثلة فى العهود القريبة جدا ، ومنها ، على سبيل المثال وليس الحصر ، أن أفراد الشعب العاديين احتكموا إلى الحاكم — عدة مرات ضد الإمبراطور المسلم المغولى « جهانكير » — ابن الإمبراطور « أكبر » — الذى حكم الهند فى القرن السابع عشر . — (المعرب) .

أقول : أليس هذا أثراً من آثار المبادئ المحمدية السامية ، وانعكاساً لقولة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدوية فى سمع الزمان : « أتشفعون فى حد من حدود الله ؟ والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . ؟ . . . — (المراجع) .

تسجيل الأفلام أن تصور أكثر من ألفي صورة في الثانية الواحدة ، ومعنى ذلك أننا نستطيع اليوم أن نصور أكثر من ستين مليون صورة ، في نفس الوقت الذي استغرقته عملية التصوير الأولى ، أي أن سرعتنا قد زادت ستين مليون مرة ، في ١٤٠ سنة فقط ! !

وعند بدء هذا القرن العشرين لم يكن يوجد في شوارع الولايات المتحدة غير أربع سيارات ، على حين تمرق الآن على شوارعها الفسيحة عشرة ملايين سيارة .

ويمضي الإعجاز العلمي بالإنسان إلى أن يقسم الزمن إلى $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$ جزء من أجزاء الثانية ! وتستطيع المراصد العلمية أن تكشف عن أدنى فارق في حركة دوران الأرض — حتى ولو بلغ في مدته $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠}$!

لقد اخترعنا آلات حساسة يمكنها الكشف عن فارق الوزن الذي يطرأ على كتابة (حرفين) بالحبر ، على ورقة من أوراق موسوعة من ثلاثين مجلداً !

هذه هي حال الإنسان في حقل البحث العلمي ، على حين لم يتمكن من إحراز أي تقدم — ولو بمقدار (بوصة) — في مجال القوانين المدنية .

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة من مختلف مجالات الحياة ، لنتبين مدى صدق القول : بأن الدستور الإلهي هو وحده الأساس الحقيقي ، الذي يصلح لأن يكون مصدراً لقوانين الحياة الإنسانية .

• • •

المرأة والمجتمع :

إن الإسلام لا ينظر إلى المرأة والرجل نظرة واحدة ، فهو يحرم العلاقات الحرة بينهما . وقد أخذ العلماء عند بدء العصر العلمي يسخرون من هذه القوانين ، وأطلقوا عليها : « مخلفات العصر الجاهلي » .

وقالوا بشدة : إن الرجل والمرأة متساويان ، ويرثان النسل الإنساني بطريقة متساوية ، ولسوف تكون جريمة كبرى لو أقمنا العقبات في طريق علاقاتهما الحرة .

وقد أنتجت هذه الفكرة مجتمعاً جديداً في الغرب . بيد أن التجارب الطويلة المريرة التي مرت بها الإنسانية بعد هذه الإباحة الجنسية هي أقسى ما عاناه البشر ، فقد ثبت بعد هذه التجارب أن المرأة والرجل لا يتساويان فطرياً ، ولا طبيعياً ، وأي مجتمع يقوم على أساس مساواتهما سوف يسبب خراباً ودماراً عظيمين لحضارة البشرية .

• • •

(١) إن أول حقيقة فى هذا الأمر هى أن الرجل والمرأة يختلفان كل الاختلاف فى نوعية كفاءاتهما الطبيعية ، واعتبارهما متساويين إنما هو مخالفة كبرى لقوانين الطبيعة فى حد ذاتها .

كتب الدكتور « الكسيس كيريل » ، الحائز على جائزة نوبل للعلم — وهو يبين الفارق العضوى بين الرجل والمرأة — يقول :

« إن الأمور التى تفرق بين الرجل والمرأة لا تتحدد فى الأشكال الخاصة بأعضائهما الجد والرحم والحمل ، وهى لا تتحدد أيضاً فى اختلاف طرق تعليمهما ؛ بل إن هذه الفوارق هى ذات طبيعة أساسية ، من اختلاف نوع الأنسجة فى جسم كليهما ؛ كما أن (المرأة) تختلف عن (المرء) كلياً ، فى المادة الكيماوية التى تفرز من مبيض الرحم داخل جسمها . والذين ينادون بمساواة الجنس اللطيف بالرجل يجهلون هذه الفوارق الأساسية ، فيدعون أنه لابد أن يكون لهما نوع واحد من التعليم والمسئوليات والوظائف . ولكن المرأة فى الواقع تختلف عن الرجل كل الاختلاف ؛ فكل خلية من جسمها تحمل طابعاً أنثوياً ، وهكذا تكون أعضاؤها المختلفة بل وأكثر من ذلك هذه هى حال نظامها العصبى .

إن قوانين وظائف الأعضاء محدودة ومنضبطة كقوانين الفلك، حيث لايملك إحداث أدنى تغيير فيهما بمجرد الأمنيات البشرية ، وعلينا أن نسلم بها ، كما هى ، دون أن نسعى إلى ما هو غير طبيعى، وعلى النساء أن يقمن بتنمية مواهبهن بناء على طبيعتهن الفطرية ، وأن يبتعدن عن تقليد الرجال »[1] .

ولقد صدقت التجارب العملية نتائج هذه الفوارق الطبيعية ، فقد فشلت المرأة فى أن تحرز أية مساواة مع الرجل فى أى ميدان . . حتى إن الرجل يتقدم المرأة فى الميادين التى كانت تعتبر حكراً على المرأة فى الماضى . ومن ذلك أن المرأة فشلت فى المساواة مع الرجل فى حقل السينما . وليس الرجل هو الذى يدير اليوم كل ما هو متعلق بالسينما ، ومع ذلك فهو يتقاضى أجراً أكثر من المرأة . فممثل كبير يتقاضى اليوم ستة ملايين روبيه[2]، فى السنة ، على حين لا يزيد دخل أعظم ممثلة هندية على أربعة ملايين روبيه !!

• • •

---

(١) Man the Unknown, p. 93.

(٢) عملة هندية كانت تساوى عشرة منها جنيهاً مصرياً (عند صدور هذا الكتاب) ، وأما الآن فستة عشر (١٦) منها تساوى الجنيه المصرى الواحد ، بعد تخفيض قيمة العملة الهندية عام ١٩٦٦ ، وبالتالى قفزت دخول الممثلين الهنود إلى أرقام خيالية ، فجاء فى إحدى الإحصائيات الحديثة أن أكبر ممثل هندى (دليب كومار ، واسمه الحقيقى يوسف خان) يتقاضى ١٠,٦٠٠,٠٠٠ روبية للاشتراك فى فيلم واحد ، بينما أكبر ممثلة لا تتقاضى إلا أقل من نصف هذا الأجر ! — المعرب .

وليس هذا هو كل ما فى الأمر .. فإننا لو أنكرنا القوانين الطبيعية ، والضوابط الفلكية ، وبدأنا نعمل على عكسها فسوف نكسر رؤوسنا بأيدينا . وهكذا جلب النظام الذى صاغه الإنسان — متجاهلا الحيثيات الفارقة بين الجنسين — صنوفاً من الأمراض والجرائم إلى داخل المجتمع . إن شباب هذا المجتمع الجديد يشكو أنواعاً من الأمراض الجنسية والخلقية والنفسية ، فضلا عن العصمة التى أهدرها المجتمع ، نتيجة هذا الاختلاط المروع .

ومن الظواهر التى تتكرر مراراً أمام أطباء هذا المجتمع أن تدخل فتاة غرفة الطبيب ، وهى تشكو من الصداع وقلة النوم ، وبمضى بعض الوقت تتحدث عن هذه الآلام .. ثم لا تلبث أن تتكلم عن شاب التقت به صدفة منذ مدة .. وحينئذ يشعر الطبيب أنها تتعثر وتتلعثم فى كلامها ، فيقول لها :

«Well, then he asked you to his flat, what did you say ?»

حسناً ! ثم دعاك إلى شقته ، فماذا قلت له ؟ »

وتقول الفتاة فى دهشة :

« كيف عرفت ذلك ، لقد كنت أريد أن أقول لك ذلك حالا ! »

ومن الممكن قياس كل ما ستقول الفتاة للطبيب بعد هذا الحديث . وهذا هو الذى دفع علماء الغرب إلى الشعور بخيبة الأمل ، فانتهوا إلى أن الحفاظ على العفة والعصمة « كلام فارغ » فى ظل مجتمع العلاقات الحرة . وقد قال طبيب غربى :

« من الممكن أن يصل الرجل والمرأة إلى نقطة ، يستحيل عندها التحكم فى الأعصاب ، والإحساس بالعواقب » .

وقد بدأت حملة شديدة ضد هذه الظواهر فى صورة المقالات والكتب . وبدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالكارثة التى تهدد حضارتهم . ولكنهم ، رغم ذلك كله ، غير قادرين على فهم جذور الموقف .

ولقد نشرت الطبيبة المعروفة « ماريون هيليارد » مقالا عنيفاً ضد الاختلاط الحر . فقالت : « إننى لا أستطيع أن أسلم ، كطبيبة ، بأن العلاقات الطاهرة ممكنة بين رجل وامرأة ، ينفردان برضاهما وقتاً طويلا » .

ولكن الدكتورة « هيليارد » تستطرد قائلة :

« ولست على هذه الدرجة من الغباء ، حتى أنصح الشبان والفتيات أن يمتنعوا عن التقبيل . ولكن أكثرية الأمهات لا تخبرن أولادهن أن القبلة لا تبرد العواطف ، وإنما تلهبها »[1] .

---

(١) مجلة « ريدرز دايجست » ، عدد ديسمبر عام ١٩٥٧ .

وتسلم الدكتورة « هيليارد » ، بهذا القول ، بالقانون الإلهي الذى يحرم هذه الظواهر ، حتى لا يصل الإنسان إلى حافة الجرائم الجنسية القبيحة ؛ ولكن الطبيبة لا تعرف : كيف تحرم هذه الظاهرة التى تنتهى إلى الأعمال الشيطانية لا محالة ؟ !

• • •

(ب) لقد أباح مشرع الإسلام « تعدد الزوجات » ، وأثيرت ضجة كبرى ضد هذا التشريع ، وأطلق عليه — هو الآخر — أنه « تذكار العصر الجاهلى » . ولكن جاءت التجارب العملية لتثبت أنه كان تشريعاً مناسباً للطبيعة الإنسانية ، لأن سد باب تعدد الزوجات إنما هو فتح لعشرات الأبواب الفاجرة ، غير الشرعية .

وسوف أشير هنا إلى النشرة الإحصائية التى نشرتها هيئة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٩ . لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات : أن العـالم يواجه الآن مشكلة « الحرام أكثر من الحلال » more out than in فى شأن المواليد ! وجاء فى هذه الإحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ستين فى المـائة . وأما فى بعض البلاد ، وعلى سبيل المثال « بناما » فقد جاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين فى المائة ، أى أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد ! وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة فى أمريكا اللاتينية .

وتثبت هذه النشرة أيضاً أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى « العدم » فى البلدان الإسلامية . وتقول النشرة : إن نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد فى المـائة فى جمهورية مصر العربية ، مع أنها أكثر البلاد الإسلامية تأثراً بالحضارة الغربية .

فما الأسباب التى تحمى الدول الإسلامية من هذه البلية ؟

يقول محررو هذه النشرة الإحصائية : إن البلدان الإسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام « تعدد الزوجات »[1] .

لقد استطاع هذا القانون الإلهى الحكيم أن يحمى بلادنا الإسلامية من كارثة محققة فى هذا العصر .

فقد أكدت تجارب الإنسانية أن القانون الإلهى القديم هو الذى كان مبنياً على الحق ، والرحمة بالإنسانية[2].

• • •

---

(١) جريدة Hindustan Times ، عدد ١٢ سبتمبر سنة ١٩٦٠ .

(٢) لم يستطع محررو النشرة الإحصائية أن يشيدوا بالدين الإسلامى وروحه (وذلك راجع إلى تعصبهم أو جهالتهم بالحقائق ، أو إلى الاثنين معا) ، فمن مزايا الإسلام أنه يحرم «الزنا» ، =

التمـــدن :

شرع الإسلام القصاص ممن قتل عمداً ، إلا أن يرضى ورثة القتيل بالدية . ولقد تعرض هذا القانون لنقد شديد من جانب رجال القانون فى العصر الحاضر ، وأهم ما يستدلون به : أن معنى هذا التشريع أن تضيع نفس أخرى ، بعد أن ضاعت الأولى بالفعل ، ودفعهم هذا إلى إلغاء نظام (الإعدام شنقاً) فى كثير من البلاد .

إن القانون الذى يقرره الإسلام له فائدتان هامتان :

أولاهما : أن تستأصل جذورهذه الجريمة، لأن أحداً من الآخرين لن يندفع إلى ارتكابها مرة أخرى نظراً للعاقبة الوخيمة التى لقيها أحد أفراد المجتمع[1].

وأما الثانية : فهى « الدية » ، وقد راعى المشرع النتائج مراعاة تامة ، فلو قتل الابن الوحيد لشيخ ، فعلى القاتل أن يدفع لوالد المقتول مبلغا من المـال يرضيه ، فيعفو عن الجريمة لقاء المبلغ الذى تقاضاه . وقد جعل التشريع الإسلامى حقاً للدولة أن تأمر برفع مبلغ الدية ، إخمادا لنار « الثـــأر » .

إن هذا التشريع حكيم لدرجة عظيمة ، وتجربته تؤكد أن غريزة القتل قد قضى عليها فى أى بلاد طبقته ، كما أكدت التجارب أيضاً أن أى بلاد ألغت هذا التشريع قفزت فيها جرائم القتل إلى نسب خيالية ، حتى إن نسبة الاغتيالات قد ارتفعت فى بعض هذه الدول إلى اثنى عشرة فى المـائة .

وهناك أمثلة أخرى عديدة : بلاد ألغت عقوبة القصاص ، ولكنها عادت فأقرته مرة أخرى ، نظراً للعواقب . فقد أصدر البرلمـــان السيلانى قانوناً سنة ١٩٥٦ يحرم القصاص فى حدود سيلان ..

=وتحريمه هذا هو الذى يحمى المسلمين ، سواء أكانوا من متعددى الزوجات أم من غيرهم ، وذلك لأن ظاهرة تعدد الزوجات آخذة فى الاختفاء من المجتمع الإسلامى ، بسبب الحملات السخيفة التى تعرضتُ لها من جانب علماء الغرب ، والمتفرنجين من أبناء الشرق المبهورين بالحضارة الغـــربية (والذين يطلق عليهم مؤلف هذا الكتاب كلمة « الإنجليز السود » المتحمسون لحضارة الغربية أكثر من أصحابها) . وترتبت على هذا الوضع مشكلات خطيرة – من عائليـــة واجتماعية إلى حضارية ، بسبب عدم اكتفاء الكثيرين من الأزواج بزوجة واحدة ، وكثرة الفتيات والأرامل الطالبات الزواج ، وقلة الشبان ، وهذه مشكلات يعانى منها مسلمو الهند وباكستان بشدة أكثر من اخوانهم العرب – المعرب

(١) الدولة الوحيدة التى تطبق النظام الإسلامى فى هذا المجال هى المملكة العربية السعودية ، ومن المعروف لكل المهتمين بالشئون السعودية أن نسبة القتل بها أقل نسبة فى العالم كله ، فالمعدل السنوى لحوادث القتل بالمملكة السعودية لايزداد عن « بضع » حوادث ، وذلك راجع إلى العقوبة التى يلقاها المجرمون ، وكذلك تنعدم حوادث السرقة بهذه المملكة ، لسبب نفسه – المعرب .

فارتفعت نسبة جرائم القتل ارتفاعاً مخيفاً بعد صدور القانون ، ولم يستيقظ السيلانيون من سباتهم إلا يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، عندما تسلل رجل مسلح داخل منزل رئيس الوزراء السيد بندرانيكه ، وقتله بكل جرأة فى غرفته ، وكان أول ما فعله أعضاء البرلمان السيلانى بعد دفن جثمان رئيس الوزراء المأسوف عليه ، أن عقدوا جلسة طارئة استغرقت أربع ساعات ، وأعلنوا عند ختامها أن سيلان قررت إلغاء القانون ، وإصدار قانون جديد بتشريع القصاص .

• • •

المعيشة :

إن النظام الذى يقره الإسلام فى المعيشة يسلم بالملكية الفردية لوسائل الإنتاج الزراعى ، وهيكل المعيشة فى الإسلام يقوم على أساس الملكية الفردية . وقد راج هذا النظام عصوراً طويلة فى العالم[1] . ثم تعرض بعد الثورة الصناعية لنقد قاس ؛ حتى إن المثقفين رضوا بإلغائه .

وقد راج فى أوربا ، فيما بين النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، شعور بأن الملكية الفردية أحد القوانين المجرمة التى تفشت فى عصر الجاهلية المظلم .. وأنهم قد استطاعوا الآن أن يكشفوا عن نظام « الملكية الجماعية » — التى هى أقوى أساس لتنظيم المعيشة .

ثم بدأت أول تجربة للنظرية الجديدة — الملكية الجماعية ؛ ونفذت على رقعة واسعة من الأرض ، وبدأت دعاية كبيرة فى شأنها ؛ وعقدت عليها آمال كبار ، ولكن التجربة الطويلة أثبتت أن هذا النظام ، رغم الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيله ، لم يأت إلا بإنتاج أقل من الإنتاج الذى يأتى به نظام الملكية الفردية .

هذا ، فضلا عن نقائصه الكثيرة التى تتلخص فى كونها غير طبيعية ، إلى استخدام العنف لتنفيذها ؛ وأنها تمنع التقدم الإنسانى ، وأنها أكثر من الأنظمة الرأسمالية تركيزاً ، واستغلالا ، ودكتاتورية .

• • •

وسوف أضرب هنا مثالا لروسيا ؛ لقد نفذت الحكومة الروسية نظام (الملكية الجماعية) فى جميع أنحاء البلاد ؛ والدولة تملك جميع الأراضى الزراعية ، فهى تقوم بزراعة أراضيها فى صورة « المزارع الجماعية » . وقد منح القانون الزراعى الذى أصدرته الدولة عام ١٩٣٥ الفلاح حقاً بملكية الثلث أو نصف الفدان ؛ أو فدانين فى بعض الأحوال الاستثنائية ، وسمح له أن يربى بعض الأنواع من الحيوانات ، مثل الأبقار والأغنام والدجاج .

---

(١) نظام الملكية الفردية الذى راج فى العالم هو أثر من آثار الدين . ولذلك خالف « ماركس » وأتباعه الأديان بشدة ، حتى يتمكنوا من طرد فكرة الملكية الفردية من أذهان الأفراد .

وتثبت الإحصائية الرسمية التى نشرت عام ١٩٦١ أن الأراضى الزراعية فى روسيا فى ذلك الوقت كانت ٢٠٤ مليون هيكتار ، منها أراض قدرها ستة ملايين هيكتار فى حوزة الملكية الفردية ؛ أى ثلاثة فى المائة من مجموع مساحة الأراضى الزراعية ، ولكن نسبة المحصول الزراعى للبطاطس عام ١٩٦١ كانت كما يلى :

	نسبة الأراضى المزروعة (بالفدان)	نسبة المحصول (بالطن)
المزارع الجماعية	٤,٣٥٢,٠٠٠	٣٠,٨٠٠,٠٠٠
الأراضى الفردية	٤,٥٢٦,٠٠٠	٥٣,٥٠٠,٠٠٠

وتؤكد هذه الإحصائية أن المحصول الزراعى كان أحد عشر طناً من البطاطس فى الأراضى الفردية ، مقابل سبعة أطنان فى الأراضى الحكومية . وهذه النسبة توجد كذلك فى المحاصيل الأخرى ، على حين أن الأراضى الفردية لا تتمتع بتسهيلات الآلات الزراعية ، والسماد ، والكفاءات التى تتمتع بها المزارع الجماعية الحكومية .

وأما الماشية فهى أسوأ حالا فى المؤسسات الحيوانية الحكومية ، فهى تموت بكثرة بسبب نقص الكلأ ، والاستهتار فى الرعاية ؛ وقد مات ١٧٠,٠٠٠ من الرءوس فى إقليم واحد ، فى مدة أحد عشر شهراً عام ١٩٦٢ .

أما حيوانات الملكية الفردية فهى آخذة فى الازدياد والنمو يوماً بعد يوم ، رغم العقبات العديدة ، وهى كذلك أكثر إنتاجاً من غيرها . فالمؤسسات الحكومية التى تملك سبعين فى المائة من الحيوانات والدجاج لم تقدم للسوق من اللحوم إلا ما يزيد على عشرة فى المائة بالنسبة إلى أصحاب الملكية الفردية ، الذين لا يملكون أكثر من ثلاثين فى المائة من الحيوانات والدجاج ، ويقدمون إنتاجهم للحكومة ، وهو ما يتبقى لديهم بعد استهلاكهم الذاتى . وقد تخلفت المؤسسات الزراعية الحكومية كثيراً فى إنتاج البيض . ويمكن استنتاج هذه الفوارق من إحصائية رسمية لعام ١٩٦١ :

المحصول	النسبة الحكومية (بالطن)	النسبة الفردية (بالطن)
اللحم	٤,٨٠٠,٠٠٠	٣,٩٠٠,٠٠٠
اللبن	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٥٠٠,٠٠٠
الصوف	٣٨٧,٠٠٠	٧٩,٠٠٠
البيض	٦,٣٠٠ (مليون بيضة)	٧٩,٠٠٠ (مليون بيضة)

إنه لمن الطريف أن يقوم الأفراد بسد حاجات حكومة تملك ، بل تحتكر كل وسائل الإنتاج !
إن الإحصائية تدلنا على أن إحدى الجمهوريات السوفيتية حصلت من الأفراد على ستة وعشرين فى المائة من البطاطس ، وأربعة وثلاثين فى المائة من البيض ، لسد احتياجاتها المحلية ، وهكذا اضطرت إلى شراء أشياء أخرى مماثلة من الأفراد ، لاستهلاكها عليا[1] .

ومن العواقب الوخيمة لهذه الملكية الجماعية أن روسيا — التى كانت من بين الدول الكبرى المصدرة لإنتاجها الزراعى فى عهد القيصرية — اضطرت إلى شراء خمسة عشر مليوناً من أطنان القمح ، من كل من : استراليـا ، وكندا ، والولايات المتحدة الأمريكية . وهذه الحال مستمرة فى التدهور ، فقد اشترت روسيا ١,٢٥٠,٠٠٠ طناً من القمح من الولايات المتحدة ، فيما بين ١٩٤١ — ٥٦ .. وهذا هو الذى يجرى فى الصين الشيوعية[2] .

• • •

وتؤكد هذه التجارب القاسية التى خاضتها البشرية أن العقل الإلهى — الذى هو منبع القانون الحقيقى — هو أعرف بالطبيعة الإنسانية ، وأكثر فهماً لمسائلها ومشكلاتها .

إن فى الدين جواباً محـدداً لكل الأسئلة التى تؤرقنا فى كفاحنا الحضارى . إنه يوجهنا إلى المشرع الحقيقى الطبيعى ؛ وهو يضع لنا الأساس النظرى للقانون .. فهو يمنحنا أساساً صائباً لكل مسألة فى الحياة البشرية حتى يمكن لها الوصول إلى أعلى درجات الازدهار والرقى ؛ وهو الصورة الوحيدة للمساواة الكاملة بين الحاكم والرعية . وهو يهيئ الأساس النفسى ، الذى يصبح القانون بدونه مشلولا بلا حراك ، وهو يخلق لنا ذلك المناخ المناسب الذى لا بد منه لتطور أى مجتمع تطوراً حيوياً وفعالا .

وهكذا يعطينا الدين كل ما نحتاج إليه لبناء الحضارة ؛ فى حين لا يتيح لنا الإلحاد والكفر شيئاً ما ، سوى الضياع والفاقة ، فهو عقيم لا يجدى نفعاً .

• • •

---

(١) Buletin (Germany), Nov. 1963.

(٢) Ibid, Oct. 1963.

الباب التاسع

الحياة التى ننشدها

كتب « فريدرك أنجلز » :

« لا بد للإنسان أن يجد لباساً يستر به جسده ، وخبزاً يشبع به بطنه ، حتى يستطيع الخوض فى الفلسفة والسياسة » .

والواقع أن الأسئلة الأولى التى يسعى الإنسان إلى معرفة جواب عنها فى حياته هى :

من أنا ؟

وما هذا الكون ؟

وكيف بدأت حياتى ؟

وإلى أين ستنتهى ؟

إنها أسئلة الفطرة الأساسية . فالإنسان يفتح عينيه فى عالم يحوى كل شئ ، غير جواب هذه الأسئلة ؛ فالشمس توصل إليه الحرارة اللازمة ، ولكن الإنسان غافل عن حقيقتها ، وعن أسباب قيامها بهذه العملية لخدمته ، والهواء يعطى الحياة للإنسان ، ولكن الإنسان غير قادر أن يؤثر فيه ليجيب عن السؤال : من أنت ؟ ولماذا تقوم بهذا العمل ؟

إنه يمعن فى وجوده ، ولكنه لا يفهم من هو ؟ ولماذا جاء إلى هذه الدنيا ؟ .

والذهن الإنسانى غير قادر على وضع إجابات هذه الأسئلة الأساسية فى حياة البشر ، ولكنه لن يتخلى عن بحثه ، ولن يمل هذا البحث عن جواب .

هذه الأسئلة ، وإن وردت ألفاظاً على ألسنة الجماهير ، فإنها تؤلم روحها ، وهى ترد أحياناً بطريقة يصاحبها الانفعال ، حتى يصبح الإنسان مجنوناً .

• • •

لقد عرفنا « أنجلز » مفكراً ملحداً ، ولكن إلحاده أتى عن طريق المجتمع المصاب بالبلبلة وعدم الاستقرار . لقد كان شغوفاً بالدين ، وكان يقضى وقتاً طويلا فى الكنيسة ؛ ولكنه بعد

ما كبر وتوسع نظره فى الدراسة أعرض عن الدين التقليدى . وهو يكتب أحوال هذه الفترة فى خطاب له إلى أحد أصدقائه ، قال :

« إننى أدعو كل يوم ، وأقضى اليوم كله داعياً أن تنكشف لى الحقيقة . لقد أصبح الدعاء هوايتى ، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبى ؛ إننى لا أستطيع أن أقبل عقائدكم . إن قلبى يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور ، قلبى يبكى ، عينى تبكى ، ولكننى أشعر أننى لست بطريد من رحمة الله ، بل آمل أن أصل إلى الله الذى أتمنى رؤيته بكل قلبى وروحى . وأقسم بحياتى أن عشقى وبحثى هذا لمحة من روح القدس . ولن أقلع عن تفكيرى هذا ، ولو كذبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة !! »

لقد أقلقت غريزة البحث عن الحق روح « أنجلز » الشاب ، ولكن الدين المسيحى التقليدى لم يمنحه السكينة التى كان ينشدها ، فانقلب متمرداً عليه ، وانغمس فى الفلسفات السياسية ، والمادية الإلحادية .

• • •

وجذور هذه الغريزة الإنسانية هى إحساس البشر بحاجتهم إلى الرب الخالق ؛ ففكرة : « الله خالقى وأنا عبده » منقوشة فى اللاشعور الإنسانى ؛ وهى ميثاق سرى مأخوذ على الإنسان منذ يومه الأول ، وهو يسرى فى كل خلية من خلايا جسمه ؛ وعندما يفتقد إنسان ما هذا الشعور يحس بفراغ عظيم ، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن إلهه الذى لم يره قط ، والذى لو وجده لخر راكعاً على ركبتيه ، ثم ينسى كل شئ .

وليس الاهتداء إلى معرفة الله غير الوصول إلى المنبع الحقيقى لهذه الفطرة الإنسانية ، والذين لا يهتدون إلى المعرفة يقبلون على أشياء أخرى . فإن كل قلب يبحث عمن يهدى إليه خير أمانيه .

• • •

وعندما رفرف العلم الوطنى لأول مرة على الأبنية الحكومية فى الهند بدلا من العلم البريطانى : « اليونيان جاك » ، فى صباح يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ — اغرورقت عيون كثيرة بالدموع ، وهى ترى الصورة التى طالما حلمت بها . وكانت هذه الدموع مظهراً لعلاقة أصحابها « بالمعبودة : الحرية » ، التى ضحوا من أجل الحصول عليها بخير أيام حياتهم .

وهكذا عندما يذهب زعيم وطنى إلى ضريح « أبى الوطن » ويضع عليه إكليل الزهور ، ثم يقف أمامه لحظة مطأطئاً رأسه ، فهو حينئذ يباشر نفس العمل الذى يقوم به المؤمن أمام معبوده ، حين يركع ويسجد .

وحين يمر شيوعى أمام تمثال « لينين » ويرفع قبعته عن رأسه ، ويبطئ فى سيره ، يكون

هو الآخر ، مثل رجل الدين ، يقدم أحسن تمنياته إلى إلهه . فكل إنسان مجبور على أن يتخذ شيئا ما إلهــا له ، ويقدم له قرابين أمانيه الصادقة .

ولكن الإنسان إذا قدم هذه القرابين لغير الله ، فهو يشرك بمن يستحق وحده العبادة . . . و « إن الشرك لظلم عظيم »[1] ، والظلم أن تضع الشيء في غير موضعه ، فلو كنت تريد أن تتخذ من غطــاء الوعاء قبعة فهو « ظلم » ، والإنسان عندما يميل إلى غير الله لمل‌ء فراغه النفسي ويتخذ من غير الله ملجأ له ، فهو ينحاز عن مكانه الصحيح ، ويتخذ من غريزته أسوأ أسباب الضلال .

ولمــا كانت هذه الغريزة فطرية ، فإنها تظهر دائماً في صورتها الطبيعية متجهة إلى الله ، ولكن المجتمع ، وأحوال البيئة ، يعطيان هذه الغريزة اتجاها مغايراً ، فتبدأ الشكوك تساور الإنسان في أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه الشكوك ، عمدا أو عفوا ، لأنه يتمتع بحرية أكثر في الحياة الجديدة ، فيرضى بها ولو ظاهرياً .

• • •

لقد كان «برتراندرسل» شديد العلاقة بالدين في أول حياته ، وكان يواظب على حضور صلوات الكنيسة باهتمام ، وفي يوم من الأيام سأله جــده : ما تكون دعــواتك المفضلة يا « برتي » ؟

فأسرع الشاب برتراند رسل يقـــول : « لقد سئمت الحياة ، وأنا مدفون تحت وطأة ذنوبي — يا إلهي ! » وعندما جاوز برتراند الثالثة عشرة من عمره بدأت خواطر التمرد تراود ذهنه ، بفعل البيئة التي أحاطت به ، إلى أن تحول ذلك الطفل المواظب على صلــوات الكنيسة فأصبح من بعد برتراند رسل الفيلسوف الملحد ، الذي لايؤمن بالحقــائق السماوية . وقد أجرت الإذاعة البريطانية حديثاً معه عام ١٩٥٩ ، وعندما سأله « فريمان » — المعلق السياسي بالإذاعة — : « هل وجدت أن هواية الاشتغال بالرياضيات والفلسفة يمكن أن تحل محــل المشاعر الدينية عند الإنسان ؟ » ، أجاب « رسل » قائلا : « نعم ، لقد وصلت في سن الأربعين إلى الطمأنينة التي قال عنهــا « أفلاطون » : إنه يمكن الحصول عليها من طريق الرياضيات . إنها عــالم أبدي ، حر ، لا يقاس بزمان . ولقد حظيت في هذا العــالم بسكينة تشبه تلك التي يحصلون عليها في الدين » .

لقد أنكر هذا المفكر البريطاني حقيقة المعبــود السماوي ، ولكنه لم يستطع الاستغناء عن ضرورتها القصوى ، بسبب الغريزة الفطرية التي ولدبها الإنسان ، فجاء بالرياضيات والفلسفة ، وأجلسهما في المقعد المخصص لله وحــده . بل اضطر أيضاً أن يخلع على الرياضيات والفلسفة

---

(١) لقمان : ١٣ .

نفس الصفات التى يتفرد بها الله سبحانه ، وهى : الأبدية ، والتحرر من أبعاد الزمن ، والسر فى ذلك أنه لا يمكن الحصول بدونهما على الطمأنينة التى يبحث عنها الإنسان .

* * *

« جواهر لال نهرو فى حالة الركوع ! » لو كانت الصحف قد نشرت هذا الخبر فى يوم من الأيام لما صدقها الناس ! ولكن الصورة التى تحملها الصفحة الأخيرة من جريدة « هندوستان تيمس » ، الصادرة فى دلهى يوم ٣ أكتوبر من عام ١٩٦٣ ، تصدق هذا الخبر . وقد ظهر فى تلك الصورة رئيس وزارء الهند الأسبق فى حالة ركوع ، واقفا أمام ضريح المهاتما غاندى فى ذكرى ميلاده ، وهو يقدم تمنياته إلى « أبى القومية الهندية » !

إن مثل هذه الأحداث تقع كل يوم فى كل مكان من العالم ، وآلاف من الناس الذين ينكرون وجود الله يركعون أمام معبوداتهم ، تسكينا لغريزتهم التعبدية ، وذلك لأن « الإله » ضرورة فطرية للإنسان . وهذه المظاهر كافية لتأييد هذه الغريزة على أنها طبيعية ، لأن الإنسان يضطر إلى الركوع أمام آخرين كثيرين ، إذا ما امتنع عن السجود أمام « الله الواحد » ؛ أى أن فطرته لن تتمكن من ملء الفراغ الذى يخلو عند إنكار وجود الله ، والإلحاد .

* * *

وليست الحقيقة أن يتخذ الإنسان آلهة آخرين عند الكفر بالله ، فيسكن غريزته ، بل سوف أقول : إن الذين يتخذون من غير الله إلها محرومون من الاستقرار والطمأنينة الحقيقيين ، كالطفل اليتيم الذى يحاول أن يتخذ من مصنوعات البلاستيك « أما » له .

وكل ملحد ، مهما بدا له ، أو للآخرين ، أنه ناجح ، يتعرض فى حياته لمواجهة لحات ، يضطر إزاءها أن يفكر فيما إذا كانت الحقيقة التى قبلها — مصطنعة وزائفة ؟

* * *

وعندما ختم « جواهر لال نهرو » سيرته الذاتية سنة ١٩٣٥ ، أى قبل اثنى عشر عاما من استقلال الهند ، كتب فى خاتمتها قائلا :

« إننى لأشعر أن فصلا من حياتى قد انتهى ، وأن فصلا آخر على وشك البدء ، ترى ماذا سيحوى هذا الفصل ؟ لا يستطيع أحد أن يتنبأ به ؛ فإن أوراق الحياة القادمة مختومة » .

وعندما ظهرت الأوراق الأخرى من حياة نهرو ، وجد نفسه رئيسا لوزارة ثالث كبريات دول العالم ، يحكم سدس المعمورة بدون شريك . ولكن « نهرو » لم يقتنع بهذا ، بل مازال يشعر ، وهو فى أوج بروزه السياسى ، أن هناك فصولا أخرى من كتاب حياته لما تفتح

لقد كان يحتمل فى قرارة ذهنه نفس السؤال الذى يولد معه الإنسان ، وقد قال نهرو ، وهو يخاطب مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى دلهى فى يناير من عـــام ١٩٦٤ والذى اشترك فيه ألف ومائتان من الممثلين من جميع أرجـــاء العـــالم ، قـــال :

« إننى سياسى ، ولا أجد وقتا كثيرا للإمعان والتفكير . ولكننى أضطر فى بعض الأحيان أن أفكر : ماحقيقة هذه الدنيا ؟ ومن نحن ؟ وماذا نقوم به ؟ إننى على يقين كامل أن هناك قوى تصوغ أقدارنا »[1] .

وهذا هو الشعور بعدم الطمأنينة الذى يسيطر على أرواح الذين يكفرون بالله معبوداً لهم ، ويخيل إليهم فى غمرة الملذات المؤقتة والأعمال الدنيوية الشاغلة — أنهم قد ظفروا بالاستقرار .. ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا مرة أخرى بأنهم محرومون من الطمأنينة والسعادة والاستقرار .

وهذه الحالة التى تنعدم فيها الطمأنينة والاستقرار لدى القلوب المحرومة من رحمة الله ليست مسألة أيام هذه الحياة المؤقتة وسنيها . وإنما هى أهم من ذلك بكثير .

إنها مسألة أزلية وأبدية ، تتمثل فيها آثار الحياة المعتمة الحالكة ، التى يقف على حافتها هؤلاء الأصحاب .

إنها البادرة الأولى لحياة الخلق الأبدية ، التى سوف يواجهونها بعد موتهم دون شك .

إنها أجراس التنبيه الأولى فى حياتهم ، تنذرهم بالأحوال الرهيبة ، والظروف المروعة التى سوف تمر بها أرواحهم .

وهى دخان من الجحيم الذى لابد لهم أن يخلدوا فيه .

ولو أن النيران شبت فى منزل أحدهم ، فقد ينبهه الدخـــان الذى سيدخل فى أنفه إلى الخطر الوشيك ، وهو يستطيع أن ينقذ نفسه لو استيقظ فى الوقت المناسب ، ولكن حين تمسك ألسنة النيران بسريره فسيكون الأوان قد فات . ولات حين مناص ، بل هو الهلاك الذى يحيط به من كل جانب ، فقد قدر له أن يحترق فى النيران ، لبلادة حسه ، وجهالته من أمره .

ترى ، هل يستيقظ الناس فى إبان النجاة ؟ فإن اليقظة النافعة هى التى تكون قبـــل فوات الأوان ، واليقظة عند الهلاك والـــدمار لا تمنح صاحبها غير القرار فى قاع البـــوار .

• • •

كتب البروفيسور « مايكل بريغشر » ترجمة لحياة جواهر لال نهرو — وقد سأل المؤلف نهرو فى لقـــاء له معه بنيودلهى فى ١٣ يونيه من عام ١٩٥٦ :

---

(١) جريدة National Herald عدد ٤ يناير عـــام ١٩٦٤ .

« ما المقومات اللازمة لبيئة صالحة ــ طبقا لفلسفتكم الأساسية فى الحياة ؟ » .

وأجاب رئيس الوزراء الأسبق قائلا :

« إننى أؤمن ببعض المعايير ، قل : إنها (المعايير الأخلاقية) ، ولابد لكل فرد وبيئة من التمسك بها ، وعند القضاء على هذه المعايير لا يمكنك الوصول إلى نتائج مفيدة ، رغم إحراز التقدم المـادى الهائل ، وأما (سبل) إقامة هذه المعايير والاحتفاظ بها فى المجتمع ، فإننى لا أعرفها ، وهناك نظرة دينية لإقامة هذه المعايير ، ولكنها تبدو لى ضيقة جدا مع كل طقوسها وطرقها ، فأنا أهتم اهتماما كبيرا بالقيم الأخلاقية الروحية ، بعيداً عن الدين ، ولكننى لا أعرف كيف يمكن الحفـاظ على هذه القيم فى الحيـاة الجديدة . إنها لمشكلة[1] » .

وهذا السؤال وجوابه يبينان بوضوح الفراغ الذى يواجهه الإنسان بشدة فى حياته ، فلهذ إقامة القيم والمعايير الأخلاقية من أهم ضرورات كل مجتمع ، حتى يتاح له جو الاستقرار لمواصلة مسيرة الحضارة . ولكن الإنسان ، بعد أن خذل الإله ، أخذ يخبط خبط عشواء بحثا عن هذه المعايير ، وسبل إقامتها فى حيـاة أفراد المجتمع . ولا يزال الإنسان ، رغم مئات السنين التى مضت ، فى أولى مراحل بحثه عن هذه المعايير المجردة عن الدين . . .

إنهم يحتفلون ، مثـلا ، بأسبوع الكـرم Courtes week لإذابة الحواجز بين الشعب والحكام ، ولكن العقلية البيروقراطية لا تذوب عند المسئولين ، رغم كل الجهود التى تبذل فى هذه المناسبات باسم « الأخلاق » .

ويعلقون على المحطات وداخل عربات القطارات لافتـات كبيرة تقول : « إن السفر بدون تذكرة جريمة اجتماعية » ــ ولكن نسبة السفر بدون التذاكر لا تقل ، بل تزداد يوما بعد يوم . وذلك يثبت أن عبارة « جريمة اجتماعية » غير كافية لتحريك ضمير الفرد ، والحفـاظ على النظـام[2] .

إنهم يبذلون جهودا ضخمة للتنفير من الجرائم ، عن طريق الصحافة ، قائلين مثلا : « الجريمة لا تفيد » Crime does not pay . ولكن النسبة المرتفعة للجرائم ، يوما بعد آخر ، دليل على أن « عواقب الجريمة » فى الدنيـا ليست رادعة ، حتى تمنع المجـرمين من القيـام بجرائمهم .

---

(١) Nehru — A Political Biography, pp. 607-8.

(٢) كل ما يقدمه المؤلف من أمثلة للتدليل على إفلاس الفلسفات المـادية الإلحادية ، غربية وشرقية ، موجود بوفرة فى بلاد شرقنا العربى ، وتوحى شواهد الواقع أن الأمور تزداد كل يوم سوءاً ، نتيجة سيطرة المنحلين والملاحدة على أجهزة التوجيه من جانب ، وقعـود رجال الدين عن أداء رسالتهم من جانب آخر ، ولا حل للمشكلة إلا بعودة الأمة إلى الله مـرة أخرى ـ (المراجع) .

وكثيرا ما طبعوا على جدران المكاتب عبارات تقول : « إن تقديم الرشوة ، وقبولها ذنب » ، ولكن المرء ، عندما يشاهد أن جرائم الرشوة تمضى فى طريقها على قدم وساق ، بمشهد من هذه العبارات نفسها ، يضطر إلى أن يعترف بأن الدعاية الحكومية لن تستطيع أن تمنع هذه الجريمة الاجتماعية القبيحة .

إنهم يكتبون فى كل عربة من عربات القطار : « إن القطارات ملك للشعب ، وإلحاق أى ضرر بها جريمة ضد الشعب . » ، ولكن المسافرين فى نفس هذه العربات يسرقون لمباتها الكهربائية الرخيصة ، ويحطمون زجاجها ، وربما يثورون فيشعلون فيها النيران . وهو دليل على : أن فائدة الشعب ليست بأقوى من فائدة الفرد ! ! . .

إن كبار الزعماء والسياسيين يعلنون فى خطبهم : أن استغلال الوسائل الحكومية لصالح الأغراض الفردية خيانة فى حق الشعب والدولة » . ولكن المشروعات الكبرى تفشل فى تحقيق أهدافها ، لأن النسبة الكبرى من الميزانيات المقررة تأخذ طريقها إلى جيوب المسئولين القائمين بأمر هذه المشروعات ، بدلا من إنفاقها فى مكانها الصحيح . وهكذا اختفت المعايير والقيم من الحياة القومية ، رغم كل الجهود التى بذلت من جانبى المصلحين والزعماء ، وباءت كل الوسائل التى استخدموها بالفشل الذريع[1] .

هذه الظواهر هى فى الواقع دلائل على أن الحضارة الإلحادية قد انتهت بركب البشرية إلى الوحل ، وقد ضللتها عن طريقها ، التى لم يكن منها بد لمواصلة المسيرة ، ولا حل لهذه الأزمة إلا بالرجوع إلى الله ، والتسليم بأهمية الدين للحياة ، فهو الأساس الوحيد الذى يساعد على النهوض بالحياة البشرية على خير وجه ، وليست هناك من أسس أخرى .

* * *

كتب البروفيسور تشستر باولز[2] ، السفير الأمريكى الأسبق لدى الهند ، يقول :

---

(١) إن الأمثلة التى ذكرها المؤلف هنا – من أسبوع الكرم إلى التلاعب فى أموال الدولة – أمور عادية جداً فى الهند ، وهى تحدث على مسمع ومشهد من الجمهور والمسئولين ، وترتب على ذلك أن الحالة الأخلاقية للشعب الهندى آخذة فى التدهور بشكل يخيف السياسيين من عواقبها على المدى البعيد ، وهؤلاء (الوثنيون منهم أو الملحدون) لا يعرفون كيف يسدون هذا السيل الخطر ، فغالبيتهم العظمى تجرى وراء مصالحها الذاتية ، ولذلك قد تفشى الفساد وعمت الرشوة وسادت اعتبارات العصوبية فى كل وسط ، من أدناه إلى أرقاه – وهى حال تدمى قلوب الساسة الوطنيين المخلصين ، ولكنهم مغلوبون على أمرهم المعرب .

(٢) Chester Bowles. هو من أشهر الخبراء الاقتصاديين فى الولايات المتحدة الأمريكية المعرب .

« إن الدول النامية تواجه مشكلات من نوعين ، فى طريق نهضتها الصناعية . والنوعان معقدان غاية التعقيد . **فأما أولهما** : فهو مشكلات الحصول على رأس المال ، والمواد الخام ، والخبرة الفنية ، وطرق استخدامها أفضل استخدام . **وأما النوع الثانى من هذه المشكلات** فيتعلق بالشعب والإدارة الحكومية . فعلينا قبل المضى فى ثورتنا الصناعية أن نتيقن من أن هذه الصناعة لن تخلق مشكلات أكثر مما تقضى عليه (من المشكلات) فعلا . ومن كلمات المهاتما غاندى : إن المعلومات العلمية والكشوف سوف تزيد من شراهة الإنسان ، على حين أن الإنسان هو الشىء الأهم من كل الأشياء(1) » .

فالشعب مجتمع يخضع للبرامج التقدمية ، ولكن عناصر التقدم ، وهى رأس المال والخبرة الفنية ، لا تجدى نفعا فى مجتمع يسوده الفراغ السياسى والحضارى(2) .

ما الطريق إلى سد هذا الفراغ لبناء مجتمع يضطلع فيه الشعب والحكام . كل بواجبه ، لرفع شأن البلاد ؟

إنه سؤال بدون جواب لدى المفكرين المحدثين ، والحق أن الإنسان لن يستطيع الوصول إلى جوابه فى ظل المجتمع الإلحادى . فكل مشروع تقدمى يصاب بتناقض مثير ، يتجلى فى لأن العقائد الشخصية لدى أفراده تخالف العقيدة الاجتماعية . فبرنامج التقدم الاجتماعى مثلا يهدف إلى إقامة مجتمع رفاهى يتمتع بالأمن والسلام ، ثم يقول المفكرون : « إن هدف الإنسان الأساسى هو الحصول على السعادة المادية ! » فهم بذلك ينكرون المبدأ الأول لبرنامجهم ، لأنهم يحرضون الأفراد على عمل هو عكس ما يحتاج إليه المجتمع .

ويرجع هذا التناقض إلى أن برنامجا من هذا النوع لم يحقق أهدافه إلى يوم الناس هذا ، وفشلت جميع الفلسفات المادية للنهوض بالحياة الاجتماعية .

إن معنى الحصول على السعادة المادية هو أن يسعى الإنسان بكل قواه إلى تحقيق كل ما تصبو إليه أمانيه ، ولكن تحقيق الأهداف الشخصية ، فى هذا العالم المحدود ، لا طريق إليه دون التأثير على الآخرين . ولذلك ، فعندما يسعى الفرد إلى تحقيق مطالبه يتحول إلى رزء بالنسبة للآخرين .. فأمنية الفرد تدمر أمانى المجتمع . وحين يجد فرد ، يتقاضى مرتبا بسيطا ، أن موارده لا تكفى لتحقيق سعادته الشخصية فإنه يسعى إلى تحقيق ذلك بكل الصور الممكنة ، حتى ليقدم على السرقات . والرشاوى ، والغش ، والتزوير ، والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة .. وعندئذ يبدأ المجتمع فى أن يعانى نفس المشكلات التى كان يعانى منها أحد أفراده .

* * *

(1) The Makings of a Just Society, Delhi 1963, pp. 68-69.

(2) المرجع السابق : ص — 31 .

إن العالم الحديث يعانى من مشكلة ، لم يجربها الإنسان طوال تاريخه هى مشكلة « جرائم الأطفال » ، التى أصبحت جزءا من المجتمع الحديث ! من أين يأتى هؤلاء المجرمون الصغار ؟ إنهم ضحايا « السعادة المادية » .. فكثير من الفتيان والفتيات يسأمون حياة الزواج بعد وقت قليل ، وحينئذ يبدأون فى البحث عن وجوه وأجساد جديدة ، ويحصلون على الطلاق ، بيد أن المجتمع هو الذى يدفع ثمن الطلاق ، حين يلملم فى رحابه « أطفالا يتامى فى حياة آبائهم وأمهاتهم » ، وما دام المجتمع المنحل هو الآخر لا يستطيع أن يهئ لهؤلاء الأطفال الطعام واللباس والمأوى ، فهم أحرار من كل قيد ، وهم ثائرون على المجتمع الذى أنجبهم . وتبدأ هذه الحال بالصعلكة ، ثم تنتهى إلى الجرائم القذرة التى كانوا ثمرتها .

ولقد صدق السير الفريد دينتج فى مقاله : « إن أكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض أسر محطمة[1] »

هذا التناقض بين الفلسفة الاجتماعية وأهداف الأفراد هو أصل كل المشكلات الاجتماعية . فجميع الحوادث التى نسميها فى قواميسنا « جريمة وذنبا » هى محاولة قوم للحصول على أمانيهم الذاتية فى الحياة ، بعد أن أخفقوا فى تحقيقها لسبب أو آخر . وهذه الحوادث تظهر فى أغلب الأحيان فى صور : الاغتيال ، والخطف ، والتدليس ، والتزوير ، والقرصنة ، والحروب ، والزنا ، وما إلى ذلك من الجرائم التى تعانى منها الإنسانية :

وهذا التناقض يبين بجلاء أن هدف الحياة الأساسى هو الحصول على رضا الله فى الآخرة ، لا غير . إنه هو الهدف الوحيد الذى يمكنه إنقاذ المجتمع والفرد من التناقض الكبير ، والسير بهما فى طريق الرخاء والسعادة المتبادلة ، لأن الفرد فى هذا الهدف لا يصادم أمانى المجتمع ، بل يشترك فى كفاحه بطريقة إيجابية فعالة .

فميزة نظرية (الآخرة) تأكيدها على أنها هى الأساس الوحيد لنجاح المشروعات الاجتماعية فى حين تبين فى نفس الوقت ، أنها هى الهدف الوحيد للإنسان الفرد أيضاً ، لأن أى شئ لاعلاقة له بالواقع لايمكنه أن يصبح بهذا القدر العجيب من الأهمية ، والموافقة لأهداف البشرية.

* * *

لقد تقدم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : « إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض ، غير الموت والشيخوخة » ! ! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب ، وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » التى هى نتائج أعراض التناقض الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يغذى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه

---

(١) The Changing Law, p. 111

فشل فى تغذية الشعور ، والأمانى ، والإرادة ، وكانت حصيلة ذلك جسما طويل القامة ممتلىء النواحى ، ولكن الجانب الآخر من الجسم ، وهو أصل الإنسان ، أصبح يعانى من أزمات لا حد لها .

لقد أكدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضا ناتجة عن الأعصاب ، من ناحية أو أخرى . ويقول علماء النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية ، والحقد ، والجريمة ، والخوف ، والإرهاق ، واليأس ، والترقب ، والشك ، والأثرة ، والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقينا جبارا ، حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ،فهو يجاهد فى سبيل هدف سام أعلى،ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

إن الإيمان بالله يعطى الإنسان محركا هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التى عبر عنها « السير وليام أوسلر William Osler » بقوله : « إنها قوة محركة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل » .

إن هذه العقيدة هى سر مخزن الصحة النفسية الموفورة ، التى يتمتع بها أصحابها ، وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهى إلا بالأمراض ، أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض . وهذه الظاهرة تثير شعورا كثيبا بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا فى الميدان الأخير ، ولذلك أكبوا على الميدان الثانى ، يسترون خيبتهم ، ويظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلا : « إن علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف أسرار القفل الدقيقة الذى سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة ! »

فالمجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد . فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكماليات المادية ، على حين يتسبب — لتركه الدين — فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيما . إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم . ويحقنك السم فى العضل !

وسوف أنقل هنا شهادة لهذه الظاهرة رواها الدكتور بول أرنست أدولف ، يقول :

« تعرفت أثناء دراستى بالكلية الطبية على التغييرات التى تطرأ على أنسجة الجسم بعد الإصابة بالجراح ، وشاهدت أثناء التجارب بالمنظار المكبر أن أعراضا محددة تطرأ على هذه الأنسجة ، مما يؤدى إلى اندمال الجروح وشفائها ، وعندما أصبحت طبيبا بعد إتمام دراستى

كنت جد مقتنع بكفاءتى وأنى أستطيع أن أحقق نتيجة موفقة بالتأكيد ، باستعمال الوسائل الطبية اللازمة ، ولكن سرعان ما أصبت بصدمة كبيرة ، حيث فرضت على الظروف أن أشعر أنى أعرضت عن أهم عنصر فى علم الطب ، ألا وهو : الله ».

« كانت بين المرضى الذين كنت مشرفا على علاجهم فى المستشفى ، عجوز فى السبعين من عمرها ، أصيب أعلى فخذها بصدام ، وأكدت صور الأشعة أن أنسجة جسمها تلتئم بسرعة ، فقدمت لها تهنئاتى لسرعة شفائها ؛ وأشار لى كبير الجراحين : أن أطلب منها العودة إلى بيتها بعد أربع وعشرين ساعة ، لأنها استطاعت أن تمشى دون أن تستند إلى شئ »

« وكان ذلك يوم أحد ، حين جاءت ابنتها تزورها على عادتها الأسبوعية ، فقلت لها : إن والدتك تتمتع بصحة جيدة الآن ، وعليك أن تحضرى غدا لترافقيها إلى البيت . ولم تلفظ الفتاة بشيء أمامى ، بل توجهت إلى أمها ، وقالت لها : إنه تقرر بعد مشورة زوجها أنهما لن يستطيعا تدبير عودتها (الأم) إلى بيتهما ، وخير لها الآن أن تنتظم لها سكنى بإحدى «دور العجزة».

وبعد بضع ساعات مررت بسرير العجوز ، فشاهدت أن انهيارا سريعا يطرأ على جسمها ، ولم تمض أربع وعشرون ساعة حتى ماتت العجوز ، لا بسبب فخذ مكسور ، بل جراء قلب كسير .

« وقد حاولت أن أقوم بجميع الإسعافات اللازمة لإنقاذها ، ولكن حالتها لم تتحسن . كانت عظام فخذها المكسورة ، قد تحسنت كثيرا ، ولكننى لم أجد علاجا لقلبها الكسير .. أعطيتها كل ما عندى من الفيتامينات ، والمعادن ، ووسائل التئام العظم المكسور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تنهض مرة أخرى ، لقد انجبرت عظامها دون شك ، وكانت تملك فخذا قوية . ولكنها لم تقو على الحياة ، لأن ألزم عنصر لحياتها لم يكن الفيتامينات ، والمعادن ، ولا انجبار العظم ، وإنما كان (الأمل) ، الأمل فى أن تعيش على نحو معين ، فتى ذهب الأمل فى الحياة ، ذهبت معه الصحة » .

« وكان لهذا الحادث تأثير عميق فى نفسى ، لإحساسى بأن هذا الحادث كان من المستحيل وقوعه ، لو كانت هذه العجوز تعرف « إله الأمل » ، الذى أؤمن به لكونى مسيحيا[1] »

هذا المثال يعطينا صورة من التناقض الذى يعانى منه العالم فى كل جانب من جوانب حياته ، فالعالم يحاول اليوم بكل قوة أن تمحى الأحاسيس والمشاعر الدينية من قلوب الناس ، وهو فى هذه المحاولة يسعى إلى نهضة الإنسان ، متجاهلا (الروح) ، عنصره الأصلى .

ومن نتائج هذه المحاولة أن الطب يستطيع أن يجبر عظام فخذ مكسورة ، ولكن حرمان الإنسان من العقيدة الإلهية يفضى به إلى الموت ، رغم كون جسمه فى صحة جيدة .

(١) The Evidence of God, pp. 212-14.

لقد دمر هذا التناقض الإنسانية تدميرا ، فالأجسام تحت الأثواب البراقة أحوج ما تكون إلى الهدوء والسعادة الحقيقيين ؛ والأبنية الفخمة تسكنها قلوب محطمة ؛ والمدن المتلألئة ببريق الحضارة هي بؤر الجرائم ، ومصانع المصائب ، والحكومات الجبارة مصابة بالدسائس الداخلية وعدم الثقة ؛ والمشروعات الضخمة تبوء بالفشل نتيجة لخيانة القائمين بها .. لقد أصبحت الحياة غير مرغوب فيها رغم التقدم المادى الهائل ، وكل هذا وذاك يرجع إلى حرمان الإنسان من نعمة الإيمان بالله ، لقد حرمنا أنفسنا من المنبع والأساس الذى هيأه لنا خالقنا ومالكنا .

إن سبب الأمراض النفسية ، التى أشرت إليها ، حقيقة واضحة جلية اعترف بها علماء النفس ، وقد لخص عالم النفس الشهير البروفيسور يانج C.G. Jung تجاربه عنها فى الكلمات التالية :

« طلب منى أناس كثيرون ، من جميع الدول المتحضرة ، مشورة لأمراضهم النفسية ، فى السنوات الثلاثين الأخيرة . ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى — الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم ، وهو ما بعد ٣٥ سنة — إلا الحرمان من العقيدة الدينية . ويمكن أن يقال : إن مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشئ الذى تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها فى كل عصر ، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى إلا عندما استرجع فكرته الدينية[1]

وإنها لكلمات جلية : « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[2] » .

ولو أردنا المزيد من الإيضاح ، فلسوف أقتبس من الأستاذ (ا . كريسى موريسون » رئيس أكاديمية نيويورك (سابقا) ، قوله :

« إن الاحتشام ، والاحترام ، والسخاء ، وعظمة الأخلاق ، والقيم والمشاعر السامية ، وكل ما يمكن اعتباره « نفحات إلهية » — لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد .

« فالإلحاد نوع من الأنانية ، حيث يجلس الإنسان على كرسى الله .

« لسوف تفنى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين .

« سوف يتحول النظام إلى فوضى .

« سوف ينعدم التوازن ، وضبط النفس ، والتمسك .

« سوف يتفشى الشر فى كل مكان .

« إنها لحاجة ملحة أن نقوى من صلتنا وعلاقتنا بالله [3]» .

(انتهى)

(١) Quoted by C.A. Coalson, Science & Christian Belief p. 110.

(٢) ق : ٣٧ .

(٣) Man Does not Stand Alone, p. 123.

الفهـــــرس

صفحة

الباب الخامس

صفحة